

الغريب بن ماء السماء
خلْف النبيّ محمّد
قراءة تاريخيّة جديدة
في السيرة النبويّة
2010

المؤلّف: الغريب بن ماء السماء

العنوان:خلف النبيّ محمّد

قراءة تاريخيّة جديدة في السيرة النبويّة

صدر:2010

المقدّمة

كتب أرنست رينان سنة 1851 قائلا: - بعكس الأنبياء الذين أسّسوا الديانات- فإنّ محمّدا **وُلد تحت أضواء التاريخ.**

فعلا، ليس لنا معلومات كثيرة عن الأنبياء الذين كانوا قبل محمّد، بل و تذهب البحوث الجديدة إلى التشكيك في وجودهم، فلا دليل علميّ على وجود النبيّ موسى، لا يوجد نقش فرعونيّ واحد عمّا حدث في مصر بين موسى و فرعون، رغم توثيق المصريّين القدامى لأحداثهم، كما أنّ القصّة التوراتيّة - و التي اقتبسها القرآن فيما بعد - عن النبيّ موسى أخذها اليهود من الروايات المنتشرة حينها، و إن سألنا أحدا هذا السؤال:
من هو الشخص الذي حين وُلد قامت أمّه بإلقائه في اليمّ وهو رضيع فحمله الماء إلى قصر الملك فتبنّاه و ربّاه و حين كبر ثار عليه؟
الجواب و بكلّ تأكيد : النبيّ موسى.
الجواب الصحيح : سرجون الأكادي (2334-2279 ق م)
و الظاهر, أنّ مؤلّف قصّة موسى التوراتيّة اقتبسها، بعد ألف سنة، من هذه القصّة الأكاديّة لصناعة رمز قوميّ يهوديّ يخرج بهم من مصر و يتّجه بهم نحو الأرض الموعودة، بل واعتبروا أنفسهم شعب الله المختار و المفضّل و هو ما انتقل بدوره إلى القرآن حين يقول: **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العالمين** [البقرة-47]
و كما أنّه لا يوجد دليل تاريخيّ واحد - خارج النصوص الدينيّة التوراتيّة - على وجود النبيّ موسى, فكذلك لا يوجد دليل أيضا على وجود أغلب الأنبياء الذين بعده، فلا استطاعت الأبحاث الأركيولوجيّة المكثّفة في فلسطين أن تجد دليلا واحدا على مملكة سليمان الأسطوريّة وتحكّمه بالجنّ و تسخيره الرياح، و لا استطاعت التدليل التاريخيّ على يوسف و لا من قبلهما ابراهيم.
أمّا عيسى، فلم يقع ذكره في أيّ مصدر خارج نصوص الإنجيل الدينيّة و المكتوبة بعد أكثر من نصف قرن من وفاة عيسى، لم يذكره ''بلين القديم'' و لا ''سيناك'' Sénèque ولا Quintilien و لا Plutarque ولا حتّى فيلون الاسكندري و الذي كان معاصرا لتلك الفترة و لم يترك شيئا حدث في فلسطين إلاّ ذكره، و قد أشار Charles Guignebert أستاذ تاريخ المسيحيّة في جامعة السربون سنة 1931 قائلا : **لنعترف أنّ كلّ الشهادات الوثنيّة و اليهوديّة التي تحدّثت عن عيسى في تلك الفترة** [و التي يزعم المسيحيون وجودها] **لا تقدّم لنا أيّ معلومة عن عيسى، بل لا تقدّم لنا يقينا أنّ عيسى قد وُجد فعلا** [1] لكن هذا لا يعني أنّ عيسى لم يوجد، خاصّة قد تمّ ذكر هذا الاسم عند فلافيوس جوزيف، [رغم تزوير هذا النصّ فيما بعد من طرف بعض المسيحيّين لإضفاء شرعيّة تاريخيّة على وجود عيسى] قلنا لا يعني هذا عدم وجود عيسى و إنّما يعني أنّ الشخصيّة التي قدّمتها لنا الأناجيل تختلف عن الشخصيّة الحقيقيّة التاريخيّة, فقد تمّ تطويعها لغرض دينيّ وأسطوريّ فيما بعد أثناء كتابة الأناجيل، غرض يعتمد على فكرة الخلاص و الفداء و الإله الذي أرسل ابنه ليفدي البشر و يخلّصهم من الخطايا.

[1] Jésus de Charles Guignebert, 1933, page 23

لم يقع استثناء النبيّ محمّد أيضا من هذه الأبحاث التاريخيّة، و قد ذهبت قلّة قليلة من الباحثين إلى نفي وجوده بسبب انعدام الأدلّة التاريخيّة، لكنّ هذه الفرضيّة غير مرحّب بها في الأوساط الأكاديميّة وتدخل في باب ''النقد المتطرّف'' Hypercritique.

و كما نعلم فإنّ السيرة النبويّة مكتوبة بعد قرن و نصف من وفاة النبيّ و اعتمادا على قناة شفويّة من جيل إلى جيل ممّا يُفقدها مصداقيّتها التاريخيّة و يؤسطرها و ينحو بها عن المعلومات الأولى الأصليّة، و نحن في هذا البحث نحاول أن نقوم بحفريّات كتابيّة في السيرة و تعريتها ومسح الأصباغ علّنا نصل إلى المعلومة أو شبه المعلومة كما كانت في بدايات القرن السابع ميلادي.

و قد أضفنا ملحقا في آخر الكتاب ذكرنا فيه شهادات سريانيّة و يونانيّة و أرمينيّة لكتّاب كانوا معاصرين للأحداث أثناء بدايات الإسلام و قبل بداية تدوين السيرة ممّا يعطي شهاداتهم مصداقيّة تاريخيّة أكثر بوصفهم شهود عيان أو ناقلين عن شهود عيان، و قمنا كذلك في ثنايا البحث ببعض المقارنات والرجوع إلى الأركيولوجيا كمصدر علميّ لقراءة التاريخ و كذلك العملة وبعض الوسائل الأخرى.

منهجي في هذا البحث هو الابتعاد قدر الإمكان عن الـ chrono centrisme و هو قراءة أو نقد التاريخ وفق ثقافتنا الحاليّة، أو إسقاط قيمنا المعاصرة على قيم أخرى في فترة ما من التاريخ، كما أنّني حاولت قدر الإمكان الاعتماد على الروايات ''الصحيحة'' [أضع كلمة صحيحة بين معقّفين لأنّ العنعنة و حدّثني فلان، لا يعتدّ بها في البحث التاريخيّ العلميّ] مع محاولة غربلتها و قراءة المعلومة المختفية خلفها، حيث ندرك الأصباغ الدينيّة التي تغلّفها و التي تغلّف ناقل الرواية والتي تغلّف أيضا من ينكرها أو يقبلها من رجال الجرح و التعديل.

أقدّم ثلاثة مشاهد:

المشهد الأوّل: (الأبواء، بين مكّة و المدينة)
محمّد الطفل له ستّ سنوات من العمر و جالس قرب جسد أمّه التي توفّيت منذ قليل، كان يبكي عليها بكاء شديدا، فاليوم صار يتيم الأبوين بلا صدر حنون يعود إليه.

المشهد الثاني: (قرب مكّة، غار حراء)
محمّد يبلغ من العمر أربعين عاما و يسمع صوتا لا مرئيّا يكلّمه، و صار نومه متقطّعا، و يرى كوابيس مزعجة، و حين يخرج إلى الخلاء يسمع الأحجار تحدّثه، الخ..

المشهد الثالث: (حصون بني قريظة، المدينة)
محمّد جمع كلّ الرجال اليهود من بني قريظة و جلس مع صحابته يتابع حكم الإعدام الذي أصدره بشأنهم، فيأتون بهم ثلّة ثلّة و يقطعون رؤوسهم في حفرة كبيرة، وقد تواصل المهرجان يوما كاملا حتى قتلوهم عن آخرهم ، والروايات المقلّة تقول كانوا ستّمائة نفس، و إذا سلّمنا بأنّ اليوم يتكوّن من أربع عشرة ساعة (من شروق الشمس إلى غروبها) فإنّ المعدّل كان قطع ثلاثة وأربعين رأسا في الساعة ، و إذا طرحنا أوقات الصلاة (الإجباريّة) و فترات الراحة وهتافات

الجمهور المتابعين للمهرجان فإنّنا نصل تقريبا إلى رأسين في الدقيقة، و بعدها دخل النبيّ بزوجة لأحدهم وتقاسموا الغنائم وباعوا البقيّة (النساء و الصبيان)
ما الذي حدث في شخصيّة محمّد اليتيم و تحوّله من الدعوة بالحسنى في مكّة إلى الدمويّة في المدينة؟ لماذا ترك كتّاب السيرة هذه الأخبار تصلنا؟

هذا و غيره سنطرحه في هذا البحث.

النبيّ قبل النبوّة

الطفولة

عادة ما يكون الرعاة من الطبقة السفلى في المجتمع المدنيّ، و مكّة هي مدينة قائمة حضريّة وتحكمها ضرورات اقتصاديّة و تجاريّة مع البلدان الأخرى و بالتالي هناك نظام رأسماليّ يحكمها، من أصحاب رؤوس المال و عبيد و وسائل نقل (الجمال) و رعاة لها و مخازن لحفظ البضاعة الخ، لذلك فإنّه من الخطأ القول أنّ العرب تعني "البدو" على التعميم، فلا يمكن المقارنة بأيّ حال من الأحوال بين مكّة و الطائف و المدينة مثلا و بين تجمّعات قبليّة متناثرة تحت الخيام، بين المجتمع الحضريّ و بين مجتمع الأعراب أو البادية، و إن كانوا يشتركون في العديد من القيم المشتركة العربيّة كالولاء القبلي و الثأر و تقديم العشيرة و غيرها فإنّ هذا التشارك يتجلّي بطريقة مختلفة في البدو و الحضر.فقد يستطيع شخص بقدراته الذاتيّة- في مكّة- و دهائه و رأس ماله أن يكون من علية القوم رغم أصله المجهول كعمرو بن العاص مثلا.
فقد كان في مكّة أيضا مجلس الحكماء (Senat) و الحكم لا يعود إلى رجل واحد فقط و إنّما بالإجماع (هذه القيم تسمّى الآن عصر الجاهليّة) و بالطبع فإنّ التنظيم الاجتماعيّ سيكون موازيا لهذه الحركة الاقتصاديّة و يكون للمرأة دور فاعل فيها حيث نرى أيضا سيّدة أعمال "خديجة" قائمة بنفسها و تعيش وحدها دون أن تكون بالضرورة تحت قوامة رجل، بل كان منهنّ نبيّات يستطعن استنهاض قبائل كاملة، و شاعرات، بل و كان لبعض النسوة عشّاق آخرون تحت سمع المجتمع و بصره، و قد تراجع العديد من الباحثين الأجانب عن فكرة وأد البنات [2] و رأوا أنّهم عمّموها على الجزيرة العربيّة و يرون أنّها وجدت في منطقة محدودة وإثر مجاعة و ليس كلّ العرب كانت تقوم بوأد بناتها بل هي حالات فرديّة خاصّة.
لذلك حين نتحدّث عن غزوات القبائل أو البدو أو الأعراب فإنّه يجب تحديد المنطقة التي نتحدّث عنها لأنّ العلاقات الاجتماعيّة و الاقتصاديّة مختلفة من منطقة إلى أخرى و من بنية إلى أخرى. كما أنّ هذا المجتمع التجاريّ في مكّة يكون أقلّ عنفا و أكثر تهذيبا، ليس فقط من الناحية التنفيذيّة (الشرطة) و إنّما أيضا من الناحية الثقافيّة و الاجتماعيّة و لنا في الثلاث عشرة سنة التي قضاها محمّد في مكّة يدعو إلى الله لم يتعرّض فيها لطعنة سيف أو سهم غادر من بعيد رغم مقدرتهم على ذلك و لم يتجاوز الأمر مجرّد شتائم أو مضايقات جسديّة عابرة بالأيدي لكن لم يصل إلى حدود القتل وإهدار الدم. (سنورد قصّة محاولة القتل و فداء عليّ بنفسه في أوانها)
إذن فإنّ مهنة رعي الأغنام، في مجتمع رأسماليّ كمكّة، تكون للطبقة العاملة و لا ترقى إلى قيمة أو قدر أصحاب المال، و محمّد كان راعيا، فكيف لراع أمّيّ فقير أن توظّفه امرأة أعمال في تجارتها (خديجة) و ترسله إلى البلدان الأخرى ليبيع و يشتري و يفاوض التجّار الآخرين، وهو من الطبقة الجاهلة الراعية للأغنام و لا خبرة لديه في التجارة و أساليب البيع و الشراء؟هذا يجعلنا نستبعد احتمال أن يكون راعيا (و ربّما اشتغل بالرعي مرّات عابرة) و نميل إلى أنّه كان يخرج مع القوافل و تعلّم أساليب البيع و الشراء و طبعا القراءة و الكتابة لتحرير العقود وإلاّ فإنّ خديجة ليست من البلاهة بمكان حتى ترسل تجارتها مع مبتدئ لا يفقه المهنة، و لا يكفي أن يكون أمينا و صادقا - كما جاء في السيرة- ليتمّ تكليفه بهذه المهمّة، و لا ننسى أنّنا نتحدّث الآن

[2] René Marchand/Mahomet, contre enquête /Paris/2006/p133

عن محمّد الشاب الذي لم يصبح نبيّا بعد، فهو مجرّد شخص مثله مثل غيره في مكّة فلا يجب إسقاط رؤيتنا الحاليّة التي نعرفها عنه على وضعه وقتها.
و قد بدأ خروج محمّد مع القوافل مبكّرا حيث ذهب مع عمّه الزبير إلى اليمن و هو ابن بضع عشرة سنة [3] و لا يخفى علينا المعلومات التي سيكتسبها في مثل هكذا رحلات خاصّة في كيفيّة سير القافلة و الاهتداء بالنجوم و الطرق الآمنة و كذلك مفاوضات البيع و الشراء، ثمّ حين توفّي عمّه الزبير كان عمر محمّد تقريبا أربعة عشر سنة فانفرد بتربيته عمّه أبو طالب.
و من الجنوب ننتقل إلى الشمال، فيخرج محمّد مع عمّه أبي طالب إلى الشام للتجارة (ربّما خرج إلى الشام قبل اليمن) و كلّ هذه الرحلات من شأنها أن تصقل معارف محمّد في التجارة و تسيير القوافل، فلا نعجب حينها أن تقترح عليه امرأة أعمال تملك (شركة دوليّة للاستيراد و التصدير حسب تعبير عصرنا) العمل معها، فهو يملك خبرة في الرحلات والقوافل التجاريّة منذ طفولته، فيكون فعلا الرجل المناسب و ما كان لتخطئه عين تاجرة ثريّة كخديجة.
و قبل أن نواصل الحديث عن لقائه و زواجه من خديجة نعود قليلا إلى شخصيّتين ارتبطتا بشكل ما (أو ربطهما كتّاب السيرة العبّاسيون) بمهمّته كنبيّ فيما بعد.

الشخصيّة الأولى:

ورقة بن نوفل:
تظهر هذه الشخصيّة مبكّرا في السيرة و قبل ولادة محمّد، حيث أنّ أخت ورقة بن نوفل و اسمها أمّ قتال بن نوفل راودت عبد الله (أبا محمّد)عن نفسه حين كان مارّا بجانب الكعبة، لكنّه رفض دعوتها و تزوّج بآمنة بنت وهب [4] فحملت بمحمّد.
ثمّ تعود هذه الشخصيّة للظهور مرّة أخرى، حين كان محمّد طفلا، حيث افتقدته أمّه فخرجوا للبحث عنه في مكّة، فكان أن وجده ورقة ابن نوفل مع شخص آخر غير مذكور في السيرة [5] ثمّ تظهر هذه الشخصيّة فيما بعد عند نزول الوحي، كما يعرف الجميع، و سنعود إلى تلك الأحداث في أوانها.

الشخصيّة الثانية:

الراهب بحيرى:
تظهر هذه الشخصيّة حين سافر محمّد مع عمّه إلى الشام و توقّفت القافلة ببصرى ، و انتبه لهم راهب يدعى بحيرى، و بشّر بنبوءة محمّد، و قد حذّر هذا الراهب أبا طالب قائلا: **احذر عليه اليهود** [6] و سنتوقّف قليلا هنا و نتساءل:
لماذا اليهود بالذات؟ و الحال أنّ الإسلام - في التوحيد - أقرب إلى اليهوديّة من المسيحيّة.
إن لم يقلها بحيرى، فلماذا قالها كاتب السيرة العباسيّ و ما هو دافعه؟

---

[3] ابن كثير/البداية و النهاية/الجزء الثاني/ص 338 /تحقيق علي شيري/ دار إحياء التراث العربي/1988
[4] الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ج1/ص 498/ دار الكتب العلميّة/بيروت/1986
[5] ابن كثير/البداية و النهاية/ج2/ص 338
[6] المصدر السابق/ج2/ ص 346

- هل بحيرى شخصيّة تاريخيّة حقيقيّة؟

الظاهر أنّ الكاتب العباسيّ يسقط أحداث عصره على الماضي، نظرا لعدم الثقة التي كانت قائمة بين العرب و اليهود بعد الإسلام، و هذا الوضع لم يكن كذلك من قبل فقد كان اليهود يعيشون مع العرب جنبا لجنب قبل الإسلام، في اليمن و في يثرب و في خيبر، و يتزوّجون من بعضهم حيث يذكر ابن حبيب في المنمّق زاوج هاشم جدّ النبيّ من يهوديّة من أهل خيبر [7] وغيره أيضا من قريش و سائر العرب، فالعداء لم يكن بين العرب و اليهود بالصورة الحادّة التي صار عليها بعد الإسلام و يمكن اعتبار هذه النبوءة لبحيرى، من إضافات الإخباريّين فيما بعد ليظهر النبيّ أنّه كان منتظَرا من أهل الكتاب.

أمّا بحيرى فهو شخصيّة ليست ثابتة تاريخيّا، و ربّما وُجدت فعلا، لكن - و في غياب الدلائل- فإنّي سنتناول الأمر من وجهة نظر أخرى.

بالنسبة لذكر بحيرى في التراث الإسلامي فإنّ الغرض منه واضح و هو الإشارة إلى أنّ نبوّة محمّد كانت منتظرة من العديد من رجال الدين، كما أنّ هذا المنتظر يحمل علامات جسديّة معيّنة يُعرف بها، وهذا الربط بين "المختار المنتظر" وبين العلامات على جسده مشهور في التراث اليهوديّ كمخطوطة قمران رقم Q5344 بالعبريّة [8]

و لفظ بحيرى بالسريانيّة يعني "المجرَّب" [9] و بالعبريّة يعني "المختار" و بالعربيّة "كثير العلم"، وإن صحّ أنّ بحيرى هو راهب نسطوريّ سريانيّ فإنّ لقبه "المجرّب" هو الأصحّ، بيد أنّه تمّ أخذ هذا الاسم فيما بعد من الطرف المسيحيّ و ربطوه بكتاب "قيامة دانيال" المكتوب في بداية الألفيّة الأولى و الذي يذكر فيه الاسم على مقطعين بحير- رع :בחיר רע أي "مختار الشرّ" كإشارة إلى تعليم هذا الراهب محمّدا و بداية الشرّ أي الإسلام، حسب منظورهم، كما تمّت كتابة "قيامة بحيرى" يتحدّث فيها الكاتب أنّ بحيرى علّمَ محمّدا، و هو الذي أملى عليه القرآن، و هذا الكتاب المنسوب لتلميذ بحيرى يفتقد تماما المصداقيّة التاريخيّة، حيث أنّ أقدم نسخة تعود إلى القرن التاسع ميلادي بالسريانيّة و توجد اختلافات عديدة بين جميع النسخ العربيّة و السريانيّة والعبريّة و الأرمينيّة و اللاتينيّة، كما يُذكر فيها أسماء الخلفاء العبّاسيّين تحت اسم موسى وهارون، في إشارة إلى موسى المهدي و هارون الرشيد. ممّا يدلّ على تأخّر كتابة هذا النصّ وأنّ الغرض منه هو نفي النبوّة عن محمّد، و مع ذلك فإنّ أقدم ذكر لمذهب بحيرى باعتباره هرطقة في جزيرة العرب يعود إلى القرن السابع ميلادي [10]

أن يذكر لنا كتّاب السيرة، بعض الحوادث عن طفولة محمّد تدعّم نبوّته، كحلم آمنة، و حادثة شقّ صدره، و تنبّئ بحيرى بشأنه العظيم، فهذا أمر مفهوم و يدخل في باب الصورة التي يجب تقديمها عن محمّد، لكن لماذا تمّ ذكر حادثة ضياعه و هو طفل و عثور ورقة بن نوفل عليه؟

---

[7] محمّد بن حبيب البغدادي/المنمّق في أخبار قريش/ص 402/ تحقيق: خورشيد أحمد فاروق/عالم الكتب/لبنان/1985

[8] Les manuscrits de la mer morte/Michael Wise /Plon/Paris/2001/p555

مثال عمّا جاء في مخطوطات قمران في النبوءات اليهوديّة المزعومة: [...]على اليد علامـ[تان] علامة أن يكون شعره أصهب وتكون له شامة على [...] و على فخذه علامات صغيرة غير متشابهة.

[9] L’expansion nestorienne en Asie/ Nau François/ Annales/Paris/1913/p.215/note1

[10] Seeing Islam as others saw it/Robert Hoyland/USA/1997/p476/note 72

لماذا لم يذكروا إلاّ هذه المعلومة- من ضمن المعلومات النادرة -التي وصلتنا عن طفولته؟ ولماذا ورقة بن نوفل بالذات؟ ورقة ذلك الرجل العارف – كما تروي كتب السيرة – بكتب الأوّلين والذي كان يكتب الإنجيل العبرانيّ إلى العربيّة.

و بعد هذه الفلاشات السريعة التي تقدّمها لنا السيرة عن طفولته - و التي لا تفيدنا في شيء- إلاّ، ربّما، حادثة واحدة حينما كان يلعب مع الصبية و هو طفل فيرفعون ثيابهم لحمل الحجارة و كان محمّد يفعل مثلهم، فيكشفون عن عوراتهم، و فجأة شعر محمّد بشخص غير مرئيّ يلكمه قائلا : **شدّ عليك إزارك، قال (أي محمّد) : فأخذته فشددته عليّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي، وإزاري عليّ من بين أصحابي.** [11] هذه القصّة - كما يقول ابن كثير في الصفحة نفسها- تتكرّر مرّة ثانية مع محمّد و هو شاب أثناء بناء الكعبة و كان ينقل الحجارة مع عمّه العبّاس ويرفع أيضا إزاره، و يرويها عمّه قائلا : **وأفردتْ قريش رجلين رجلين، الرجال ينقلون الحجارة، وكانت النساء تنقل الشيد، فكنت أنا وابن أخي، وكنّا نحمل على رقابنا، وأزرنا تحت الحجارة، فإذا غشينا الناس ائتزرنا، فبينما أنا أمشي ومحمّد أمامي، فخرّ وانبطح على وجهه، فجئت أسعى وألقيت حجري، وهو ينظر إلى السماء فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره قال: إنّي نهيت أن أمشي عرياناً. قال [أي محمّد]: وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون** [12]
نلاحظ الحضور القويّ للوازع الأخلاقيّ عند محمّد منذ شبابه في الرواية الثانية حتى أنّه سقط على الأرض و عيناه شاخصتان إلى السماء، كما أنّ هذه الهواتف أو الكائنات غير المرئيّة كانت تظهر له منذ بداية شبابه، و هو يكتمها عن الناس مخافة اتّهامه بالجنون، و ستزداد هذه "الرؤى" حدّة مع الوقت و تتمظهر في أشكال مختلفة فيما بعد، كسماعه تسبيح الحصى، وتسليم الحجارة عليه حين يخرج إلى الخلاء، و طبعا رؤيته جبريل، و سماع هواتف غير مرئيّة، الخ. و هي ما يفسرها المنحى الديني بالوحي و النبوءة، بينما يفسرها المنحى العلمي بالشيزوفرينيا وتنطبق على كلّ الأنبياء الصادقين الذين لا يدّعون النبوّة كذبا و ليس فقط على محمّد، ويعتقدون باتّصالهم بالغيب، و قد حدث منذ سنوات أن نزل شخص إلى الشارع في نيويورك و بدأ في إطلاق النار على المارة، وحين ألقت الشرطة القبض عليه، أخبرهم أنّه سمع هواتف تأمره بذلك، و أنّه ينفّذ أمر الربّ، و طبعا حملوه مباشرة إلى مستشفى الأمراض العقليّة.
إذن، فإنّ محمّدا الذي يملك خبرة في التجارة بفضل رحلاته مع القوافل يلتحق للعمل مع خديجة، و يساهم في تحقيق أرباح لها، ممّا يدلّ على حنكته و إتقانه لمهنته.

---

[11] ابن كثير/البداية و النهاية/ ج 2 / ص 350
[12] المصدر السابق

الزواج

يبدو للبعض أنّ زواج محمّد من خديجة هو زواج مصلحة، أي لأجل مالها، خاصّة أنّه شاب ابن خمس و عشرين سنة و هي ابنة أربعين سنة، و هذا الكلام منطقيّ لكنّه لا يلمس الأمر من جميع جوانبه. فمن هي خديجة؟

هي خديجة بنت خويلد بنت أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب.

و محمّد هو ابن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب.



رسم توضيحي (1)

وخديجة بنت خويلد كانت متزوّجة برجلين من قبل أن تتزوّج بمحمّد: عتيق بن عابد من بني مخزوم و أنجبت منه فتاة اسمها هند تزوّجت فيما بعد بابن عمّها صيفيّ بن أميّة [13] وزوجها الثاني اسمه النباش بن زرارة و كنيته أبو هالة و أنجبت منه طفلين [14] :هند و هو ذكر وهالة (وهو ذكر)و هناك اختلاف في الروايات في هذا الأمر. و عتيق، زوج خديجة الأوّل (أو الثاني حسب الروايات) هو ابن عمّ الوليد بن المغيرة وهشام بن المغيرة والد أبي جهل.

---

[13] ابن حجر/الإصابة في تمييز الصحابة/تحقيق: علي محمّد البجاوي/ج6/ ص 16/ دار الجيل/لبنان/1992

[14] ابن الأثير/أسد الغابة في معرفة الصحابة/ تحقيق:عادل أحمد الرفاعي/ج3/ص70/دار إحياء التراث العربي/1996

لماذا تزوّج محمّد من خديجة؟

الجواب واضح :هو فقير و هي غنيّة، و لنا أن نتساءل أيضا:لماذا تزوّجت خديجة من محمّد؟ هي ليست بالفتاة الصغيرة الغريرة التي يستطيع شاب التأثير عليها كما أنّها تعرف الوضعيّة الاقتصادية لمحمّد بما أنّه يعمل عندها و هي لها تجربة في الحياة و تزوّجت مرّتين من قبل، فما الذي يدعو امرأة تاجرة و غنيّة مثلها إلى الزواج من شابّ صغير؟

الروايات تقول أنّها أعجبت بأخلاقه و أمانته، لم لا؟ لكن خلف هذه الفتاة المعجبة توجد امرأة مجرّبة وحازمة أيضا ولا يوجد ما ينبئ في السيرة عن علاقة حبّ وهيام من أوّل نظرة والاحتمال الأقرب إلى المنطق هو أنّها تحتاج رجلا يعينها على تربية الأطفال وينوبها في أعمال التجارة، يطوّر لها مؤسّستها التجاريّة بسهولة بما أنّه رجل و مفاوضاته مع التجّار الرجال ستكون أسهل و قدرته على السفر جنوبا و شمالا، كما أنّها لا تستطيع ترك أبنائها والذهاب بنفسها في رحلات شاقّة، فزواجها منه هو مصلحة لها أيضا ومحمّد كذلك من عائلة عريقة وشريفة في مكّة وإن كان هو يستفيد من ثرائها فهي تستفيد من خبرته التجاريّة و شرف عائلته.

يقول الطبري: **كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرةً، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريشٌ قوماً تجاراً** [15] نلاحظ هنا حاجتها إلى شخص أمين تثق به، و يحبّذا لو كان زوجا لها لتمتين الروابط، فقالت له: **يا بن عم، إنّى قد رغبت فيك لقرابتك و وسطتك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك. ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهنّ شرفاً، وأكثرهنّ مالاً؛ كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليها. فلمّا قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب عمه؛ حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوّجها.** [16] ومحمّد لم يتزوّج بها من أجل مصلحة ماليّة فقط، بل ومصلحة نفسيّة أيضا، فهو يتيم الأمّ، وخديجة تكبره كثيرا فهي زوجة و أمّ أيضا، و لم يكن يردّ عليها طلبا كما جاء في السيرة، فمحمّد يعوّض هذا الجانب النفسيّ، خاصّة إذا رأينا لجوءه إليها و احتماءه بها حين نزل عليه الوحي أوّل مرّة، فهي زوجته و أمّه.

وبعد زواج محمّد من خديجة، يقفز كتّاب السيرة خمس عشرة سنة إلى سنّ الأربعين وقت نزول الوحي و كأنّهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر الوصول إلى هذه المرحلة، ربّما بسبب نقص المعلومات لديهم قبل نزول الوحي فحاولوا قدر جهدهم تأليف بعض القصص المبشّرة بالنبوّة في سياق أدبيّ تصاعديّ.

و بين زواج محمّد و نبوّته يذكرون لنا حادثة مروره بقريش أثناء بناء الكعبة و اختلافهم فيمن ينال شرف رفع الحجر الأسود (النيزك) و وضعه في موضعه، فاتّفقوا على تحكيم أوّل عابر، فكان - و يا محاسن الصدف- محمّد أوّل عابر(نلاحظ هنا أنّ تحكيمه -إن صحّ- وقع مصادفة)

---

[15] الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ج520/1

[16] المصدر السابق

وسوى هذه الحادثة، لا شيء.
لم يذكروا شيئا عن تجارته مع خديجة وهل كبرت أم توسّعت أم أفلست، و لم يذكروا شيئا عن حياته الاجتماعية، ربّما بسبب نقص المعلومات لديهم، و على كلّ حال حتّى لو ذكروها فسيقولون أنّ تجارة خديجة صارت وافرة بفضل محمّد و أنّهما يعيشان في سعادة وحبور. وإنّما المعنى أنّهم ينتظرون سنّ الأربعين و فترة نزول الوحي و يقفزون السنوات قفزا، ليدخلوا في الموضوع، رغم قدرتهم الأدبيّة على نسج القصص و حبكها.
فقط نعلم أنّ خديجة وهبتْ (أهدت) لزوجها محمّد، مولى سريانيّا اسمه زيد بن حارثة (الذي سيتزوّج محمّد امرأته فيما بعد) و لا يبدو أنّ محمّدا قد تمتّع بثروة خديجة، فلا تذكر السيرة أنّه امتلك عقارا أو أرضا، كما أنّه لم يتزوّج عليها طيلة حياته معها، رغم رغبته الشديدة في ولد أو أولاد ذكور - كأيّ رجل عربيّ- و قد أنجب ستّة أولاد منها (ذكرين توفّيا صغارا و أربع بنات) و نلاحظ هنا كيف تجازف خديجة بحياتها رغم سنّها المتأخّرة و تحبل ستّ مرّات.
يرى البعض أنّ محمّدا كان تزوّج خديجة على الطريقة المسيحيّة و أنّ ورقة بن نوفل هو من كتب عقد القران، لذلك فلا يحقّ له الزواج بغيرها، و نحن نعارض هذا الكلام لضعفه الشديد ونرجّح أنّ ورقة و محمّدا كانا من الأبيونيّين [17] و يؤمنان بالناموس الذي أنزل على موسى، ويحلّل التلمود الزواج بأربع نساء، و على كلّ حال لن نناقش المنطلقات العقائديّة لمحمّد في هذه البحث إلاّ نادرا.
ربّما كان عقد القران ينصّ على منعه من الزواج بأخرى و كانت خديجة لا ترضى بامرأة ثانية تقاسمها زوجها، لكنّ عدم إنجاب ذكر له ثقل نفسيّ على محمّد، حتى أنّ هناك من سينعته بالأبتر فيما بعد. و هذا قد يولّد شعورا باطنيّا بالظلم و بالحزن خاصّة حين تصبح زوجته عجوزا أو كما قالت عائشة: **وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين؟** [18] (كأنّ عائشة تتهكّم من خديجة هنا و تنعت خديجة بحمراء الشدقين، ربّما تقصد أنّ أسنانها سقطتْ ولم يبق إلاّ فراغ أحمر) هذا الشعور الباطني بالظلم يدفع محمّدا إلى الانعزال الاجتماعي فيما بعد، فيتحنّث في غار حراء.
و قد أنجب زينب و عمره ثلاثون عاما و تزوّجت من أبي العاص بن الربيع [19] قبل نزول الوحي، ونلاحظ هنا أنّها تزوّجت دون سنّ العاشرة، و كذلك فاطمة تزوّجت بعليّ دون سنّ العاشرة، ممّا يجعلنا نرجّح أنّ زواج البنات في تلك السنّ كان أمرا شائعا و عاديّا، و بالتالي ليس بدعة أن يتزوّج محمّد بعائشة ذات التسع سنين، و هو ما ينقده العديد متعجّبين كيف يتزوّج كهل في منتصف الخمسينيّات من طفلة لم تتجاوز العاشرة من العمر، لكن هذا خطأ، فليس بهذه الطريقة نقرأ التاريخ، لأنّنا نسقط قيم عصرنا على عصر آخر. و هو ما يسمّى في قراءة التاريخ: كرونوصونتريزم.

---

[17] الأبيونيّون هم مذهب بين اليهوديّة و المسيحيّة, موجود قبل الإسلام, حيث يطبّقون تعاليم التوراة و التلمود و في الوقت نفسه يؤمنون بعيسى بوصفه المسيح و ليس كابن إله, و يعتقدون بأنّه لم يصلب و أنّ شبهه ألقى على شخص آخر

[18] صحيح البخاري/كتاب مناقب الأنصار/باب تزويج النبيّ خديجة و فضلها

[19] الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ج2/ص41

ونلحظ هذا الأمر في الشعر الجاهليّ مثلا الذي هو مرآة لعادات ذلك العصر، فيقول الشاعر الجاهليّ ضمرة النهشليّ، متحدّثا عن أعمار النكاح للفتيات:

متـى تلق بنت العشر قد نُصّ ثديها كلؤلؤة الغوّاص يهتزّ جيدهــــــا
تجد لذّة منها لخفّة روحـــــــــها وغرّتِها و الحسن بعدُ يزيدهـــــا
و صاحبة العشريـن لا شيء مثلها فتــــلك التي تلهو بها و تريدهـــا
و بنت الثلاثيـن الشفاء حديثهـــا هي العيش ما رقّت و لا دقّ عودها
وإن تلق بنت الأربعيــــن فغبطة وخير النسـاء ودّها و ولــــــودها
و صاحبة الخمسيــــن فيها بقيّـة من الباه و اللذّات صلب عمـــودها
وصاحبة الستّيـــن لا خير عندها و فيها ضياع و الحريص يريـــدها
وصاحبة السبعين إن تلف معرسا عليـــها، فتلكم خزية يستفيدهـــــا

و قد تزوّجت رقيّة و أمّ كلثوم بنتا النبيّ من ابني أبي لهب، و اللذان طلّقاهما فيما بعد، حين تنبّأ محمّد، أمّا أبو العاص بن الربيع فلم يطلّق زينب، و قد كانا يحبّان بعضيهما ويقول الطبري : **وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلمت وبين أبي العاص بن الربيع، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدر على أن يفرق بينهما، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه** [20] و قد وقع زوج زينب في الأسر يوم بدر، فأرسلت تفديه، (و نرى هنا شدّة تعلّقهما) يقول: **لمّا بعث أهل مكة في فداء أسرائهم، بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص ابن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها،** و حين رأى محمّد قلادة خديجة **رقّ لها رقّة شديدة** و أطلق أبا العاص [21]

[20] الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ج2/ص 42
[21] المصدر السابق

الصدمة

التاريخ: يوم الاثنين، يقول الطبري: **"لا خلاف في هذا اليوم بين أهل العلم"**
وكان في شهر رمضان.إمّا 17 أو 18 أو 24 من رمضان، حسب الروايات.
ونحن اليوم نستطيع التأكّد من هذا الكلام: فالسنة التي يوافق فيها يوم الاثنين من رمضان أحد هذه التواريخ (أي 17 أو 18 أو 24 رمضان)هي:
25 أوت/آب سنة 609 ميلادي و توافق بالهجري: 18 رمضان سنة 13 قبل الهجرة.
و قد بحثت -على الهامش- في أحداث هذه الليلة (25 أوت 609 ميلادي) على موقع نازا NASA كتواريخ خسوف القمر مثلا، فللظواهر الطبيعيّة دور في إعطاء تهيّؤات لشخص وحيد في جبل في الخلاء في عمق الليل لكن لم أجد شيئا ذا بال.
لنجمع هذه الظواهر أوّلا:

كائن غريب يتبدّى له و يكلّمه:
قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ ؟ قال: فأخذني فغطني ثلاث مرات، حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: " اقرأ باسم ربك الذي خلق " فقرأت، فأتيت خديجة، فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبري [22]

الحجارة و الأشجار تكلّمه:
إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلِّم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن [23]

يسمع أصواتا تناديه باسمه، فيخاف:
إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد يا محمد فأنطلق هارباً في الأرض [24]

الرغبة في الانتحار:
وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مراراً حتى يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبلٍ تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك [25]

هذه الأعراض و الظواهر جلبت انتباه أحد علماء النفس و هو الدكتور عبّاس صدغيان Abbas Sadeghian الذي يعمل منذ عشرين سنة في Northeastern Ohio Universities College of Medicine و قام بتأليف كتاب بعنوان Sword & Seizure خلص فيه إلى أنّ النبيّ مصاب بالصرع [26] حيث لاحظ اعتمادا على الروايات و القرآن تعرّق النبيّ الزائد،

---

[22] الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ج1/ص530
[23] صحيح مسلم/ الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج1/ص207
[24] ابن كثير/البداية و النهاية/ج3/ص 8
[25] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج4/ص48
[26] Abbas Sadeghian/ Sword and Seizure/ Annotation press / USA/ 2006

والارتعاش الطفيف وهلوسات سمعيّة و بصريّة و حالات دينيّة زائدة تنتاب النبيّ، و تجدر الإشارة إلى أنّ هذا التشخيص ليس جديدا فهو قديم منذ عهد يوحنّا الدمشقيّ في منتصف القرن الثاني هجري. وإن كانوا قديما يعتبرون الشخص المصاب بالصرع مجنونا أو ممسوسا من الشيطان، فتشخيص عبّاس صدغيان هو أكثر علميّة من انطباعات يوحنّا الدمشقيّ و بعده كذلك تيوفان في القرن الثالث هجري الذي أشار إلى هذا المرض أيضا. و عبّاس صدغيان لم يقتصر فقط على الروايات في السيرة وإنّما عاد إلى القرآن أيضا حيث يلاحظ نعت قريش لمحمّد بالجنون ثماني مرّات في القرآن: الحجر-6/الصافات-36/الدخان-14/الذاريات-52/الطور-29/القلم-2/القلم-51/التكوير-22

أمّا مكسيم رودينسون Maxime Rodinson في كتابه 'محمّد' [27] فقد أشار إلى أنّ شخصيّة النبيّ متكوّنة من محورين، شخصيّة حكيمة متوازنة تعرف متى تأخذ القرارات، و خلفها شخصيّة قلقة متوتّرة عصبيّة، قد تذهب به أحيانا إلى أزمات عصبيّة لها طبيعة مرضيّة [28] وهذا يشير إلى انفصام الشخصيّة أي 'الشيزوفرينيا' و إن كان الكاتب يشير في البداية إلى أنّه من الصعب تقديم تشخيص طبّيّ و نفسيّ و تظلّ هذه التشخيصات تفتقر إلى التفاصيل الدقيقة رغم كثرة الروايات التي وصلتنا عن حياة النبيّ.

ولفظة الشيزوفرينيا مشتقّة من اليونانيّة، فـ Scheizen تعني انقسام و Phren تعني العقل أي Spirit و هو ما نعبّر عنها عادة بالفصام أو انفصام الشخصيّة. وأسبابها متعدّدة جدّا و كذلك أعراضها، و كلّ حالة تختلف عن الأخرى، بيد أنّ أغلب الباحثين اليوم يرون عنصر الوراثة (كأبي كبشة جدّ محمّد مثلا) يلعب دورا في الإصابة بها.

وأعراضها: سماع أصوات، رؤية كائنات غريبة، الخوف، الانهيارات العصبيّة، الرغبة في الانتحار، الأرق، الكوابيس، الكلام بجمل مرمّزة قريبة من الشعر، الخ.. و هذه الأعراض تختلف من شخص لآخر و قد تجتمع كلّها و قد يبدو بعضها فقط.

نلاحظ أنّ ما يجتمع فيه الأنبياء و ليس فقط محمّد – إن صحّ هذا التشخيص- هو سماع و رؤية أشياء غير مرئيّة، أي موجودة في ذهنهم فقط، فكلّ الأنبياء مصابون بالشيزوفرينيا. و يسمّي علم النفس هذا النوع: الشيزوفرينيا الغيبيّة (mystique) فيعتقد المريض أنّه على اتّصال بقوى غيبيّة مع الله أو الملائكة و أنّه في مهمّة مقدّسة و لو أنّ كلّ الأنبياء وقعت كتابة سيرتهم بالتفصيل المملّ كما حدث مع محمّد لرأينا العديد من الأعراض المشتركة بينهم.

و يؤيّد القائلون بالشيزوفرينيا رأيهم هذا بانقطاع الوحي في بداية الدعوة لمدّة ثلاث سنوات، وانقطاع هذه الرؤى أو التهيّؤات لفترة معيّنة يعرفه كلّ علماء النفس و تسمّى Rémission وتدوم بين ثلاث و خمس سنوات ثمّ تعقبها فترة هبوط أخرى Rechute فتعود هذه التهيّؤات من جديد، و في أغلب الأحيان يكون المريض قد تأقلم مع مرضه و يعود إلى الاندماج الاجتماعي.

[27] Maxime Rodinson / Mahomet/ Seuil / paris/ 1994

[28] Ibidem/p71 et passim : jusqu'à des crises nerveuses d'une nature tout à fait pathologiques.

ولا نحسب أنّ المريض بالشيزوفرينيا شخص عاجز أو هامشيّ أو مجنون، فالمشاهير والعباقرة الذين كانوا مصابين بها و تأقلموا مع مرضهم و نجحوا هم كثيرون مثل:
عالم الرياضيّات John Forbes Nash Jr و المتحصّل على جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية.
Bobby Fischer بطل العالم في الشطرنج سنة 1972.
الرسام العالمي فان غوغ.

هذه القراءات المختلفة للشخصيّة المحمّديّة هي قراءات ماديّة جدليّة تاريخيّة، لا تؤمن بالروحانيّات و إنّما تعتبرها أعراضا مرضيّة و تحاول تفسيرها طبّيّا و علميّا، بيد أنّنا سنورد أيضا الرأي المخالف لها و يتمثّل في الكاتب مالك بن نبيّ الذي عارض فكرة الشيزوفرينيا.

يقول مالك بن نبيّ:
إنّ مبدأ النبوّة يعرض نفسه بفضل شاهده الوحيد-النبيّ- بوصفه ظاهرة موضوعيّة مستقلّة عن الذات الإنسانيّة التي تعبّر عنه [29] ويعطي أمثلة عن النبيّ ارميا (اختار ارميا لأنّه يعتمد على أبحاث MONTET التي خلصت إلى أنّ كتاب أرميا هو الكتاب الوحيد المثبت تاريخيّا و لا شكّ في أصالته من ضمن جميع أسفار الكتاب المقدّس) : **هذه الصفات المميّزة، لا يمكن أن تلقى ببساطة تفسيرا نفسيّا، قائما على الحوادث التي تخضع لها ذات النبيّ، تلك الذات التي يبدو أنّها لا تبرز هنا إلاّ في مجرّد صورة مترجم مرهف الحسّ-متمنّع أحيانا- لظاهرة مستمرّة تلزمه بقانونها، كما ألزمت ذوات جميع الأنبياء، كما يثبت المجال المغناطيسي، اتجاه جميع الإبر الممغنطة. فمن الصعب أن نفسر ظاهرة-هذا وصفها- تفسيرا ذاتيّا شخصيّا** [30]

ثمّ يتكلّم عن محمّد قائلا:
(...) ومع ذلك ففي حوالي الأربعين نجده و قد شمله الهمّ و الألم أيضا، إنّه يشكّ، إنّه لا يشكّ في وجود الله، فإنّ ثقته فيه لم تتزعزع أبدا. ولكنّه يشكّ في نفسه هو (...) فنحن مضطرّون إلى أن نرى في هذا الشكّ نتيجة لحالة شخصيّة عارضة، وجد فيها النبيّ نفسه أمام مبادئ شعور، وأمام استشعار لبعض الأشياء الغريبة تمسّ من قريب مصيره الخاصّ. (...) فلو قلنا أنّ ذلك من عمل اللاشعور فيجب أن نطبّق هذه القاعدة على تفسير مادّة القرآن كلّها و تفسير فكرته المتّصلة، كما نفسر بها أيضا أعراض الظاهرة و طوارئها عند النبيّ، و لكن هذا-كما سنشير إليه فيما بعد- ليس أبدا ممكنا [31]
و على كلّ حال، فإنّ خلاصة القول هي أنّ مالك بن نبيّ يرى أنّ الوحي ظاهرة مستقلّة عن "الأنا" و ليس انقساما لها، و لا يمكن تفسيرها نفسيّا بل يجب ردّها إلى الظواهر الغريبة التي لا نملك لها تفسيرا ماديّا رغم وجودها اللاماديّ.
وهذه من تجلّيات النظرة المثاليّة للوجود بصفة عامّة(أي عكس الماديّة) و من روّادها على سبيل المثال أفلاطون و هيجل. و لن ندخل في نقد هذه الفلسفة، أوّلا لأنّ ليس مقامها هنا، ثانيا هو أنّنا

---

[29] مالك بن نبيّ/الظاهرة القرآنيّة/دار الفكر المعاصر/بيروت/سنة 2000/ص 87
[30] المصدر السابق/ص99
[31] المصدر السابق ص 123-124

أيضا لا نتبنّى عدوّتها أي النظرة الماديّة في تفسير الوجود، و إن كنّا نستفيد من جدليّتها التاريخيّة الماركسيّة في هذه القراءة.

في هذه الفترة المهتزّة و العصيبة، يشكّ محمّد في أنّه مجنون أو به جنّة، ولا يستطيع فهم الحالة التي تعتريه، و بدأ في مرحلة انهيار عصبيّ – حسب تعبيرنا المعاصر- حيث يقول محدّثا خديجة: **قال: قلت إن الأبعد - يعني نفسه - لشاعر أو مجنون، لا تحدثي بها عني قريشا أبدا لأعمدن إلى حالقٍ من الجبل فلأطرحنّ نفسي منه فلأقتلنّها فلأستريحنّ** [32] إنّه يرى الموت حلاّ يستريح فيه من هذه التهيّؤات التي ازدادت حدّتها كثيرا في الآونة الأخيرة، فيرى مثلا جبريل في هيئة شخص عظيم جالس على كرسيّ في السماء، فيتسمّر في مكانه من الخوف، ثمّ يعود إلى بيته في حالة نفسيّة صعبة، حيث يقول: **بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض فحثثت منه رعباً فرجعت فقلت زملوني زملوني**[33] لكنّ خديجة تقوم بتجربة تثبت لمحمّد من خلالها أنّ ما يراه هو ملاك من السماء و ليس شيطانا و ليس تهيّؤات و هلوسات، و تطلب منه أن يثبت و تبشّره بالنبوّة: **يا ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبرائيل عليه السلام كما كان يأتيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة: يا خديجة هذا جبرائيل قد جاءني ، فقالت: نعم، فقم يا ابن عم، فاجلس على فخذي اليسرى، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها، قالت: هل تراه ؟ قال: نعم، قالت: فتحوّلْ فلقعد على فخذي اليمنى، فتحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها، فقالت: هل تراه ؟ قال: نعم، قالت: فتحوّلْ فاجلس في حجري، فتحول فجلس في حجرها، قالت: هل تراه ؟ قال: نعم، فتحسّرتْ، فألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ في حجرها، ثم قالت: هل تراه ؟ قال: لا، فقالت: يا بن عم، اثبت وأبشر؛ فوالله إنه لملكٌ وما هو بشيطان**[34] وهذا ورقة بن نوفل أيضا يبشّر محمّدا بالنبوّة، حيث يجده قرب الكعبة فيسأل ورقة محمّدا: **يا ابن أخي، أخبرني بما رأيت أو سمعت، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده، إنك لنبيّ هذه الأمّة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى، ولتكذبنه ولتؤذينه، ولتخرجنه، ولتقاتلنه؛ ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرنّ الله نصراً يعلمه. ثم أدنى رأسه فقبّل يافوخه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى منزله. وقد زاده ذلك من قول ورقة ثباتاً، وخفف عنه بعض ما كان فيه من الهمّ** [35]

نلاحظ دور خديجة و ابن عمّها ورقة بن نوفل في تثبيت محمّد و إقناعه أنّه نبيّ و أنّ ما تبدّى له هو ملاك و ليس شيطانا، و قد اقتنع النبيّ فعلا بذلك، و ابتداء من هذه القناعة ستبدأ الملحمة المحمّديّة، و تبدأ أضواء التاريخ في التركيز عليه، ستبدأ قصّة غيّرت مجرى التاريخ، قصّة تبدأ من بيت صغير في مكّة البطحاء، في الجزيرة العربيّة، في مكان صحراويّ جافّ في هذه الكرة الأرضيّة، لتمتدّ و تصل في سنوات (قليلة في عمر الشعوب) إلى حدود الهند شرقا وحدود فرنسا غربا.

---

[32] الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ج1/ص531

[33] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج2/ص227

[34] الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ج1/ص532

[35] المصدر السابق

ملحمة بأتمّ معنى الكلمة، سنرى فيها الدموع و الأفراح، الانتصارات و الهزائم، الزهد و الطمع، الجنس، القتل، الرحمة، المواقف المؤثّرة، فلقد أبدع كتّاب السيرة في تقديم عمل أدبيّ لنا ولم يتردّدوا في التهويم مع الخيال أحيانا ولا في صناعة الأساطير أو المعجزات، و استطاعوا تقديم بناء دراميّ مشوّق.

من مكّة إلى الطائف

يبدأ القرآن في النزول فيما بعد، و يقول النبيّ: **بسم الله الرحمن الرحيم**، فيقول قائل من قريش: **دقّ فوك، إنّما تذكر رحمن اليمامة.**[36] وقال آخرون : **إنّا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة، يقال له الرحمن.**[37]

و رحمن اليمامة هو مسيلمة بن حبيب الحنفيّ، المسمّى بمسيلمة الكذّاب، و مسيلمة ادّعى النبوّة قبل محمّد، والرحمن هو اسم الإله الذي كان يدعو إليه مسيلمة، أو بالأحرى صفة أو أحد أسماء هذا الإله، وهو إله توحيديّ بطبيعة الحال فالله عند محمّد هو نفسه الرحمن عند مسيلمة، والرحمن معروف في اليمن [38] وفي أماكن أخرى متفرّقة و حتّى شمال الجزيرة العربيّة، ونجده في نقوش سبئيّة و آراميّة وصفويّة و يهوديّة و مسيحيّة قبل-إسلاميّة مختلفة، فلماذا نجح محمّد ولم ينجح مسيلمة؟ والحال أنّهما يدعوان إلى إله واحد؟ بل و مسيلمة أقدم من محمّد و أكثر تجربة وأعزّ نفرا و أمنع جندا كما سنرى لاحقا، لكنّنا نتمثّل بيت المتنبّي إذ يقول:

إذا غامرت في شرف مروم * فلا تقنع بما دون النجـــــوم**

فطعم الموت في أمر حقيـــر * كطعم الموت في أمر عظيم**

و محمّد لا يقنع بما دون النجوم، فهو النبيّ الوحيد و المؤسّس و لا يحقّ لأحد مزاحمته في هذا الأمر، وسنرى - فيما بعد - كيف استطاع فعلا النجاح بذكائه وقدراته التكتيكيّة، وحزمه وتدبيره، و دعم قريش له و من قبلها أهل يثرب، فصنع أمّة و وحّد قبائل متناحرة متباينة ، و قد يرى البعض أنّه الحظّ و أنّ الظروف ساعدتْه فنقول كما قال صقر قريش عبد الرحمن الداخل متحدّثا عن نفسه، ليس الحظّ و السعد، بل العقل و الحزم:

---

[36] السهيلي/الروض الأنف/ص 468 / تحقيق:عمر عبد السلام السلامي/دار إحياء التراث العربي/لبنان/2000

[37] السيرة النبويّة /ابن هشام/ص 222/ تحقيق:مصطفى السقّا-الأبياري-شلبي/دار الكتب العلميّ/لبنان/2004

[38] من أحد هذه النقوش نعطي مثالا عن الكلمات الأولى في نقش لأبرهة في بئر المريغين، (Ry 506)

ب خ ى ل / ر ح م ن ن / و م س ى ح هـ / م ل ك ن / أ ب ر هـ / ز ى ب م ن / م ل ك / س ب أ / و ذ ر ي د ن / و ح ض ر م و ت

وتعني: بقوة /الرحمن /ومسيحه/ الملك أبرهة /زيبمان/ ملك /سبأ /وذو ريدان /وحضرموت

و ي م ن ت / و ر أ ع ر ب هـ م و / ط و د م / و ت هـ م ت / س ط ر و / ذ ن / س ط ر ن / ك غ ز ى و

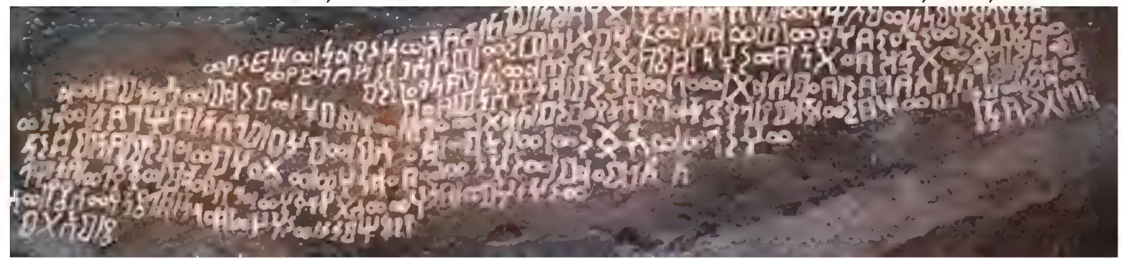
وتعني: ويمنات /وقبائلهم/ (في) الجبال/والسواحل/ سطر/ هذا/ النقش/ عندما غزا

م ع د م / غ ز و ت ن / ر ب ع ت ن / ب و ر خ ن / ذ ث ب ت ن / ك ف س د و / ك ل / ب ن ى ع م رم/

وتعني: (قبيلة) معد/ (في) غزوة/ الربيع/ في شهر/ "ذو الثابة" (ابريل) /عندما ثاروا/ كل/ (قبائل) بنى عامر

و لنا أن نلاحظ اختلاف اللهجة في هذا النصّ رغم أنّه نصّ عربيّ سبئيّ مكتوب ستّين سنة تقريبا قبل الهجرة، ولكنّه وكما نلاحظ يختلف عن لغة القرآن التي هي لغة قريش، و كذلك كلّ النقوش الموجودة في الجزيرة العربيّة، ممّا يجعلنا نتساءل مع طه حسين عن حقيقة الشعر الجاهلي الذي وصلنا كلّه بلغة قريش رغم اختلاف الأماكن و اللهجات

Beeston, Bulletin Of The School Of Oriental And African Studies, 1985, Volume 48



نقش أبرهة بالخطّ السبئي العربي، بئر المريغين، بين اليمن و مكّة

سعدي و حزمي و المهنّد و القنا*و مقادر بلغتْ و حال حـائلُ**
إنّ الملوك مع الزمـــان كواكبٌ* نجم يطـــالعنا ونجم آفـــــلُ**
والحزم كل الحزم ألا يغفلـــوا*أيروم تدبيـــر البريّة غافـــلُ؟**
ويقـــول قومٌ: سعده لا عقلــه*خير السعادة ما حماها العاقـلُ!**

و قد دخل هذان الرجلان في مراسلة بينهما بعد الهجرة هذا نصّها: **من مسيلمة رسول الله إلى محمّد رسول الله، أمّا بعد فإنّي قد أشركت معك في الأمر، و إنّ لنا نصف الأرض و لقريش نصفها، و لكنّ قريشا قوم يعتدون** [39] فأجابه محمّد: **من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب، أمّا بعد، فالسلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد، فإنّ الأرض لله يورّثها من يشاء والعاقبة للمتّقين** [40] نلاحظ في هذه المراسلة كيف يردّ مسيلمة الأمر بينه و بين محمّد بينما كيف يردّ محمّد الأمر إلى الله، و مسيلمة في هذه المراسلة يشير إلى اقتسام الأرض بين قومه بني حنيفة وبين قوم محمّد قريش، و هو ما سنتعرّض له كما سيأتي لاحقا.

إذن فإنّ النبيّ بدأ يدعو في مكّة بالحسنى، فهل كان فعلا يدعو بالحسنى و الموعظة الحسنة؟ إن تثبّتنا جيّدا في السيرة سنلاحظ أنّ النبيّ كان يمتلك أيضا شخصيّة حازمة لا تبدو لنا كما ينبغي أثناء دعوته في مكّة بسبب وجود أشخاص يعارضونه و هم في موقع قوّة، و سيحدث تغيير في مواقع القوى فيما بعد حين يهاجر إلى المدينة فيتصرّف بأكثر حرّية و يكون له مجال حركة أكبر، لكن لنلحظ بوادر هذه الشخصيّة منذ وجودها في مكّة: **حضرت قريشٌ يومًا بالحجر فذكروا النبي وما نال منهم وصبرهم عليه فبينما كذلك إذ طلع النبي ومشى حتى استلزم الركن ثم مرّ بهم طائفًا فغمزوه ببعض القول فعرفت ذلك في وجهه ثمّ مضى فلمّا مرّ بهم الثانية غمزوه مثلها ثم الثالثة فقال: أتسمعون يا معشر قريش والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح. فكأنما على رؤوسهم الطير واقعٌ حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد.**[41] نلاحظ أنّ هذه الجماعة من قريش أصابها الفزع من قول محمّد **''جئتكم بالذبح''** فصمتوا حتى كأنّ على رؤوسهم الطير و راحوا يرفؤونه بأحسن ما يجد أي يصفونه بالمآثر الحسنة و يسترضونه. وما كان يجرؤ على التهديد بالذبح شخص ضعيف و انطوائيّ. و لم يتوقّف الأمر عند التهديد بل وصل إلى الهجاء المسجوع فقام بهجاء الأخنس بن شريق و نعته بابن الزنا حيث يقول في القرآن، في سورة القلم: **ولا تطع كلّ حلاّف مهين، همّاز مشّاء بنميم، منّاع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم.**[آية 10-13] و عن هذه الآيات يقول ابن كثير في تفسيره : **والمراد به الأخنس بن شريق، وقال مجاهد عن ابن عباس: (الزنيم) الملحق النسب، وقال سعيد ابن المسيب: هو الملصق بالقوم ليس منهم، وسئل عكرمة عن الزنيم فقال: هو ولد الزنا (...) والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين الناس، وغالباً يكون دعياً وولد زنا**[42] و على كلّ حال نحن لا يهمّنا من المقصود

---

[39] السيرة النبويّة /ابن هشام/ص 866

[40] المصدر السابق

[41] ابن الأثير/الكامل في التاريخ/ج1/ص 598/تحقيق عبد الله القاضي/دار الكتب العلميّة/لبنان/1994 ، و راجع أيضا: المنتظم في التاريخ/ابن الجوزي/الجزء الثاني، سيرة ابن هشام/ الجزء الثاني، البداية و النهاية/ ابن كثير/ الجزء الثالث، الخ..

[42] تفسير ابن كثير/سورة القلم، و البخاري لا يحدّد الشخص و إنّما يقول نزلت في رجل من قريش في صحيحه /كتاب تفسير القرآن/سورة ن و القلم، 4633: **[عتل بعد ذلك زنيم] قال رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة.** و كما نرى فإنّ البخاري يحاول التخفيف من حدّة العبارة و جعلها تعني الشخص الذي له زنمة، و تبعه في ذلك ابن منظور في لسان العرب، لكن المعنى واضح ولفت

بهذه الآيات و إنّما نشير إلى أنّ محمّدا لا يتردّد في الردّ على خصومه و نعتهم بأولاد الزنا ولا نظنّ أنّ الله يرسل جبريل شخصيّا بالوحي لشتم شخص و تعييره بأنّ أمّه عاهرة، فهذه الأمور من صفات البشر، و محمّد لا يتردّد حتّى في هجاء عمّه بالآيات المعروفة في سورة المسد: **تبّت يدا أبي لهب و تبّ.**

و كذلك ردّه على الوليد بن المغيرة وهذا الرجل يُكنّى بالوحيد لشرفه في قومه و معرفته بالأشعار وبالبلاغة، وكان ممّن حرّم على نفسه السكر والخمر والأزلام في الجاهليّة وضرب ابنه هشام لأنّه شرب الخمر يوما [43] و حين سمع قرآن محمّد قال إن هذا إلاّ قول بشر، و يروي ابن هشام: **فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة : إنّه فكّر و قدّر فقتل كيف قدّر ثمّ قتل كيف قدّر ثمّ نظر ثمّ عبس و بسر ثمّ أدبر و استكبر فقال إن هذا إلاّ سحر يؤثر إن هذا إلاّ قول البشر**[44] هذه الآيات تشير بوضوح إلى غضب محمّد حتى أنّه يكرّر مرّتين جملة " **قتل كيف قدّر**" هل هو الشعور بالاستفزاز أم هي ثقة محمّد العالية بنفسه و ببلاغته والتي أراد الوليد الطعن في مصدرها السماويّ؟

إنّهما الاثنان وكم هو مستفزّ وقاس على المرء ألاّ تجد عبقريّته من يتجاوب معها و يهلّل لها خاصّة إذا كان واعيا بقدراته وعزائمه ويا لهؤلاء القوم الذين لم يدركوا بعد ماذا يمكن أن يفعله هذا الرجل اليتيم الذي بين ظهرانيهم حتى أنّه بكى حين شعر مرّة أو اعتقد بخذلان عمّه أبي طالب له وذلك حين جاءت قريش إلى عمّه للحديث في دعوة محمّد فقال له أبو طالب : **إنّ قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق، فظنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قد بدا لعمّه فيه بداء، أنّه خاذله ومسلمه وأنّه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ثم قام فلمّا ولّى ناداه أبو طالب فقال أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا**[45] و كيف لا يبكي و هو يقول لهم حين اجتمعت قريش أثناء وفاة أبي طالب: **كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم** [46]

انظروا إلى هذا الطموح ! إنّه يعي بقدراته و بالأوضاع السائدة و الظروف المواتية و يعدهم ليس بحكم العرب فقط بل و العجم أيضا و هذا كلّه و هو ما زال نبيّ مجموعة صغيرة لا تكاد تُذكر.

انتباهي حرف "الميم" في آخر الكلمة [الذي هو صيغة الجمع العبريّة]الذي قد يكون أُضيف لضرورة السجع كأثيم و نميم، فقال "زنيم" و أصلها "زنيّ" غير أنّ استعمال هذه الكلمة ليس فقط من ضرورات السجع بل لها جذور دينيّة و هي مذكورة بالحرف مرّتين في التوراة، في اللاويين [7،17] و في سفر العدد [39،15] و جاء في هذا السفر: **אחרי לבבכם ואחרי עיניכם אשר אתם זנים אחריהם**: و الترجمة: لا تمشوا وراء قلوبكم و عيونكم فتكونوا زناة [زنيم **זנים**] و هو المعنى نفسه الذي نجده في آية القلم فالأخنس بن شريق اتّبع هواه و لم يؤمن بالقرآن فكانت الآية: لا تطع كلّ حلاّف مهين، همّاز مشّاء بنميم، منّاع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم. فالآية تقول لا تطع.. [لأنّ فلانا زنيم] و الآية في التوراة: لا تمشوا وراء...[فتكونوا زنيم] والقرآن مليء بالألفاظ غير العربيّة و بالاقتباسات من العهد القديم و الجديد و التلمود الخ.. و قد كُتبتْ العديد من الدراسات في هذا الشأن.

[43] ابن حبيب البغدادي/المنمّق في أخبار قريش/تحقيق خورشيد أحمد فاروق/دائرة المعارف/1964/ص531

[44] السيرة النبويّة /ابن هشام/ص 204

[45] المصدر السابق/ص201

[46] المصدر السابق/ص299

و يرسل محمّد بعثة إلى الحبشة [ما نسمّيه في عصرنا اليوم : طلب اللجوء السياسي] و لنا أن تساءل عن أسباب اختياره لهذه البلاد بالذات؟ هل كان يجسّ النبض ليرى كيف يتقبّل غير العرب دعوته؟ ثمّ أصلا لماذا هاجروا إلى الحبشة؟ الجواب: إنّ بها ملكا لا يظلم عنده أحد. ولكي يتخلّص المسلمون من تعذيب قريش لهم. جواب جميل و لكن... نرى في هؤلاء المهاجرين أسماءً لا يمكن أن يتعرّضوا للتعذيب " إن وجد حقّا هذا التعذيب"، و معروفين إمّا بشجاعتهم أو بشرفهم في قومهم، فالزبير بن العوام مثلا كان رجلا شجاعا، طويلا و فارسا[47] [و بالمناسبة هو ابن أخ خديجة] و على كلّ حال فإنّ تجربة الحبشة هذه لم تأت بنتيجة أو كانت دون المأمول و قد ذهب بعض المستشرقين[48] إلى أنّ الغرض من هذه الهجرة كان سياسيّا ودينيّا في آن بسبب تغيّر موازين القوى في منطقة الشرق الأوسط في بدايات القرن السابع ميلادي وهزيمة الروم أمام الفرس و رغبة محمّد في عقد حلف مع النجاشيّ في إطار مشروع توسّعيّ، لكنّنا لن نتوقّف عند هذا الطرح لاعتماده على الفرضيّات أوّلا و لعدم وجود نتيجة ملموسة من هجرة "أو هجرات" الحبشة ثانيا.

طبعا لن يظلّ محمّد جالسا مكتوف الأيدي يقرأ قرآنه على الذاهب و الراجع و يتعرّض للسخريّة و الاستهزاء خاصّة بعد وفاة أبي طالب الذي كان يحميه، فقام بخطوة جريئة و هي طلب المعونة و الحماية من ثقيف في الطائف.

و أقول خطوة جريئة لأنّ حرب الفجّار بين قريش و حلفائها و بين قيس عيلان و حلفائها من ثقيف لم يكن قدّ مرّ عليها زمن طويل بل أنّ محمّدا نفسه شارك فيها ضدّ ثقيف حين كان له خمسة عشر عاما من العمر، إذن فحين عرض النبيّ عليهم أن ينصروه و يقوموا معه على من خالفه من قومه ردّوه و سخروا منه، فقال له أحدهم : **هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك! وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلّمك أبدا . لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلّمك . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم - فيما ذكر لي - : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني ، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغَ قومَه عنه ، فيُذْئِرهم ذلك عليه.**[49]

يذئرهم عليه أي يثيرهم عليه، وقد طلب النبيّ من ثقيف كتمان أمر مجيئه إليهم و طلب النصرة منهم، وكيف لا يطلب أن يكتموا الأمر و قد ذهب يطلب الحماية من الخصوم فبأيّ وجه سيقابل قومه؟ خاصّة بعد تعرّضه للصدّ من هؤلاء الخصوم و أصبح موقفه محرجا أمام قريش الذين قد يتّهمونه بالخيانة و التحالف مع العدوّ. لذلك طلب من سادة الطائف ألاّ يخبروا أحدا و لكنّهم طبعا نشروها بين الجميع و انتقل الخبر إلى مكّة بطبيعة الحال.

فلم يستطع النبيّ العودة و دخول مكّة حين علمت قريش بما فعل، فذهب إلى غار حراء وأرسل إلى الأخنس بن شريق يطلب منه أن يجيره و يحميه عند الدخول إلى مكّة [هذا الأخنس هو الذي هجاه محمّد في القرآن بالعتل والزنيم] ولنستمع لابن هشام : **لمّا انصرف عن أهل الطائف**

---

[47] الإمام الذهبي/سير أعلام النبلاء/تحقيق بإشراف شعيب الأرناءوط/ج1/ ص41/مؤسّسة الرسالة/1985

[48] Mahomet contre enquête/René Marchand /op.cit, p232-233

[49] السيرة النبويّة /ابن هشام/ص 301

ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، من تصديقه ونصرته، صار إلى حراء، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال : أنا حليف، والحليف لا يجير . فبعث إلى سهيل بن عمرو ، فقال : إنّ بني عامر لا تجير على بني كعب. فبعث إلى المطعم بن عدي فأجابه إلى ذلك، ثم تسلّح المطعم بن عديّ وأهل بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ادخل [إلى مكّة]، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله[50] نلاحظ أنّ المكان الذي ذهب إليه النبيّ، حينما لم يستطع دخول مكّة، هو غار حراء [هل هو البحث عن حماية غيبيّة في المكان الذي حدثت له فيه تلك التجربة العنيفة في أحد الليالي منذ سنوات؟] و بعد رفض الأخنس حمايته و كذلك سهيل بن عمرو فإنّ المطعم بن عديّ قبل بذلك وحماه أثناء دخوله إلى مكّة.

و سهيل بن عمرو الذي طلب النبيّ حمايته هو نفسه الذي سيكتب الهدنة فيما بعد بين المسلمين و قريش أثناء صلح الحديبيّة وكان شريفا وخطيبا وهو من قريش الظواهر التي فيها منازل بني لؤي.

و السؤال هنا: لماذا لم يطلب محمّد حماية أحد أقاربه؟ أين حمزة مثلا؟ أم أنّه لا يجرؤ طلب هذا منهم بعد الذي فعله؟

و مطعم بن عديّ الذي أجار محمّد [جدّه نوفل هو أخو هاشم جدّ محمّد] كان أيضا من الرجال الخمسة الذين نقضوا صحيفة الحصار التي سنتناولها في فيما بعد، و قد مات هذا الرجل دون أن يسلم بينما أسلم ابنه جبير بعد الفتح. وقد ذهب جبير هذا إلى محمّد يطلب إطلاق سراح بعض الأسرى بعد معركة بدر ولكنّ محمّدا رفض.

أرجو ألاّ يشعر القارئ الكريم بالملل بسبب إفراطي أحيانا في الحديث عن نسب شخصيّة ما وكيفيّة تفاعلها مع شخصيّة البطل الرئيسيّة [محمّد]، و لكنّي أتعمّد ذلك لتتوضّح لنا الرؤية أكثر ونرى كيفيّة بناء الأشخاص ونفسيّاتهم في هذه السيرة المحمّديّة و التي هي في الأخير عمل أدبيّ له أهدافه و أسبابه الدينيّة و يخضع ككلّ عمل أدبيّ إلى ترابط دراميّ بين الشخصيّات التي تدور حول البطل.

أشير إلى أنّ هناك نفرا من الجنّ آمنت بمحمّد بعد خروجه من الطائف[51] و لا تخفى علينا طبعا الحالة النفسيّة التي سيكون عليها النبيّ بعد أن طلعت حساباته خاطئة مع بني ثقيف، وأرجّح أنّه كان صادقا في اعتقاده بأنّ الجنّ آمنت به، فهي حالة دفاع في اللاوعي أو تصعيد حسب تعريف ''فرويد'' و كأنّه يقول إن كانت البشر لا تؤمن بما أقول فها هي الجنّ آمنت بي و هي تعرف الغيب أكثر منكم.

قامت قريش بمقاطعة بني هاشم و انشقّ أبو لهب عنهم و تضامن مع قريش [هذه المقاطعة التي قامت بها قريش هي ما تسمّى اليوم بالمقاطعة الاقتصادية أو الحصار الاقتصادي] و نلاحظ دائما عدم الذهاب إلى الخيارات الحربيّة من طرف قريش أو القيام ببعض الاغتيالات السياسيّة كاغتيال محمّد مثلا أو من تبعه من طرف مجهول خاصّة أنّه يتجوّل وحيدا بلا حماية شخصيّة في مكّة، وهناك طرق كثيرة للتخلّص من حقّ الثأر و تفريق دمه، و لكن رغم ذلك فأقصى ما

---

[50] ابن هشام/السيرة النبويّة/ص 276

[51] المصدر السابق/ص302

كان من المضايقات هو شتم أبي جهل له و التحرّش به جسديّا دون الوصول إلى القتل، وحتّى تدخّل حمزة و اعتدائه على أبي جهل كاد أن يؤدّي إلى حرب قبليّة : **مرّ أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا، فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم،** [كان هناك امرأة حاضرة تشاهد ما يحدث] **ثم انصرف أبو جهل عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم .**[52]
الغريب أنّ محمّدا لم يردّ على أبي جهل و هذا الأمر يظلّ نقطة استفهام , و عاد محمّد دون أن يقول شيئا رغم أنّ ابن هشام يروي رواية عن رجل سلبه أبو جهل فاشتكى هذا الرجل لمحمّد فأخذ له حقّه من أبي جهل، و على كلّ حال فالتضارب في السيرة ليس جديدا و علينا محاولة ربط الأحداث و تفهّم المنطلقات الدينيّة لهؤلاء وكان بعد هذه الحادثة بين محمّد و أبي جهل أنّ حمزة عاد من الصيد فأخبرته هذه المرأة بما حدث: **قالت له يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمّد آنفا من أبي الحكم بن هشام وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلّمه محمّد، فاحتمل حمزة الغضب (...) فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معدّا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها، فشجّه شجّة منكرة، ثم قال أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فردّ ذلك عليّ إن استطعت . فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا**[53]
نلاحظ أنّ رجالا من بني مخزوم قاموا لمساندة أبي جهل و لكنّه طلب منهم عدم التدخّل.
قلت إذن إنّ قريشا قاطعت بني هاشم ثمّ تمّ نقض هذه الصحيفة من طرف خمسة رجال، منهم رجل من بني مخزوم قريب لأبي جهل و هو زهير بن أبي أميّة.
و بدأ محمّد في الاتّصال بالقبائل الأخرى فعرض نفسه على كندة فرفضوا: **أتى كندة في منازلهم وفيهم سيّد لهم يقال له : مُليح ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فأبوا عليه** [54] وبني كلب فرفضوا : **أتى كلبا في منازلهم ، إلى بطن منهم يقال لهم : بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم : يا بني عبد الله ، إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم** [55] وبني حنيفة فشتموه: **أتى بني حنيفة في منازلهم ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليهم ردّا منهم** [56] و بني عامر فعرفوا قدراته و اقترحوا أن يكون لهم الحكم بعده فرفض فرفضوا: **أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم - يقال له : بَيْحرة بن فراس : والله ، لو أنّي أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلتُ به العرب، ثم قال : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثمّ أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من**

[52] المصدر السابق/ص219
[53] المصدر السابق
[54] المصدر السابق/ص304
[55] المصدر السابق
[56] المصدر السابق

بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، فقال له : أفتُهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ! لا حاجة لنا بأمرك ؛ فأبوا عليه.[57]
إلى أن التقى بوفد من أهل المدينة وهنا سيأخذ محمّد انطلاقة جديدة ودعما جديدا ومجال حرّيّة أكبر و بداية من الآن سيُكثر كتبة السيرة من ''الماكياج'' و الأصباغ، أقول من الآن لأنّ كلّ الأضواء [أضواء السيرة] بدأت تشتدّ ناحية شخصيّة البطل [محمّد] لتزداد إشعاعا عليه بعد الهجرة و حتّى وفاته، فالفترة المكّيّة كانت قليلة المعلومات وضبابيّة قليلا فلم يلزم الأمر الكثير من بعض التحسينات والتزيينات هنا وهناك وكذلك بطبيعة الحال اختلاق بعض الروايات الجميلة و المعبّرة. أمّا الفترة المدنيّة فقد كانت أكثر وضوحا بما أنّ البطل صار مشهورا، و إذ بدأ الإخباريون يكتبون السيرة بعد قرن و نصف من الأحداث فقد وجدوا أنّه لا يمكن بل من المستحيل نفي العديد من الروايات لانتشارها ومعرفة الناس بها، وإنّما أحسن شيء تأويلها وتزيينها وعلى أقصى تقدير اختلاق روايات معارضة لها [بالسند طبعا] و تقديم صورة جميلة عن شخصيّة البطل.
إذن يلتقي محمّد بوفد[ستّة أشخاص] من يثرب جاؤوا إلى مكَة في موسم الحجّ و هم كلّهم من الخزرج، فآمنوا به و صدّقوه و عادوا إلى يثرب مسلمين. وفي الموسم الذي يليه يلتقي باثني عشر شخصا جاؤوا من المدينة فبايعوه و آمنوا به وحين عادوا إلى يثرب أرسل معهم أحد الرجال [مصعب بن عمير] يعلّمهم الدين فكان إمامهم هناك لفترة. سُمّيت هذه البيعة، بيعة النساء [سُمّيتْ كذلك لأنّها بيعة سلميّة] وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وفي الموسم الذي يليه جاء بضعة و سبعون رجلا وبايعوه وسمّيت هذه البيعة، بيعة الحرب، حيث تعاهدوا على الحرب ثمّ عادوا إلى المدينة و آمن أغلب من كان فيها حتى أنّ محمّدا حين جاءها مهاجرا استقبلوه استقبال الأبطال و كلّ عائلة تريده أن ينزل عندها.
هذه الحكاية مشهورة جدّا ومعروفة. ولكنّها تشكو من ضعف كبير وهو: إسقاط صورة البطل الأسطوريّة المتأخّرة [أي أثناء كتابة السيرة] على واقعه المعاصر له. وعلينا أن نفهم الأوضاع أوّلا لتتوضّح لنا الرؤية أكثر.

[57] المصدر السابق

يثرب

مدينة يثرب مدينة كبيرة يتراوح عدد سكّانها بين عشرة آلاف وثلاثين ألف ساكن تقريبا، وتتميّز بالموقع الملائم لوقوعها قرب الطريق التجاريّة الكبرى و أرضها ذات التربة الجيّدة و المياه والآبار و الجداول المنتشرة بها.
يقوم اقتصادها على الزراعة و هي أوّل منتج للتمور وتبيع لكلّ البلدان بما فيها مكّة، و كذلك الخضروات و القمح، و في المرتبة الثانية نجد التجارة و المهن الحرّة اليدويّة و صناعة السلاح.
و بعد الحروب المتتالية بين الأوس والخزرج وتحالف اليهود حينا مع هذا و حينا مع ذاك فإنّ الحصيلة و بإيجاز:
-اليهود يمثّلون قوّة اقتصاديّة هائلة و لهم ثقلهم ووزنهم في المدينة.
-الأوس والخزرج يمثّلون قوّة سياسيّة و حربيّة.
إذن فإنّ النبيّ دخل في مفاوضات لثلاثة مواسم متتالية مع أهل المدينة وبايعوه وأسلموا ولم يبق إلاّ أن يهاجر إليهم ليستقبلوه بالورود، و لكنّنا نسينا نقطة مهمّة في هذه القصّة، و هي أنّ رواة السيرة تجاهلوا دور اليهود تماما رغم وزنهم الاقتصاديّ في يثرب و رغم مكانتهم الاجتماعيّة فيها، فماذا كان دور اليهود في هذه المفاوضات بين محمّد و الوفود القادمة من يثرب؟ [58]
احتمال1: اليهود لم تكن تعرف شيئا و تمّت البيعة و جاء محمّد إلى المدينة و وجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع [غير ممكن، و ما كان ليخفى هذا الأمر عليهم]
احتمال2: اليهود كانت تعرف ولكنّها تجاهلت الأمر ولم تعطه اهتماما [غير ممكن فالقادم سيأتي كحاكم و مشرّع و من الطبيعي أن يعرفوا من يكون خاصّة أنّه تمّت مبايعته على الحرب]
احتمال3: اليهود لم توافق و تمّ إجبارها على القبول بمجيء النبيّ، أو تمّ تجاهل رأيها المعارض [غير ممكن، وإلاّ ما ضيّع كتبة السيرة هذه الفرصة التي تضع اليهود في موقف العدوّ منذ البداية، كبداية تبرير منهجيّ لإجلائهم فيما بعد و قتلهم]
احتمال4: اليهود كانت تعلم ووافقت على مجيء محمّد، هذا هو الاحتمال الأقرب إلى المنطق، ولكن لماذا وافقت؟ هل رأت أنّ نبيّا يذكر موسى في العديد من آيات قرآنه ويصلّي مثلهم نحو بيت المقدس و يدعو إلى عبادة إله واحد من المفيد أن يكون موجودا لإعطائهم أيضا ثقلا دينيّا توحيديّا ؟ لكن اليهود لم يحاولوا أبدا نشر ديانتهم و يعتبرونها حكرا عليهم فقط بوصفهم الشعب المختار. لا ندري فعلا السبب في موافقتهم على مجيء محمّد بل وربّما دعمه وإنّما الواضح أنّه كان لهم دور في هذا و عدم ذكرهم في السيرة يبدو متعمّدا لأنّه يجب أن يكونوا أشرارا دائما، حسب التوجّه الإيديولوجي في السيرة، و نؤيّد هذا الرأي [أي دعم اليهود النبيّ] بنصوص أجنبيّة معاصرة لكتابة السيرة وقبلها وبعدها.
من هذه النصوص الأجنبيّة كتب تيوفانوس باليونانيّة [حوالي سنة 180 هجري] : **عندما ظهر محمد في البداية، ضلّ اليهودُ وظنّوا أنه المسيح الذي ينتظرونه. فجاء إليه بعض قادتهم ودخلوا في دينه وتخلّوا عن دين موسى الذي كان يتقي الله. هؤلاء الذي فعلوا هذا كانوا**

[58] Mahomet contre enquête/René Marchand/op.cit

عشرة رجال أقاموا مع محمد حتى مماته. ولكن لما رأوه يأكل لحم الإبل عرفوا أنه ليس الرجل الذي كان يعتقدون.[59] نلاحظ في هذا النصّ أنّ بعض قادة اليهود قاموا باتبّاع محمّد [عشرة قادة كما يشير تيوفانس] وهو ما يشير إلى أنّهم كانوا من ضمن الذين وافقوا على مجيء النبيّ إلى يثرب، وطبعا فالقادة هم الذين يتكلّمون بأسماء قبائلهم، وهم الذين يفاوضون، فإن وافق عشرة قادة على هجرة النبيّ فلنا أن نتخيّل الذين يأتمرون بأمرهم.

و نقتبس أيضا من تاريخ ميشال السوري [حوالي القرن السادس هجري] حيث يقول: **محمّد خرج من مدينة يثرب، حيث كان يذهب إلى مصر للتجارة، ويذهب إلى فلسطين، وهناك، قابل اليهود و تدارس معهم التوراة و الله الحيّ، ثمّ زوّجوه بإحدى بناتهم، و حين عاد إلى مدينته بدأ دعوته، هناك من آمن به و هناك من نعته بالجنون، حينها خرج إلى الصحراء مع المؤمنين معه و اتّبعه العديد من اليهود، فاستقبلوه عندهم، وبفضل عونه قاموا بطرد الفرس** [60] نلاحظ في هذا النصّ أنّ النبيّ تزوّج من إحدى النساء من اليهود، و هذا ربّما من المسكوت عنه في السيرة وربّما ننتظر اكتشاف نصوص أخرى توضّح لنا هذه النقطة، كما أنّ النصّ يشير إلى تعلّم النبيّ الدين في الشام وهذا الأمر تذكره أيضا مصادر أخرى حيث يقول تيوفيل الرهوي [حوالي 150 هجري] : **حينما بلغ محمّد سنّ الشباب، بدأ انطلاقا من مدينته يثرب، الذهاب إلى فلسطين ليتاجر، فيشتري و يبيع. و إذ تعوّد على هذه المنطقة فقد أعجبته الديانة التوحيديّة، ديانة الإله الواحد، فعاد إلى قبيلته واقترح عليهم هذه الديانة واستطاع إقناع جماعة صغيرة منهم ليؤمنوا به. وأخذ يحدّثهم عن حسن أرض فلسطين و يقول لهم: انظروا أنّه بفضل إيمانهم [أي أهل فلسطين] بالإله الواحد، فقد أعطاهم أرضا مباركة. و يضيف قائلا: إذا آمنتم بي فإنّ الله سيعطيكم أنتم أيضا أرضا توجد فيها أنهار من لبن و عسل. و لكي يؤيّد كلامه، فقد جمع [محمّد] الأشخاص الذين آمنوا به، و بدؤوا يصعدون نحو أرض فلسطين فيهاجمون، ويغزون، ويسلبون. ثمّ يعودون محمّلين بالغنائم دون أن تحدث لهم خسائر، ولم يغضب أتباعه بما وعدهم به [محمّد] و منذ ذلك اليوم، و تحت شهوة حبّ التملّك، صارت تلك عادتهم.** [61]

و على كلّ حال لن نتناول بالبحث في هذا الكتاب المكان الذي انطلق منه محمّد لنشر دعوته، إن كان مكّة أو الشام، حيث سنتناوله في كتاب قادم يكون منهجه عكس المنهج المتّبع في هذا البحث و إنّما نشير على عجل إلى أنّ هاشم جدّ محمّد كانت له أملاك بغزّة [62] و أنّ قصيّ جدّه كان يعيش في الشام [63] و ليس من المستبعد كما أشارت النصوص الأجنبيّة أعلاه أن تكون هجرة

---

[59] Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae/Theophanis Chronographia/V1-41/1839/A6119

[60] Chronique Michel le Grand/tr Victor Langlois /Italie/1868/ch27

[61] A.L.Preamare /les fondations de l'islam/Seuil/2002/P403-404

[62] **جاء أسقف غزة إلى النبي بتبوك فقال يا رسول الله هلك عندي هاشم وعبد شمس وهما تاجران وهذه أموالهما فدعا النبي عباسا فقال قسّم مال هاشم على كبراء بني هاشم ودعا أبا سفيان بن حرب فقال اقسم مال عبد شمس على كبراء ولد عبد شمس** [ابن سعد/الطبقات/ج4/باب العباس بن عبد المطلب] و قد قام النبيّ بإعطاء أرضين له بالشام إلى تميم الداري: **من بني الدار: تميمُ بن أوس، ونُعَيم بن أوس، وفَدا إلى النبي، وأقطعهُما قطيعتين بالشّام: حِبْرى، وبيت عَيْنون. وليس للنبي قطيعةٌ غيرهما بالشام.**[ابن دريد/الاشتقاق/ج1/ص119] ونصّ العقد الذي كتبه محمّد لتميم الداري تجده في: [نسب معد واليمن الكبير/ابن الكلبي/ص43] و[القلقشندى/صبح الأعشى/ص 2220] و[الإصابة في معرفة الصحابة/العسقلاني/ص 395] و [ياقوت الحموي/معجم البلدان/حبرون] مع بعض الاختلافات

[63] ابن سعد/الطبقات الكبرى/ج1/ ص 48-49/تحقيق د.علي محمّد عمر/مكتبة الخانجي/مصر/2001

النبيّ إلى يثرب من الشام و ليس من مكّة، بل و نجد صدى لهذه المعلومة في شعر حسّان بن ثابت حيث يقول:

نصرنا وآوينا النبيّ محمّدا على أنف راض من معدّ وراغم

بحي حريـــد أصله وذماره بجابية الجولان وسط الأعـــاجم

نصرناه لمّا حلّ وسط رحالنا بأسيافنا من كل باغ وظـــــالم

يقول حسّان أنّ أصل النبيّ و أهله من جابية الجولان بين الأعاجم.
إذن، و عودة إلى الموضوع، فإنّ اليهود كان لهم دور في الموافقة على هجرة النبيّ إليهم، و لنا أن نتساءل أيضا: لماذا بايع العرب من أهل يثرب محمّدا و وافقوا على مجيئه إليهم؟
أوّلا إنّ الروايات التي تقول بإيمان كلّ أو أغلب يثرب، و أنّهم استقبلوا النبيّ بالأناشيد حين هاجر إليهم، هي طبعا غير صحيحة - منطقيّا- و إلاّ لما خرج معه في بدر ثلاثمائة شخص تقريبا من مدينة تُعدّ بالآلاف، هذا دون حساب عدد المهاجرين و من آمن من القبائل الأخرى لينخفض عدد الأنصار كثيرا في غزوة بدر فللذين اتّبعوا محمّدا في البداية كانوا قلّة و لكن لماذا؟ [64]

احتمال1: كانوا مشركين و وجدوا الحقّ أخيرا فدخل قلوبهم، هذا احتمال ضعيف، و إلاّ لماذا لم يتهوّدوا أو يتمسَحوا أو يصبحوا مانويّين بما أنّ ماني [مؤسّس الديانة المانويّة] كان مصدّقا للتوراة و الإنجيل و اعتبر نفسه خاتما للرسل، فمنطقيّا و إن كانوا يبحثون عن هذا 'الحقّ' فستردنا بعض الروايات عمّن تهوّدوا و عمّن صاروا مسيحيين و عمّن صاروا مانويّين و عمّن اتّبعوا الصابئة، ثمّ حين وجدوا الإسلام اتّبعوه و رأوه حقًّا، كقصّة سلمان الفارسي مثلا، و لكن لم تصلنا إلاّ بعض الروايات عن بعض الأحناف والمانويّين في مكّة، وعن المتهوّدين في جذام والمتنصّرين في كندة و الشمال، أمّا يثرب و التي منطقيّا أن تكون أقرب إلى التوحيد بوصفها تحتوي على قبائل يهوديّة عديدة فقد كانت تعبد الأوثان، فما الذي تغيّر في أهلها ليدخلوا في الإسلام جموعا جموعا، و هم لم يبحثوا من قبله عن دين؟ إلاّ أن نقول بأنّ الله هداهم، و رغم قيمة هذا القول فإنّنا لا نعتمده هنا لأنّ منهجنا في هذا البحث هو القراءة الماديّة التاريخيّة الجدليّة.
احتمال2: كانوا يعتبرون الديانة التوحيديّة أحسن من الشرك و كانوا يشعرون بعقدة نقص تجاه اليهود، هذا أيضا ما نفهمه من سياق الكلام في السيرة و لكنّه احتمال ضعيف فلم تكن الديانة تمثّل لهم هاجسا يصلون به إلى الشرف بل كانت الفروسيّة والشعر والحماسة، كما أنّ الديانة التوحيديّة ليست متفوّقة على دياناتهم - في مفهومهم- و إلاّ لكانوا اتّبعوا ديانة توحيديّة قبل الإسلام.
احتمال3: كان رجلا عظيما فآمنوا به، أيضا احتمال ضعيف. فمحمّد كان بمثابة المطرود من قومه و يتعرّض إلى القبائل في مواسم الحجّ في مكّة لينصروه و يحموه، و رفضته كلّ القبائل، كما أنّ قومه لا تفتأ تسخر منه بل و تهزأ به، كقول القرآن حين كانوا يهزؤون من محمّد: **أهذا**

[64] الذي طرح الفكرة هو René Marchand في Mahomet، مرجع سابق.

الذي بعث الله رسولا؟ [سورة الفرقان، 41] ومحمّد لم يكن معروفا بالفروسيّة والشجاعة أو بمآثر الشرف كجدّه هاشم أو قصيّ مثلا، و لا ينتمي حتّى إلى الملإ في دار الندوة، و التي تجمع حكماء و أشراف قريش، بل مجرّد شخص يقول كلاما جميلا و بليغا، و البلاغة لا تنقص أهل قريش والعرب، ولم تكن بلاغته دليلا على نبوّته حيث قالوا، **إن هذا إلاّ قول البشر** [سورة المدّثر-25]، و قالوا: **لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين** [الأنفال-31] و قالوا: **إن هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون** [الفرقان، 4] الخ.. و يدّعي أنّه جاءه من السماء كما ادّعى من قبله مسيلمة، و لا ننسى دائما أنّنا نتحدّث عن النبيّ في بداياته وفي عصره، و لا ينبغي أن نقوم بإسقاط الصورة التي نعرفها عنه اليوم في بداياته، و سنتعرّض للإعجاز والتحدّي بإتيان سورة من القرآن لاحقا.

احتمال4: بايعه فقط قلّة قليلة من أجل الحرب و الغزو تحت غطاء الدين [أغلبها من الخزرج]
هذا هو الاحتمال الأقرب إلى المنطق، وهذه القلّة هي التي آوته في المدينة ولم تكن ذات سلطة سياسيّة لتفرضه بالقوّة كما أنّه من غير المعقول بل من المستحيل أن يذهب الأوس و الخزرج واليهود للبحث عن رجل ليس منهم يحكمهم، هل لقلّة الرجال عندهم؟ أم لأنّ أنفسهم هانت عليهم فصاروا يريدون تحكيم الغرباء؟ كأنّنا نسينا العصبيّة العربيّة والاعتداد بالذات و النفس والفخر وجعلنا أهل يثرب يرضون بتحكيم قرشيّ عليهم كما أنّ هذا القرشيّ محلّ استهزاء من قومه أصلا، و حتّى لو سلّمنا بأنّهم كانوا في حروب متواصلة فلا أعتقد أن يصل بهم الأمر إلى الرضوخ تحت سلطة قرشيّ أجنبيّ، بل أنّ حروبهم المتواصلة هذه هي من أجل فرض السلطة و اعتدادهم بأنفسهم. ونرجّح أنّ النبيّ حين هاجر لم يدخل يثرب بل نزل في مكان خارجها، ونرجّح أنّه قباء، حيث تشير السيرة إلى أنّه بنى مسجدا هناك حال وصوله، ثمّ و مع الوقت، بدأ أتباعه يتزايدون – كما سنرى- إلى أن استطاع أن يفرض سلطته على كامل المدينة و يبني مسجده النبويّ و يقيم فيه.

و ما يؤيّد هذا الاحتمال [أي أنّ الذين آمنوا به هم قلّة قليلة] هو حالة الفقر الشديد التي كانت عليه هذه المجموعة، محمّد ومن تبعه، في المدينة في البداية ولنستمع للحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء يروي كلام سعد بن مالك: **كنّا قبل الهجرة يصيبنا ظلف العيش وشدته فلا نصبر عليه فما هو إلا أن هاجرنا فأصابنا الجوع والشدة فاستضلعنا بهما وقوينا عليهما فأمّا مصعب بن عمير فإنّه كان أترف غلام بمكة بين أبويه فيما بيننا فلمّا أصابه ما أصابنا لم يقو على ذلك فلقد رأيته وإن جلده ليتطاير عنه تطاير جلد الحيّة ولقد رأيته ينقطع به فما يستطيع أن يمشي فنعرض له القسي ثم نحمله على عواتقنا** [65] فالرجل هنا يكاد يموت من الجوع، وثروة أبي بكر ذهبت و لم يبق منها إلاّ القليل، ولو كان محمّد حاكم المدينة منذ وصوله لما وصل متّبعوه إلى هذه الحالة، فكان لابدّ من التحرّك وإيجاد حلّ وإلاّ فإنّ هذه الدعوة لن تدوم، يجب إيجاد المال.

إذن ما الحلّ؟ الحلّ الذي اختاره محمّد هو الغزو [تحت غطاء إلهيّ، أي أنّ الله أحلّ له ذلك] فخرج في أوّل غزوة له إلى قبيلة بني ضمرة فلم يفعل شيئا وعاد بخفّي حنين إلى المدينة، ثمّ

[65] الإمام الذهبي/سير أعلام النبلاء/ ج1 / ص 148

أرسل عبيدة بن الحارث مع ثمانين شخصا [راجعتُ هؤلاء الأشخاص في سيرة ابن هشام، لاحظوا: لا يوجد فيهم أحد من الأنصار] إلى قافلة كبيرة من قريش فضُرب سعد بن أبي وقّاص بسهم و عادت هذه البعثة دون أن تفعل شيئا لعدم تكافئ القوى، ثمّ أرسل حمزة مع ثلاثين رجلا [أيضا راجعت الأسماء، لا يوجد فيهم أحد من الأنصار] إلى قافلة قرب البحر يقودها أبو جهل مع ثلاثمائة رجل و طبعا عادوا دون فعل أيّ شيء فالقوى غير متكافئة، كلّ هذا و الأمور تسوء في المدينة و الفقر يزداد فخرج محمّد بنفسه في غزوة أخرى ليغير على قافلة قرب مكان اسمه بواط، و لم يفعل شيئا وعاد إلى المدينة وكذلك خرج إلى غزوة العشيرة وإلى أرض الخرّار وإلى بئر صفوان و كلّها كانت بلا فائدة.
سبع غزوات أو محاولة غزوات كانت كلّها بلا فائدة، و أتباع محمّد يتضوّرون من الجوع والأمور من سيّء إلى أسوء فقام النبيّ بعمليّة اهتزّت لها المدينة و مكّة.
إنّها الحاجة و الفاقة، و الضرورات تبيح المحظورات كما يقال، فلا أخلاق أو أعراف أو تقاليد، فماذا فعل؟ ما أن عاد النبيّ من المحاولة الفاشلة لغزوة صفوان الأخيرة حتى أعطى عبد الله بن جحش كتابا مغلقا [أي رسالة مغلقة] و طلب منه ألاّ يقرأه إلاّ بعد مسيرة يومين [66] و أرسل معه ثمانية أشخاص [كالعادة : لا يوجد فيهم أحد من الأنصار] و كان في هذه الرسالة السرّيّة أن يرصد قافلة لقريش ستعبر قرب نخلة بين مكّة و الطائف و يغير عليها، و في الطريق فتح عبد الله بن جحش هذه الرسالة وحين قرأها عليهم تخلّف اثنان من هذه المجموعة [67] على أساس أنّهما فقدا بعيرا لهما ولكن ربّما استعظما هذا الأمر فتعلّلا بحكاية البعير المفقود، قد يقول قائل: ولماذا يستعظمان الإغارة على القافلة، ألم يخرج النبيّ بنفسه ليغير على القوافل من قبل؟
استعظماه لأنّه الشهر الحرام، فالقوافل تمرّ آمنة في هذا الشهر، فلا تكون غزوات أو حروب، ويُعتبر من ينتهكه فاجرا، مثل حرب الفجّار التي حدثت من قبل، فقد سُمّيت بذلك لأنّهم تقاتلوا في الشهر الحرام. إذن بعد تخلّف الشخصين الآخرين قال عبد الله بن جحش : **قد نهاني - أي محمّد - أن أستكره منكم أحدا فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، و من كره ذلك فليرجع** [68] طبعا فالأمر دقيق، فمن ناحية يُطلب منهم الإغارة في الشهر الحرام ومن ناحية أخرى يلزمهم أن يحصلوا على المال بسبب الفقر، و في الأخير حزموا أمرهم وانطلقوا.
فحلق عكاشة بن محصن رأسه، ليبدو كأنّه ذاهب إلى الحجّ أو العمرة، فلا يشكّ أهل القافلة في أمره [69] ثمّ أشرف على القافلة [كانت متكوّنة من أربعة أشخاص، أي قافلة صغيرة تحمل بعض الزبيب و الجلد و بعض الأشياء الأخرى] وحين رأوه اطمأنّوا إليه و إلى من معه واعتبروهم ذاهبين في عمرة إلى مكّة، وحين أمنتهم القافلة انقضّوا عليها [القوى غير متكافئة + الغدر والهجوم الخاطف] فقتلوا شخصا و أسروا شخصين و فرّ منهم الرابع. [70]

و كانت الفضيحة.

---

[66] ابن هشام/السيرة النبويّة/ص 412، و ذكره البخاري في صحيحه/باب العلم/ما يذكر في المناولة، في سياق آخر.
[67] ابن هشام/السيرة النبويّة/ص 413، الحافظ الذهبي/تاريخ الإسلام/ج2/ ص49، الكامل في التاريخ/ج2/ص12 الخ...
[68] ابن هشام/السيرة النبويّة/ص 413 ، السهيلي/الروض الأنف/ج5 / ص 43 الخ...
[69] المصدر السابق
[70] المصدر السابق، ابن سيّد الناس/عيون الأثر/ج 1/ ص 302 الخ...

اهتزّت قريش من ناحية حين بلغها الشخص الهارب وقالت: **قد استحلّ محمّد و أصحابه الشهر الحرام، و سفكوا فيه الدم، و أخذوا فيه الأموال، و أسروا فيه الرجال** [71] واهتزّت المدينة فما كان من محمّد إلاّ أن أنكر وقال: **ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام** [72] وعلّق العير و الأسيرين و لم يقسمهما، وإذ كثر اللغط من حوله حزم أمره فعلى كلّ حال يلزمهم تقاسم تلك الغنيمة التي ظلّت معلّقة منذ جاؤوا بها، فجاء هنا دور القرآن ليحلّل تلك العمليّة فتقاسموا الغنيمة وأخذ محمّد منها الخُمس: **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟ قل قتال فيه كبير** [البقرة/217]

وقبل أن نواصل مع غزوات النبيّ فإنّنا نعود إلى مكّة لنطرح حادثتين أو معجزتين وهما الإسراء و المعراج ومعجزة انشقاق القمر.

[71] المصدر السابق
[72] المصدر السابق

المعجزات

الإسراء و المعراج

حادثة الإسراء والمعراج هي حادثة معروفة و تكاد تبلغ [وربّما بلغت] حدّ التواتر، فهي مذكورة في كلّ كتب الحديث و التفسير بطرق مختلفة عن الصحابة و التابعين، و رغم شهرتها ففيها اختلاف، فهل كان بالروح أم بالجسد؟ يقظة أم مناما؟ مرّة أم مرّات؟ قبل الوحي أم بعده فالروايات مختلفة و الاستدلالات متعدّدة.

وبعد أن روى النبيّ هذه الرواية [أو بعضها] لقريش، ارتدّ كثير ممّن أسلم و أخذ البعض يضع يده على رأسه متعجّبا وبين مصفق وبين مصفر تكذيباً له واستبعاداً لخبره.[73] و تشير السيرة إلى أنّ قريشا لم تصدّق قصّة الإسراء [من مكّة إلى بيت المقدس] فقال بعضهم: **هذا و الله الإمر البيّن** [الإمر هو الشيء المنكر] **و الله إنّ العير لتطرد شهرا من مكّة إلى الشام مدبرة، و شهرا مقبلة، أفيذهب ذلك محمّد في ليلة واحدة، و يرجع إلى مكّة** [74] نلاحظ أنّ قريشا لم تتعرّض إلى حادثة المعراج، وربّما لأنّها رؤيا أو حلم و بالتالي كلّ خيال فيها جائز، وتعرّضت فقط إلى إسراء النبيّ بجسده إلى بيت المقدس. ونحن هنا نرجّح أن قصّة المعراج متأخّرة وتمّ تأليف فصولها بعد وفاة النبيّ، وقد يكون النبيّ رأى بعضا منها على أوقات متفرّقة في شكل رؤى في المنام، وقام من بعده بجعلها قصّة مسترسلة متناسقة مترابطة وحاولوا ربطها مع قصّة الإسراء.

و في الحالتين [أي إن كان النبيّ رواها أو كان ألّفها من بعده] فقصّة المعراج مسروقة من التراث اليهوديّ، حيث يذكر المدراش [المدراش هي كتب التفاسير اليهوديّة] قصّة معراج موسى إلى السماء ونكاد نجد نقلا حرفيّا لبعض المواضع في هذه القصّة، كما أنّ المدراش مكتوب قبل الإسلام، وفيه أنّ موسى صعد إلى السماوات السبع وزار الجنّة و النار، ورأى عذاب أهل النار فرأى أناسا معلّقين من أشفار أعينهم و آخرين معلّقين من آذانهم و آخرين من ألسنتهم و كانوا يبكون بمرارة و حرقة، والنساء كانت معلّقات من شعورهنّ أو نهودهنّ وحولهنّ سلسلة من نار، و يفسّر الملاك المرافق لموسى قائلا: **هؤلاء معلّقون من أعينهم لأنّهم نظروا برغبة إلى زوجات جيرانهم وبحسد إلى أموال غيرهم، أمّا المعلّقون من آذانهم فلأنّهم كانوا يستمعون إلى اللهو ولم يستمعوا إلى التوراة، والمعلّقون من ألسنتهم فلأنّهم كانوا يحبّون اللغو، والمعلّقون من سيقانهم لأنّهم لم يذهبوا إلى المسجد، و النسوة المعلّقات من شعورهنّ ونهودهنّ لأنّهنّ لم يستترن أمام رجل غريب** الخ... ثمّ يذهب موسى إلى الجنّة ويرى فيها ما لم تره عين، و لم تسمع به أذن، وعندنا التراث الإسلامي في وصف الجنّة -كوصف النار- يتشابه مع ما رآه موسى، فيرى أربعة أنهار من عسل و لبن و خمر الخ..[75] وليس موسى فقط من أسرى إلى السماء فكذلك زرادشت نبيّ الزرادشتيّة في القرن السابع قبل الميلاد حيث اعتزل قومه وخرج إلى الصحراء للتأمّ ل والتحنّث وحين كان في غار في أحد الأيّام ظهر له

---

[73] ابن هشام/السيرة النبويّة/ ص 288

[74] المصدر السابق

[75] Louis Ginzberg/ The Legends of jews/tr. Gabrielle Sed-Rajna/ Cerf/France/ 2001 /T3/p218-226

الملاك الأكبر وحمله إلى السماوات فرأى الجنّة ثمّ رأى الله و تلقّى منه الوحي [76] وإن كانت قصّة إسراء موسى هي الأقرب من حيث وصف المراحل سماءً فسماء، أمّا عن البراق الذي طار بالنبيّ فقد يذكّرنا بالحصان المجنّح (بيجاسوس) المشهور في الأساطير اليونانيّة و تغنّى به الشعراء القدامى، وحسب الأسطورة فقد طار هذا الحصان ناحية المكان الذي يخرج منه البرق والصاعقة واستعمله (برسيوس) في تنقّلاته [77] وربّما هناك علاقة إيتمولوجيّة بين (بيجاسوس) باليونانيّة و(بيهاساس) بالسومريّة [78] والتي من معانيها الضوء القويّ وتقابلها (براقو) بالأكاديّة [79] فهذا الحصان الذي طار ناحية البرق اسمه: بيجاسوس Pegasus [يونانيّة] = بيهاساس Pihassas [سومريّة] = براقو Baraku [أكاديّة] = براق [عربيّة]=البُراق، وليس من المستبعد أنّ كتبة السيرة استعاروا الحصان الم جنّح بمعنى البُراق وأسّسوها كمعجزة للنبيّ خاصّة بعد احتكاكهم بالحضارات الأخرى وتداخل الثّقافات.

وربّما أغرب قصّة في هذا الخضمّ الأسطوريّ هي ما رواه البخاري [80] عن لقاء محمّد بموسى أثناء نزوله من السماء ونصيحة موسى له أن يعود ويطلب التخفيف في عدد الصلوات التي كانت خمسين صلاة، فظلّ النبيّ صاعدا نازلا بين الله وموسى وفي كلّ مرّة يخفّف الله عنه عشر صلوات إلى أنّ استقرّ العدد على خمس صلوات يوميّا، وكأنّ الله فاته هذا التشريع القاسي بل المستحيل ولولا موسى لكان المسلمون يصلّون خمسين صلاة يوميّا وهذا كلام غير منطقيّ بطبيعة الحال، وكما نرى فالإخباريّون لا يعوزهم الخيال مطلقا.

هذا عن قصّة المعراج وأصولها المدراشيّة اليهوديّة، ويربط المفسّرون قصّة المعراج بالآيات الغامضة في سورة النجم، والنبيّ ينفي عن نفسه في القرآن أن يكون باستطاعته الرقيّ إلى السماء أو العروج إليها فيقول: **وقالوا لن نؤمن لك حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعا (...) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيّك حتّى تنزّل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربّي هل كنت إلاّ بشرا رسولا؟** [الإسراء 90-93] أما كان يجدر بمحمّد إن كان قد رقى إلى السماء و عرّج إليها أن يقول: بلى قد رقيت و رأيت آيات الله و أنزل عليّ الصلاة حينها؟ بل نراه يقول: **سبحان ربّي هل كنت إلاّ بشرا رسولا،** فلم يكف الذين كتبوا السيرة والحديث أن سرقوا قصّة مدراشيّة يهوديّة و نسبوها إلى محمّد بل و زادوا أن جاؤوا بعكس ما يقول القرآن، وهذا كلّه لإثبات أنّ لمحمّد معجزات مثله مثل الأنبياء الآخرين رغم أنّ القرآن يعارضهم أيضا و يقول: **وقالوا لولا نُزّل عليه آية من ربّه** [الآية هي المعجزة] **قل إنّ الله قادر على أن ينزّل آية و لكنّ أكثرهم لا يعلمون** [الأنعام-37] فهم يطلبون آية و لكن الجواب واضح: **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ أن كذّب بها الأوّلون** [الإسراء-59] فالقرآن منع المعجزات عن محمّد والسبب- حسب منطقه- هو أن كذّب بها الأوّلون، فكيف ترك المحدّثون العنان لخيالهم عن إسراء ومعراج وخروج الماء من أصابع محمّد الخ... ؟ هذا لأنّهم بدؤوا يحتكّون مع الحضارات الأخرى أثناء الفتوحات الإسلاميّة و طالبهم المسيحيون واليهود بدليل على نبوّة

---

[76] Jean Varenne/Zoroastre, le prophète de l'Iran/Dervy/Paris/2001/p38-39

[77] L.G Michaud/ Biographie universelle.../ partie mythologique/libraire-éditeur/Paris/1833/p284

[78] Reallexikon der Assyriologie und Vorderasiatischen Archäologie/Collectif/vol.10/2005/p559-560

[79] Ibidem

[80] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج2/ص402

محمّد و معجزاته كموسى وعيسى فاضطرّوا إلى اختلاق هذه المعجزات ليثبتوا نبوّة محمّد، وقد وصل الأمر بقريش أن طالبت النبيّ بأن يأتي بالعذاب وليس فقط بآية وذلك ليقينهم بعدم صحّتها فقالوا : **فاسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين** [الشعراء-187] فهم قد يئسوا من أن يأتيهم بمعجزات ورضوا أن يأتيهم بالعذاب، فقط ليثبت نبوّته، ولكنّه لم يفعل والقرآن واضح: لا معجزات لك يا محمّد. أمّا قصّة الإسراء، وهي إسراء محمّد من مكّة إلى بيت المقدس في ليلة واحدة على البراق، فإنّ الشكّ يحيط بها من كلّ جانب، فإن كانت معجزة [وهي تُعتبر معجزة طبعا] فإنّا أوضحنا رأي القرآن عن المعجزات بالنسبة إلى ا لنبيّ، ثمّ هذه ''المعجزة'' مذكورة عرضا و في آية واحدة وكأنّها مضافة فيما بعد، ولا تتماشى مع السياق إطلاقا، فسورة الإسراء تبدأ هكذا: **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياته إنّه هو السميع البصير**، وماذا بعد هذه الآية؟ لا شيء. وإنّما يمرّ إلى موضوع آخر تماما فيقول: **وآتينا موسى الكتاب و جعلناه هدى لبني إسرائيل** الخ... و ينسى الإسراء و قصّته، كما أنّ الفاصلة في جميع الآيات التالية تنتهي هكذا: وكيلا، شكورا، كبيرا، مفعولا، نفيرا الخ.. إلاّ الآية الأولى التي تتحدّث عن الإسراء فهي تنتهي بفاصلة مرفوعة : البصيرُ، وكأنّ الآية ملحقة إلحاقا وسياق النصّ يشير إلى أنّها نشاز في السورة ولا رابط بينها و بين الآيات التالية [81] وسورة الإسراء كان اسمها في الأصل: **سورة بني إسرائيل** [82] و ربّما تمّ تغيير اسمها فيما بعد إلى ''الإسراء'' حين أضافوا هذه الآية الأولى فيها التي تتحدّث عن إسراء محمّد، بعد بناء المسجد الأقصى، وسنتعرّض لقصّة جمع القرآن لاحقا.

---

[81] انتبه لهذا النشاز في بداية السورة غير واحد من المستشرقين الباحثين في القرآن واعتبروها إضافة لاحقة للسورة، مثل Régis Blachere في ترجمته للقرآن حيث وضع كلّ الآية بالخطّ المائل كإشارة إلى أنّها ليست أصليّة في السورة، بينما ذهب Jean Marie Gallez إلى أنّ نصف الآية فقط هو أصليّ و يرى أنّها كانت في الأصل هكذا: سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ، [J.M.Gallez le Messie et son prophète / Tome2/p323] و ذلك لأنّه أراد ربطها مع فاصلة الآيات التي بعدها، و أشار إلى أنّ عبده تعود على موسى و ليس على محمّد، لكن هذا الطرح أيضا بعيد لأنّ الفاصلة في الآيات التالية هي على وزن ''فعول'' أو ''مفعول'' بالنصب، أمّا ''ليلا'' فهي على وزن ''فعل'' بالنصب، لذلك ذهب أغلبيّة الباحثين الغربيّين إلى عدم أصالة الآية بكاملها، من حيث شكلها و من حيث مضمونها الخارج عن سياق الآيات التالية من ناحية، و لأنّ هذه القصّة مأخوذة من الأساطير الفارسيّة من ناحية أخرى، وقد لفتت هذه الآية انتباه المفسّرين المسلمين بطبيعة الحال و ذهبوا إلى أنّها ''التفات'' وأنّه بما أنّ الله أكرم محمّدا بالإسراء فقد أكرم موسى بالكتاب، [و ذلك لمحاولة الربط بين الآيتين، و لا أدري ما وجه المقارنة فموسى كانت له التوراة و بالتالي فالأنسب أن يذكر الله القرآن بالنسبة لمحمّد، فإن ذكر آية حسيّة كالإسراء لمحمّد يقتضي ذكر آية حسيّة لموسى أيضا في الآية التي بعدها، رغم أنّنا لا ننكر طبعا كثرة الالتفات في القرآن] راجع مثلا عن محاولات الربط بين الآيتين : تفسير الرازي/دار الفكر/الجزء 20/ ص 154.

[82] السيوطي/الإتقان في علوم القرآن/ج 1 / ص153 /تحقيق:سعيد المندوب/دار الفكر/لبنان/1996

انشقاق القمر

قبل أن نشير إلى هذه ‘‘المعجزة’’ فإنّنا سنتعرّض إلى الرأي القائل أنّ القرآن اقتبس أو سرق الآية الأولى في سورة القمر و آيات أخرى في القرآن من أبيات لقصيدة لامرئ القيس تقول:

دنت الساعة وانشق القمر — من غزال صاد قلبي ونفر
أحور قد حرت في أوصافه — ناعس الطرف بعينيه حور
مر يوم العيد في زينته — فرماني فتعاطى فعقر
بسهام من لحاظ فاتك — فتراني كهشيم المحتضر
وإذا ما غاب عنّي ساعة — كانت الساعة أدهى وأمر

و قد راجعت ديوان امرئ القيس في كلّ طبعاته و كلّ تحقيقاته فلم أجد به هذه الأبيات، رغم أنّ المحقّقين يوردون أيضا أشعارا يرون أنّها منحولة و ليست من شعره ورغم ذلك يشيرون إليها لكن لم يشر أحد من المحقّقين لهذه الأبيات. و مصدرها كتاب ‘‘فيض القدير شرح الجامع الصغير’’ للمناوي حيث يذكر بعض هذه الأبيات ناسبا إيّاها لامرئ القيس.[83]

لا يخفى على كلّ عالم بالشعر و الأدب، و مطّلع على لغة و لسان العرب، أنّ هذه الأبيات منسوبة زورا، و أنّها ممّا يعبره الشعر عبورا، فلا يتوقّف عندها الصغار، ناهيك عن نسبتها إلى الكبار، وامرؤ القيس شاعر جاهليّ مُجيد، وشعره منتصب البنيان عتيد، ولولا معرفتي أنّ الأمر قد يصدّقه بعض العوام، وقد تختلط عليهم الأفهام، لما فصّلت في هذا الأمر الكلام.

أقول هذا لأنّ النقد الأدبيّ له قواعده وخصائصه، والشعر له ضروبه وأسسه، وهذه الأبيات منسوبة إلى امرئ القيس بغثّها وغثيثها، و أوّلها السقطات العروضيّة و آخرها لغة امرئ القيس الأندلسيّة.

فقوله: اقتربت الساعة، ساقطة عروضيّا، ولا تستقيم على بحر الرمل، لذلك - وعلى ما يبدو- أخذها من بعده [أي بعد المناوي] و أصلح وزنها ليجعلها: دنت الساعة، و لو كان الأمر على هذا لكان هيّنا، و لكنّ امرأ القيس أصبح شاعرا من المولّدين، يتغزّل بالغلمان، ويحار في الوصف، و يجعل العذار يشقّ خدّه، و يتكلّف القافية.

هذا الشعر لا يقوله شاعر جاهليّ، وألفاظه حديثة، ومعانيه متأخّرة، وأغلب الظنّ أنّها من الشعر الأندلسي، و قد كانوا يقتبسون من القرآن اقتباسا، و يعتبرونه طريقا إلى البلاغة و نبراسا، ويقيسون عليه قياسا، وهذا الشعر ما يعجز عنه امرؤ القيس، ليس عجز إدراك، بل عجز تفاوت، لأنّ شعره أجزل وأمتن، و قريضه أبلغ و أبين . [نغلق القوس]

يقول البخاري: **عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما.**[84] أمّا مسلم فيقول: **عن عبد الله بن مسعود قال بينما نحن مع رسول اللَّهِ بمنى إِذا انفلق الْقمر فلْقَتَيْنِ فَكانَت فِلْقَةٌ وراء الْجبل وَفِلْقَةٌ دونه فَقَال لنا رسول اللَّهِ اشهدوا.**[85] نلاحظ أنّ الوحيد الذي شاهد حكاية انشقاق القمر هو عبد الله بن مسعود، ورواها بعض الصحابة الآخرين كأنس بن مالك وهو مدنيّ ولم يحضر الحادثة، وكذلك

---

[83] المناوي/فيض القدير شرح الجامع الصغير/حرف الهمزة
[84] صحيح البخاري/المناقب
[85] صحيح مسلم/الفضائل

عليّ وحذيفة وابن عمر وابن عبّاس وابن مطعم في حديث موقوف، وأرجّح أنّ شاهد العيان أو الراوي الذي تفرّعتْ منه الروايات كان عبد الله بن مسعود [وليس مقام تخريج كلّ الأحاديث هنا] إذ يقول أعلاه: **انشقّ القمر و نحن مع النبيّ بمنى،** ولكن من هم هؤلاء "النحن"؟ وأين قريش ليشاهدوا هذه المعجزة؟ و الأعجب من ذلك أنّ هذه الحادثة، حادثة انشقاق القمر، لم يذكرها ابن هشام في السيرة النبويّة. رغم بحثه عن كلّ ما يدعّم نبوّة محمّد، و هنا احتمالان:

احتمال1: رأى أنّها أسطورة لذلك لم يذكرها [وهذا غريب لأنّه لا يتورّع عن ذكر أساطير غيرها ربّما أعجب منها و ينسبها لمحمّد و أوّلها إسراؤه و معراجه]

احتمال2: لم يكن يعلم بها لذلك لم يذكرها [في البداية رجّحت هذا الأمر واعتبرت أنّ الحديث لابن مسعود تمّ اختلاقه لاحقا بعد ابن هشام وعدت لكتاب تفسير مقاتل بن سليمان المتوفّى حوالي مائة وخمسين هجري أي عاش قبل ابن هشام وهو يذكر هذه الحادثة، أي أنّها كانت معروفة]

عدم ذكر هذه الحادثة في كتاب السيرة الأوّل هو أمر يدعو إلى التعجّب.

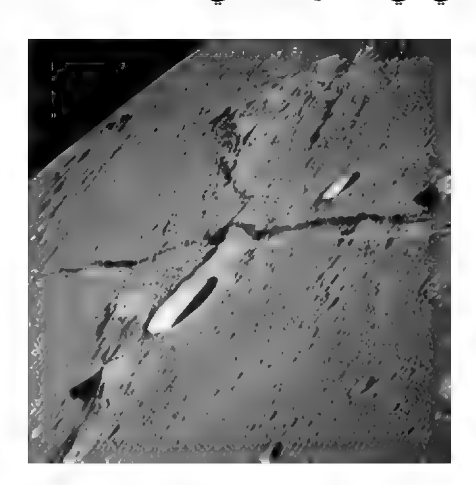
طبعا نحن نعرف أنّه من غير المعقول أن ينشقّ القمر و غيره من هذا الكلام الأسطوريّ وهنا نجد عندنا ثلاثة احتمالات:

احتمال1: أنّ ابن مسعود اختلق الرواية لأنّه أراد أن يعطي شرعيّة واقعيّة للآية، أو فسّرها بهذه الطريقة واعتبرها حدثتْ فعلا، ثمّ رواها لغيره ومحمّد لم يعارض وربّما صدّق هو أيضا لأنّ محمّدا كان يؤمن إيمانا عميقا أنّه نبيّ فعلا .

احتمال2: أنّ ابن مسعود لم يختلق شيئا وقد رأى فعلا "انشقاق القمر" أو بالأحرى تهيّؤات بصريّة إثر مرور جرم سماويّ أو نيزك كبير قطع الطريق بين الأرض والقمر، وكان هذا الجرم مرئيّا بالعين المجرّدة وإثر توسّطه المسافة بين القمر والأرض وبفعل الضوء والمؤثّرات البصريّة بدا كأنّه نجمة مضيئة تبدو خلف القمر الذي انشطر إلى نصفين! ثمّ لم يعدم ابن مسعود الخيال فيما بعد في جعل القمر يبدو منشطرا فرقتين خلف الجبل.

احتمال3: ابن مسعود لم يقل شيئا وهذا الحديث تمّت نسبته إليه فيما بعد.

ولم يتردّد دعاة الإعجاز العلمي في عصرنا الحاليّ تأكيد هذا الانشقاق و القول بأنّه ثبت علميّا.



NASA SP-362

هذه الصورة أعلاه من موقع نازا يعتمدها الإعجازيّون لتأكيد حادثة انشقاق القمر، ويشيرون إلى بقايا الشقّ الواضح، لكن هذا ما يسمّى بتقديم نصف المعلومة لأنّ NASA توضّح أيضا أنّ هذا الشقّ طوله ثلاثمائة كيلومترا، وعمقه ثمانمائة متر، وعرضه خمسة كيلومترات، أي بعبارة أخرى هو مجرّد أخدود كالأخاديد الموجودة على سطح الأرض وليس شقًّا من القطب إلى القطب، وإلى فلقتين، وللفائدة فإنّ مساحة القمر ثمان ية وثلاثون مليون كيلومتر مربّع، فماذا يساوي هذا الأخدود الذي لا يتجاوز طوله ثلاثمائة كيلومترا فقط في هذه المساحة الكبيرة؟

فداء عليّ بنفسه

اجتمعتْ قريش لقتل النبيّ قبل هجرته إلى المدينة، فنام عليّ مكانه واستطاع النبيّ الخروج وحين دخلتْ قريش وجدتْ عليّا و بالتالي استطاع النبيّ النجاة والذهاب إلى المدينة . هذه القصّة أشهر من نار على علم ويرويها العديد دون ذكر أسانيدهم بسبب تواترها، فهي و حسب مصطلح علم الحديث واقعة بلغت حدّ التواتر. وأودّ أن أفتح قوسا بالمناسبة:

الحديث المتواتر و دون أن ندخل في تعريفات الفقهاء هو الذي يرويه أكثر من شخص صحّابيّ، وكلّما زاد عدد الشهود زادت صحّة الواقعة لعدم تواطئهم -كما يقول الفقهاء- على الكذب.

وإذ نرى مثلا أنّ البخاري جمع ألفين وبضعة وسبعمائة حديث [دون تكرار] و سمّاها بالصحيح، فإنّ الأحاديث المتواترة لا تتجاوز مائة واثني عشر حديثا مثلما أحصاها الكتاني قائلا: **وعدّة أحاديثه فيه ما ذكره السيوطي هو في آخره مائة لكني عددتها فوجدتها تزيد على ذلك باثني عشر**[86] أي أنّه يمكننا القول أنّ هذه المائة واثني عشر حديثا لا يمكن الشكّ في صدقها مطلقا وأنّ محمّدا قد قالها فعلا فيمكننا أن نضعها من حيث قيمتها اليقينيّة فوق أحاديث البخاري. ومن هذه الأحاديث المتواترة مثلا: **من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**، روى هذا الحديث ثلاثة وسبعون صحابيا، **من شهد أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة**، رواه أربعة وثلاثون صحابيّا، الخ .. ولكن لنستمع إلى هذا الحديث المتواتر أيضا والذي رواه أربعة وعشرون صحّابيّا: **تقتل عماراً الفئة الباغية**. التاريخ يخبرنا أنّ الأمويّين قتلوا عمّار بن ياسر، ونعرف أيضا أنّ هذه الأحاديث دوّنت في العصر العبّاسي، ونحن نعرف عداء العبّاسيّين للأمويّين، فالخليفة العبّاس أوّل خلفاء العبّاسيّين قال على المنبر يوم بيعته : **إنّ الله ردّ علينا حقّنا و ختم بنا كما افتتح بنا فاستعدّوا فأنا السفاح المبين و الثائر المبير**[87] ويقول فرج فوده : وقد أثبت السفّاح أنّه جدير بالتسمية، فقد بدأ حكمه بقرارين يغنيان عن التعليق وأظنّ أنّه ليس لهما سابقة في التاريخ كلّه، كما لا أظنّ أنّ أحدا بعد السفّاح قد بزّه فيما أتاه، أو فاقه فيما فعل. أمّا القرار الأوّل، أو القرار رقم واحد بلغة العصر الحديث فهو أمره بإخراج جثث بني أميّة من قبورهم وجلدهم و صلبهم و حرق جثثهم، و نثر رمادهم في الريح [88]

نرى هنا حجم الكره الذي يكنّه العبّاسيّون للأمويّين، حتّى أنّهم قاموا بنبش قبورهم و جلد جثثهم و صلبها، وحين نعلم أنّ ما وصلنا عن الأمويّين قد دوّن في عصر العباسيين فإنّه من الواجب والحيطة أن نتعامل مع هذه النصوص بحذر شديد ولا نأخذ كلامهم بتصديق خاصّة إذا تعلّق الأمر بأعدائهم. وبالتالي إذا وجدنا هذا الحديث عن عمّار الذي تقتله الفئة الباغية [التي هي بنو أميّة] مسنودا إلى أكثر من عشرين صحّابيّ، فإنّنا نخلص إلى أنّهم يستطيعون اختلاق الروايات التي يريدون بل و يجعلون لها سندا متعدّدا و يرفعون الرواية إلى مرتبة المتواتر .

لقد فتحت هذا القوس لأشير إلى أنّه في حالتنا هذه [أي ضمن حركات سياسيّة و مذاهب متعدّدة] لا نسلّم بأيّ رواية أو حديث، متواترا كان أو ضعيفا، بل نجعلهم سواسيّة على محكّ النقد والعقل، وذلك لأنّ ضعف الحديث أو صحّته تتحكّم فيه أهواء السلطة إن كان يشير إلى حركة

---

[86] محمّد بن جعفر الكتاني/ نظم المتناثر من الحديث المتواتر/ص8/ دار الكتب السلفيّة للطباعة و النشر/ مصر

[87] فرج فوده/الحقيقة الغائبة/ قراءة جديدة في أوراق العبّاسيّين/دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع/مصر/1988

[88] المصدر السابق

سياسيّة معارضة، أو تتحكّم فيه الرؤية الدغمائيّة المسبّقة إن كان الحديث يتعارض معها، ولم يشذّ علم الجرح و التعديل عن هذه القاعدة في كثير من الأحيان.
إذن قلنا فإنّ رواية فداء عليّ بنفسه رواية متواترة، و لنستمع لابن هشام: **فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه . فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام ، فيثبون عليه ؛ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ، قال لعلي بن أبي طالب : نم على فراشي وتسجّ بِبُردي هذا الحضرمي الأخضر ، فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم (...)وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس : (يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم) ... إلى قوله : (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) . حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا و قد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم ، فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟ قالوا : محمدا؛ قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا بِبُرْد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائما ، عليه برده . فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي رضي الله عنه عن الفراش ، فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا** [89]
القصّة تجعلنا نطرح أسئلة عديدة: ما الذي جعل قريش تتحوّل فجأة من المضايقات ''السلميّة'' طيلة ثلاثة عشر عاما إلى محاولة اغتيال النبيّ؟ قد يقول قائل: لأنّه استطاع أن يعقد اتّفاقا مع أهل يثرب، ولكن هذا الأمر ليس جديدا عليهم فهو كان يحاول ذلك منذ البداية، إمّا بطلبه النصرة من الطائف أو بتعرّضه للقوافل أثناء موسم الحجّ ليقبلوه بينهم، فقريش تعلم أنّه يريد الخروج من مكّة، بل هي تريده أن يخرج أصلا، وربّما هي التي أخرجته و طردته من مكّة، وليس كما تقول السيرة أنّه خرج هاربا و قريش خرجت على أثره لأعادته، حيث يقول القرآن: **وكأين من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** [سورة محمد-13] فقريته هي التي أخرجته، و لم تطرد قريش محمّدا فقط بل ومن اتّبعه، فيقول القرآن: **للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** [سورة الحشر-8] و راجع سورة الحجّ آية 40، فقريش أخرجتهم من ديارهم و طردتهم من مكّة، لكنّ لكتبة السيرة رأيا آخر، ورأوا أن يخرج محمّد هاربا، فصاغوا هذه القصّة عن فداء عليّ بنفسه، رغم أنّ هذه القصّة تنقصها الحبكة قليلا و تبدو مفبركة، فلماذا ظلّوا ينتظرون في الخارج و لم يدخلوا مباشرة؟ ولماذا جعل عليّا في مكانه، أي كيف سيعرف الكفّار إن كان هناك شخص نائم في الداخل؟ هل كانوا ينظرون من النوافذ مثلا؟[**السهيلي تفطّن لهذا الأمر حيث يقول: و ذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم من التقحّم عليه في الدار مع قصر الجدار وإنّهم إنّما جاؤوا ليقتلونه، فذكر في الخبر أنّهم همّوا بالولوج عليه، فصاحت**

[89] سيرة ابن هشام/ ص 342

امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنّها للسبّة في العرب أن يتحدّث عنّا أنّا تسوّرنا بالحيطان على بنات العمّ [90] نرى مثلا في هذا التبري أنّهم كانوا يستطيعون الرؤية لأنّ الحائط كان قصيرا ولم يدخلوا لأنّهم لا يريدون هتك حرمة المنزل، وفي الحقيقة لا أدري ما معنى هذا التبرير فهل كان المنزل بلا سقف؟ ومن هي هذه المرأة التي صاحت في الدار؟ وماذا تفعل هناك؟ في الحقيقة تبدو المسرحيّة مفبركة و أظنّ أنّ يدا شيعيّة اختلقتها منذ البداية للرفع من شأن عليّ ثمّ انتشرت القصّة كالنار في الهشيم. و هناك احتمال آخر:

ربّما خرج محمّد فعلا مهاجرا [فهو على كلّ حال يعدّ لهذا الأمر منذ ثلاث سنوات ولا ينتظر هجوم قريش ليخرج، بل هو يتمنّى الخروج بفارغ الصبر] و نام عليّ في مكانه على أساس أن يلحق به فيما بعد، و ربّما اتّفقت قريش على قتله، و حين هاجمته وجدت عليّا، أي كان وجود عليّ هناك مجرّد مصادفة، فأخذها الشيعة و جعلوه فداء و أنّه تعمّد ذلك، مع إضافة بعض البهارات والتزيينات طبعا.

ولكن أرى هذا الاحتمال الثاني ضعيفا فكيف تصبح لقريش رغبة في قتله فجأة، رغم موقفها السلميّ لمدّة ثلاثة عشر عاما عاما، و الأعجب أنّها أرسلت لمحمّد عائلته فيما بعد، فإن كان شخصا مطلوبا أو مهدورا دمه فكان يمكن لقريش استعمالها كورقة ضغط عليه، و أرى أنّ قريش لم تفكّر في الجانب الدمويّ أبدا بل وفرحت أنّ هاجر والدليل إرسال عائلته إليه كما سنتعرّض لذلك فيما بعد، أمّا بحثها عنه ومطاردتها له واختبائه في الغار ونسج العنكبوت فهذا قد يعود إلى رغبة كتبة السيرة في تقديم صورة البطل وتضحيته بنفسه أمام الأشرار.

[90] المصدر السابق/ الهامش رقم 2 للمحقّق نقلا عن السهيلي

الدغمائيّة

قد يذهب في خلد البعض أنّ محمّدا استعمل الدين للوصول إلى أغراضه، و أنّه سلب غيره باسم الدين، و أنّه كان كاذبا في ادّعائه النبوّة، و أنّ خلفاءه أيضا كانوا كاذبين و يخدعون الناس الخ...
لكنّ الأمر يختلف عن ذلك، فمحمّد كان مؤمنا تمام الإيمان أنّه نبيّ، و يمكننا اعتبار القرآن أو بعض منه، المذكّرات الخاصّة بمحمّد، فكانت تنتابه شكوك بين الفينة و الأخرى في نبوّته، أو يكون بينه و بين الأصوات حوار تساؤليّ، فيجيبه الصوت [موجود في ذهنه؟]: **إن كنت في شكّ ممّا أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين** [يونس-94] يا محمّد إنّه الحقّ جاءك من الله، فلا تسأل نفسك كثيرا، و لا تشكّ ونحن نلاحظ هذا الصراع بينه [الأنا] و بين الآخر غير المرئيّ [الأصوات]
قلت إذن إنّ محمّدا كان مؤمنا أنّه نبيّ، و العديد من أصحابه يؤمنون بذلك أيضا و لكن هنا يتدخّل عامل محوريّ، تقوم على أساسه كلّ الأديان السماويّة: وهو الدغمائيّة.

ما هي الدغمائيّة؟
الدغمائيّة بمفهومها الاصطلاحي الحاليّ مرادفة للدكتاتوريّة، رفض رأي الآخر، امتلاك الحقيقة المطلقة، إطلاق أحكام بلا أدلّة، أي وباختصار الفكر الأحادي المتعالي.
أمّا فلسفيّا فهي في الأصل عكس ''الريبيّة'' أو ''الشكيّة'' و مفهومها هو أنّ الدغمائيّة تعني كلّ فكر يمكن أن يقودنا إلى اليقين، أي إن كانت ''الريبيّة'' ترى أنّ العقل الإنسانيّ قاصر عن بلوغ الحقيقة في معناها المطلق والبرهنة عليها لذلك لا يمكن التأكيد أو النفي، فإنّ الدغمائيّةّ ترى عكس ذلك. و الدين يجيب عن مفهوم الدغمائيّة الاصطلاحي والفلسفي.
أنا أمتلك الحقيقة, و بما أنّها هي الحقيقة، فعليك أنت [أيّها الآخر] اتّباعها، فإن رفضتَ فلأنّك لست على الحقيقة.
والحقيقة التي أمتلكها [أنا] تخوّل لي أن أحكمك [أنت] أيّها الذي لا تملك الحقيقة.
هذا هو الدين بصفة عامّة. وبما أنّ الحقيقة لا يمكن فعلا البرهنة عليها أو تحديدها فكذلك الشيء [الإله] الذي أزعم أنّه أعطاني هذه الحقيقة لا يمكن البرهنة عليه، كما لا يمكن نفيه!
نتيجة هذه اللخبطة: [أنا] أملك شيئا اسمه الحقيقة أعطانيه شيء اسمه الله أو إيل أو مردوخ أو أهورا مزدا أو غيرهم، وكلّ يمجّد دينه كما قال المعرّي وكلّ يرى الآخرين كفّارا ويرى نفسه على الطريق المستقيم.

باسم الحقيقة، و في رواية أخرى باسم الله:
13:6 وإذا أغواك سرا أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو زوجتك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلا نذهب و نعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت و لا آباؤك

13: 7 من آلهة الشعوب الذين حولك القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصى الأرض إلى أقصاها
13: 8 فلا ترض عنه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترقّ له ولا تستره
13: 9بل تقتله قتلا، يدك تكون عليه أولا لقتله ثم أيدي جميع الشعب أخيرا
13: 10 ترجمه بالحجارة حتى يموت لأنه التمس أن يطوّحك عن الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية [سفر التثنية 13/6-10]
هذه هي الحقيقة التي تملكها التوراة و بالتالي فالقتل سيكون باسم الحقيقة، إنّه القتل من أجل الخير و السلام!

حين يقوم الكفرة بقتل أتباع كنيسة المسيح فهذا فعل شرّير وغير عادل. ولكن الفعل العادل هو أن تقوم الكنيسة بقتلهم (...) فالكفرة يقومون بالقتل بسبب الشرّ، أمّا الكنيسة فتقتل لأجل الخير [القدّيس أوغسطين, سنة 417 /رسالة رقم 185]
هذه هي الحقيقة التي تملكها المسيحيّة.

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون [التوبة /29]
هذه هي الحقيقة التي يملكها الإسلام.

فكلّ ديانة تكفّر الأخرى و تعتبر نفسها المالكة الوحيدة للحقيقة، وتستبيح لأجلها حياة الناس بدعوى إرضاء [الإله] أو كقول المعرّي: هـذا بناقوس يدقّ** و ذا بمئذنة يصيح / كلّ يــعزّز دينه** يا ليت شعري ما الصحيح، لا يوجد صحيح يا أبا العلاء وإنّما هو الانطلاق من فكرة معيّنة -دغمائيّة- و فرضها على الواقع، وليس الدين فقط من يعاني من هذه النظرة بل وحركات فكريّة عديدة قديمة و حديثة و أضرب على سبيل المثال جرائم الشيوعيّة و التي بلغت بين 65 و 80 مليون قتيل، كما جاء في الإحصاءات التي تمّ نشرها في كتاب ‘‘الكتاب الأسود للشيوعيّة‘‘ تحت إشراف ‘‘Stéphane Courtois‘‘ سنة 1997 بباريس. [بغضّ النظر عن الاختلافات حول بعض التسميات التي جاءت في الكتاب] إذن، كلّ هؤلاء و غيرهم يتحدّثون باسم الحقيقة باسم الخير الذي ينوون إعطاءه للعالم، و هم مؤمنون تماما بما يقولون، ومستعدّون للموت من أجل معتقداتهم.
قد يقول بعض العاطفيّين: المشكلة في التطبيق و ليس في النظريّة.
و على كلّ حال فالخلاصة من كلامي هو أنّ محمّدا و خلفاءه كانوا يعتقدون فعلا فيما يؤمنون به، فإن كنّا نحن في عصرنا هذا نرى هذه الأمور بربريّة أو غير معقولة أو غير عادلة فإنّهم بالعكس منّا كانوا يرونها هي عين العدل و عين الحقيقة و أنّ الله معهم.

عصماء بنت مروان

قامت هذه المرأة بهجاء محمّد ببعض الشعر، و حين عاد من غزوة بدر قال: **من لي بها فقال رجل من قومها أنا يا رسول الله** [هذا الرجل اسمه عمير بن عديّ، ويقال أنّه أعمى] **جاءها عمير بن عدي في جوف الليل حتى دخل عليها في بيتها وحولها نفر من ولدها نيام منهم من ترضعه في صدرها فجسّها بيده فوجد الصبي ترضعه فنحاه عنها ثم وضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها ثم خرج حتى صلى الصبح مع النبي فلمّا انصرف النبي نظر إلى عمير فقال أقتلت بنت مروان قال نعم بأبي أنت يا رسول الله، وخشي عمير أن يكون افتات على رسول الله بقتلها فقال هل عليّ في ذلك شيء يا رسول الله قال لا ينتطح فيها عنزان.** [91]

هذا الرجل كان من أهلها و متعوّدا على الدخول إلى بيتها لذلك لم يجد صعوبة في الدخول عليها ليلا، فوجدها نائمة بين أولادها وفوق صدرها رضيع لها، فنحّاه عنها ثمّ أخذ سيفه و أدخله في صدرها حتّى أخرجه من ظهرها، ثمّ عاد إلى محمّد و صلّى معه الصبح وأخبره بالقصّة، فقال له النبيّ: لا ينتطح فيها عنزان أي هي أتفه من أن يثور علينا قومها أو يختلف عليها اثنان.ونلاحظ أنّ الرجل راوده شعور بالذنب لكنّ النبيّ طمأنه و هذا شرح أخلاقيّ في سبيل الحقيقة المطلقة. وهذه هي الأبيات كما - يوردها ابن هشام - [92] والتي استحقّت عليها القتل ورضيعها على صدرها:

باسْت بني مالك والنبيت وعوف وإسْت بني الخزرج
أطعتم أتاويّ من غيركم فلا من مراد ولا مذحــــج
ترجونه بعد قتل الرءوس كما يرتجـى مرق المنضج
ألا أنف يبتغـــي غرة فيقطع من أمل المرتجـــي

ويعلّق ابن هشام قائلا : **وأسلم يوم قُتلتْ ابنة مروان رجال من بني خطمة، لما رأوا من عزّ الإسلام.** [93] [!] وأعتقد أنّنا نعرف لماذا أسلموا، فلا ينتطح في السبب عنزان.

---

[91] مغازي الواقدي/ تحقيق مارسدن جونسون/عالم الكتب/بيروت /ج 1/ 173

[92] سيرة ابن هشام/ ص 887

[93] المصدر السابق

أبو عفك

كان أبو عفك من بني عمرو بن عوف شيخا كبيرا قد بلغ عشرين ومائة سنة[94] فقال شعرا يهجو النبيّ وجاء فيه:

لقد عشتُ دهرا و ما أن أرى من الناس دارا ولا مجمعا

أبرّ عهــودا وأوفـــــى لمن يعـــاقد فيهم إذا مـــا دعا

من اوْلاد قيلة فــي جمــعهم يهدّ الجبـــال ولم يخضعا

فصدّعهم راكب جـــــاءهم حلال حرام لشتّـــــى معـا

فلو أنّ بالعزّ صدّقتــــــمُ أو المُلْك، تـــــابعتُمُ تُبّعا

فقال النبيّ: **من لي بهذا الخبيث ؟** [95] فقال سالم بن عمير: **عليّ نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه، فأمهل يطلب له غرة حتى كانت ليلة صائفة فنام أبو عفك بالفناء وعلم به سالم بن عمير فأقبل فوضع السيف على كبده ثم اعتمد عليه حتى خشّ في الفراش وصاح عدو الله فثاب إليه ناس ممن هم على قوله فأدخلوه منزله وقبروه.** [96]

لماذا يقوم محمّد بقتل امرأة وشيخ بسبب بعض الأبيات؟

يقول René Marchand في كتابه ‘‘محمّد‘‘ معلّقا: **محمّد يقوم باغتيال الشعراء في البداية لأنّه يعرف أنّ هذه الأعمال سوف تنتشر و تسكن في العقول. حيث تمّ تنفيذها بطريقة دعائيّة. (...) لننظر إلى الهدفين: المرأة و الشيخ، لقد تمّ اختيارهما بتدقيق شديد. فقتل امرأة ليس بالشيء المشرّف للعربيّ، والقرآن نفسه يندّد بالقتل في مواضع كثيرة دون أن يفرّق بين المرأة والرجل كما أنّ محمّدا في غزوات أخرى يطالب بعدم الاعتداء على النساء و الأطفال، لكنّ قتل امرأة هو شيء منكر، و بهمجيّة لا مثيل لها، و هو ما أراده محمّد، إنّه إنذار مبطّن لكلّ أهل المدينة أنّه لا يوجد شخص محصّن بانتمائه القبليّ أو بعلاقاته السياسيّة مع اليهود أو حتّى لجنسه إن كان امرأة أو شيخا. فالعمليّتان كانتا منظمّتين فقام بالقتل شخص من القبيلة نفسها، فلا أحد منذ اليوم يستطيع أن يثق في الآخر حتّى وإن كان ابنه أو أخاه، فأصحاب محمّد في كلّ مكان ومستعدّون لفعل أيّ شيء.(...) في الحضارة الوثنيّة العربيّة لم نسمع بإله أو ببطل أسطوريّ في الشعر أو في الواقع قاموا بتمجيده لأنّه قتل امرأة أو شيخا. ومع هذه العمليّة اللاأخلاقيّة يقوم الإسلام بانكسار آخر في المنظومة الأخلاقيّة بعد ما حدث في غزوة نخلة، و تنقلب المفاهيم والمعطيات على مذبح الله** [97]

---

[94] مغازي الواقدي/ج1 / ص175، و انظر ابن سعد في الطبقات/ج 2/ ص 28، و ابن كثير في البداية و النهاية /ج 5/ ص 240

[95] سيرة ابن هشام/ص 887

[96] المصدر رقم 94.

[97] René Marchand, Mahomet, op.cit

كعب بن الأشرف

قال ابن الأشرف شعرا يهجو به محمّدا، و كالعادة قال النبيّ: **من لابن الأشرف؟ فقال له محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله. قال: فافعل إن قدرت على ذلك. فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل، ولا يشرب، إلا ما يعلق نفسه، فذكر ذلك لرسول الله فدعاه فقال له: لم تركت الطعام والشراب؟ فقال: يا رسول الله قلت لك قولا لا أدري هل أفي لك به أم لا؟ قال: إنّما عليك الجهد، قال: يا رسول الله إنه لا بد لنا أن نقول.**[أي كي نستطيع قتله لابدّ أن نكذب عليه و نستدرجه] **قال: فقولوا ما بدا لكم فأنتم في حلّ من ذلك.** [98]

ثمّ يخرج ‘‘الكومندوس’’ في مهمّته وكانوا خمسة أشخاص ولنستمع إلى هذه المسرحيّة وكيف استطاعوا قتله: **فقدّموا بين أيديهم، إلى عدو الله كعب، سلكان بن سلامة أبا نائلة، فجاءه فتحدث معه ساعة فتناشدا شعرا - وكان أبو نائلة يقول الشعر - ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني،**[أي أريد أن أقول لك سرّا، كان يستدرجه] **قال: افعل. قال: كان قدوم هذا الرجل** [أي محمّد]**علينا بلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبيل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا. فقال كعب: أنا ابن الأشرف أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول، فقال له سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعاما، ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك. قال: ترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا إنّ معي أصحابا لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم، وتحسن في ذلك، ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء.**[أي نرهنك من سلاحنا] **وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاؤوا بها. فقال: إنّ في الحلقة لوفاء. قال: فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله . (...) فمشى معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم. ثم رجع رسول الله إلى بيته، وهو في ليلة مقمرة، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعرس،**[أي أنّ كعبا تزوّج حديثا] **فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: أنت امرؤ محارب وأنّ أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة. قال: إنه أبو نائلة لو وجدني نائما ما أيقظني، فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشر. قال: لو دعي الفتى لطعنة أجاب. فنزل فتحدث معهم ساعة، وتحدثوا معه، ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشرف أن تتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟** [أرادوا أن يبعدوه عن بيته] **قال: إن شئتم. فخرجوا فمشوا ساعة. ثم إنّ أبا نائلة شام يده في فود رأسه ثم شمّ يده فقال: ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط. ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن. ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها، فأخذ بفودي رأسه ثم قال: اضربوا عدو الله! فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئا** [لم تصبه سيوفهم و يبدو أنّه كان مدرّعا] **قال محمد بن مسلمة: فذكرت مغولا في سيفي فأخذته، وقد صاح عدو الله صيحة، لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار. قال: فوضعته في ثنته، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، فوقع عدو الله وقد أُصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو في رأسه، أصابه بعض سيوفنا. قال:**[أي بعد قتله وتنفيذ المهمّة

---

[98] ابن كثير/البداية والنهاية /ج 4/ ص 8، ورواه البخاري بلفظ آخر.

بنجاح] **فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد، ثم على بني قريظة، ثم على بعاث، حتى أسندنا في حرة العريض، وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس، ونزفه الدم، فوقفنا له ساعة،**[ينتظرون أحد أفراد ''الكومندوس'' الذي أصيب في العمليّة] **ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه، فجئنا به رسول الله آخر الليل، وهو قائم يصلي، فسلّمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله. وتفل رسول الله على جرح صاحبنا، ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه** [99]

[99] المصدر السابق

أبو رافع بن أبي الحقيق

و أرسل محمّد ‘‘كومندوس‘‘ آخر بقيادة عبد الله بن عتيك لاغتيال أبي رافع و لنستمع إلى البخاري: بعث رسول الله إلى أبي رافع اليهودي رجالا من الأنصار، فأمّر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه، أجلسوا مكانكم، فإني منطلق، ومتلطف للبواب، لعلي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله: إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت فكمنت،[أي دخلت إلى الحصن و اختفيت في مكان ما] فلمّا دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على وتد،[أي أنّ البوّاب أغلق باب الحصن] قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه،[أي أنّ أبا رافع كان ساهرا مع أصحابه و حين انتهى من السمر وخرج أصحابه صعد عبد الله إليه] فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت عليّ من الداخل، قلت: إنّ القوم نذروا بي لم يخلصوا إليّ حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: يا أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش،[دهش أي لا أرى شيئا بسبب الظلمة] فما أغنيت شيئا، [أي أنّي أخطأته بالسيف فلم أصبه] وصاح، فخرجتُ من البيت، فمكثت غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟[غيّر صوته و قال له لماذا تصرخ] فقال: لأمّك الويل، إنّ رجلا في البيت ضربني قبلُ بالسيف، قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله،[أي سقط بها أبو رافع على الأرض] ثم وضعت ظبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، حتى سمعت صوت العظم، ثم خرجتُ دهشا [أي لا أرى شيئا بسبب الظلمة] فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي، وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة،[أي سقط على الأرض أثناء هروبه فانكسرت ساقه] ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم: أقتلته؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور، فقال: أنعى أبا رافع تاجر الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي، فقلت: النجاء، فقد قتل أبو رافع، فانتهيت إلى النبي فحدثته [100]

هذه الاغتيالات كانت قد وقعت في أوقات متفرّقة و لكنّي جمعتها في هذا الفصل. والشخصيّة المحمّديّة ومنذ غزوة نخلة سوف تظلّ هي هي ولا تتغيّر حتّى وفاته، يكون كريما و طيّبا وصادقا في مواطن، ويكون صارما وعنيفا و يقتل بدم بارد حتّى النساء في مواطن أخرى، أو بالأحرى يأمر أتباعه بفعل القتل، لأنّ محمّدا لم يقتل بيده إلاّ شخصين فقط طيلة حياته وهذان الشخصان هما: أبيّ بن خلف حيث طعنه محمّد بحربة يوم أحد، و أبو عزّة قطع محمّد عنقه يوم أحد أيضا [101] قلت إذن هذان القطبان أو المحوران في الشخصيّة المحمّديّة سيلازمانه حتّى وفاته. و هذا التوجّه الثنائي [القسوة و اللين] كان له دور كبير في التحاق العديد معه واتّباعه

[100] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج1/ص330
[101] محمّد بن حبيب البغداديّ/المنمّق من أخبار قريش/ص425

بغضّ النظر عن رغبتهم في الغنائم أيضا، فالقسوة أو الإرهاب أو الاغتيالات تبثّ الرعب في قلوب المعارضة بينما الطيبة واللين تدعّم أواصر العلاقات بينه وبين أتباعه، و نرى أنّ القرآن يعبّر عنها بطريقة دقيقة و واضحة: **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** [سورة الفتح، 29]

لقد قام محمّد بوضع مفاهيم جديدة للأخلاق، فليست العادة أو المعروف هما اللذان ينظّمان العلاقات الاجتماعية [معنى ''المعروف'' هو ما تعارف الناس عليه وعكسه ''المنكر'' وهو ما أنكره الناس لعدم معرفتهم به] بل كلّ ما لا يصبّ في توجّهه الإيديولوجيّ هو منكر.

لم يعد التكاتف القبلي أو رابطة الدم أساسيّين في المعاملات الأخلاقيّة بل صارت هذه الفكرة الإيديولوجيّة[الإسلام] مهيمنة عليهما، و ربّما هذا ممّا يحسب لمحمّد- من وجهة نظر معيّنة-.

لو أردنا أن نقسّم الأخلاق [المعروف] إلى بنيتين، في مجتمع ما، لجاز لنا أن نقول:

الفكرة الأخلاقيّة أو النظريّة هي البنية الفوقيّة.

المعاملات الأخلاقيّة أو التطبيق ه ي البنية التحتيّة.

و محمّد غيّر البنية الفوقيّة في مجتمعه و لكنّه بالمقابل حافظ على البنية التحتيّة، و أضرب مثلا حدّ السرقة، فقطع يد السارق [أي التطبيق] ليس جديدا على قريش، فمثلا : مدرك بن عوف سرق في الجاهلية مراراً فقطعت قريش يده ثم عاد فسرق فرجموه حتى مات والخيار بن عدي سرق في الجاهلية فقطعت يده ومليح بن شريح قطعت يده في أمر غزال الكعبة ومقيس بن قيس قطعت يده في أمر الغزال، وعبيد الله بن عثمان قطعت يده في الجاهلية في سرقة إبل ووابصة بن خالد. [102]

و كذلك من حرّم السكر والخمر الأزلام في الجاهليّة: عبد المطلب بن هاشم وشيبة بن ربيعة وكان يتحنف بحراء وورقة بن نوفل وأبو أمية بن المغيرة والحارث بن عبيد المخزوميان وزيد بن عمرو وكان يتحنف بحراء ولا يأكل ما ذبح للأصنام وعامر بن حذيم الجمحي وعبد الله بن جدعان التيمي ومقيس بن قيس بن عدي السهمي وعثمان بن عفان والوليد بن المغيرة وضرب فيها هشام ابنه [103]

فحمّد حافظ على الكثير من الحدود أو التطبيقات أو الشرائع في الجاهليّة [كالحجّ أيضا] وبالمقابل غيّر المفهوم الأخلاقيّ في منحاه النظري.

[102] محمّد بن حبيب البغداديّ/المنمّق من أخبار قريش/ص530

[103] المصدر السابق

سودة بنت زمعة

بعد وفاة خديجة تزوّج محمّد من سودة وهي: سودة بنت زمعة بن قيس القرشية العامرية وهي أول من تزوج بها النبي بعد خديجة وانفردت به نحوا من ثلاث سنين أو أكثر حتى دخل بعائشة وكانت سيدة جليلة نبيلة ضخمة وكانت أولا عند السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو العامري [104] و هذه المرأة كانت متزوّجة من شخص اسمه "السكران بن عمرو" أخو سهيل بن عمرو الذي ذكرناه أعلاه حيث رفض أن يُجير محمّدا حين عاد من الطائف، و هو أيضا الذي كتب الصحيفة أثناء صلح الحديبيّة، حيث طالب بمسح كلمة "رسول الله" من المعاهدة، كما سيأتي في حينه.

و حين توفّي زوجها بعد عودتهما من الحبشة تزوّجها محمّد وخطب أيضا عائشة في الوقت نفسه: قالت عائشة: **لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله ألا تزوج؟ قال: من؟ قالت: إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا. قال: فمن البكر؟ قالت: أحب خلق الله إليك عائشة ابنة أبي بكر. قال: ومن الثيب؟ قالت: سودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك. قال: فاذهبي فاذكريهما علي.** [105]

هناك سؤال يطرح نفسه:

لماذا لم يتزوّج امرأة شابّة؟ لماذا لا تقترح عليه خولة بنت حكيم إلاّ أرملة لها خمسة أولاد أو طفلة صغيرة؟ هل أقفرت مكّة من النساء حتّى لا يكون خياره إلاّ هذا؟ فبعد خديجة يتزوّج أرملة أخرى.

قد يقول قائل: لقد تزوّج من سودة بنت زمعة لأنّها كانت أرملة و لكي يعينها على تربية أطفالها أي أنّ الزواج راعى هذا الجانب الإنسانيّ.

كلام جميل و لكنّه غير صحيح و إلاّ فأين هذا الجانب الإنسانيّ حين أراد تطليقها بعد أن كبرت و شعر بثقل المسؤوليّة معها، حتّى أنّها تنازلت له عن ليلتها لعائشة على أن يبقيها زوجة له؟ إنّها حتّى تستعطفه حين أراد طلاقها بعد الهجرة: **بعث النبيّ إلى سودة بطلاقها فجلست على طريقه فقالت أنشدك بالذي أنزل عليك كتابه لم طلقتني؟ ألموجدة؟ قال لا، قالت فأنشدك الله لمّا راجعتني فلا حاجة لي في الرجال ولكنّي أحبّ أن أبعث في نسائك، فراجعها، قالت فإني قد جعلت يومي لعائشة** [106] فهي قد علمَتْ سبب طلاقها وهو أنّها امرأة عجوز ولا تمارس الجنس ولذلك قالت له لا حاجة لي في الرجال ويمكنك أن تأخذ ليلتي [حيث كان محمّد يبيت كلّ ليلة عند واحدة من نسائه] و تعطيها لعائشة، وهو ما فعله محمّد فعلا، فصار يبيت ليلتين عند عائشة و ربّما لسان حاله يقول كما ذكر البخاري: **فهلاّ جارية تلاعبها وتلاعبك؟** [107] وماذا سيفعل النبيّ بهذه العجوز الضخمة والبدينة وعنده عائشة يلاعبها و تلاعبه؟

---

[104] الحافظ الذهبي/ سير أعلام النبلاء /ج 2/ ص265

[105] ابن كثير/البداية و النهاية/ج 3/ ص 162

[106] الحافظ الذهبي/ سير أعلام النبلاء/ج2/ص267، تهذيب التهذيب/ابن حجر/ كتاب النساء: **لمّا أسنتْ همّ النبي بطلاقها فوهبت يومها لعائشة**

[107] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج2/ص243

غزوة بدر

بعد أن نجحت غزوة نخلة، ولم تكن لها تداعيات على محمّد، فكّر النبيّ في توسيع مجال حركته، فقرّر الهجوم على قافلة قرشيّة عائدة من الشام يقودها أبو سفيان، لكنّ الأمر مختلف فالقافلة الصغيرة التي استولى عليها عبد الله بن جحش في الشهر الحرام ليست كالقافلة التي يقودها أبو سفيان، خاصّة أنّ أغلب أشراف مكّة كان لهم تجارة فيها، فهي قافلة كبيرة و الغنيمة مغرية، فقال النبيّ لأصحابه : **هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها** [108] ولكن هناك من عارض هذه الفكرة و خاصّة من المهاجرين، فكيف سيحملون السيف على أهاليهم؟

و حسم هذا التردّد تدخّل رجل من الأنصار [سعد بن عبادة] ليؤيّد هذه الفكرة، ففي الأخير هو ليس مكّيّا أو قرشيّا فما المانع من القتال؟ خاصّة أنّ الغنيمة كبيرة حيث أنّ النبيّ **شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه** [لم يعجبه كلام أبي بكر] **ثم تكلّم عمر فأعرض عنه** [لم يعجبه كلام عمر] **فقام سعد بن عبادة، فقال: إيّانا تريد يا رسول الله والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا، فندب رسول الله الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرا** [109] نلاحظ أنّ النبيّ يشاور أصحابه ولكنّه في الوقت نفسه يدفعهم إلى الفكرة التي يريدها، و سنرى هذا كثيرا فيما بعد، حيث يبدو كأنّه يعطي رأيه فقط وبالتوازي يختار رأي شخص آخر متّفق معه، وهذه من الأساليب القياديّة التي يلزمها موهبة و فهم للشخصيّات المحيطة به.

إذن فقد أجمعت هذه الجماعة على مهاجمة القافلة، و قبل أن نواصل، نتساءل: هل أعلم محمّد قريشا بأنّه سيهاجم قوافلهم؟ أي بمعنى آخر هل أعلن الحرب على قريش؟ هل أراد مهاجمة هذه القافلة كرجل حرب، في وقت حرب، أم هاجمها كقاطع طريق و لصّ؟

إن كانوا على علم بمحاربته إيّاهم فلماذا لم يغيّروا طريق القافلة منذ البداية؟ لماذا لم يتّخذوا مثلا الطرق الشرقيّة القريبة من العراق؟ أرجّح أنّهم كانوا يتخوّفون فعلا من قطعه الطريق لكن ليس إلى حدّ تغيير طرقهم التجاريّة المعتادة، فكان أبو سفيان **حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً من أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك** [110] وأرسل أبو سفيان يطلب المدد من مكّة بينما توجّه النبيّ إلى بدر ومعه ''جنرالاته'' كعمر وحمزة وغيرهما إلاّ عثمان بن عفّان لأنّ زوجته رقيّة، وهي بنت محمّد، مريضة فبقي معها في المدينة.

و طبعا سيخرج مع النبيّ بعض الناس الطامعين في الغنيمة، كخبيب بن يساف الذي لحق بمحمّد أثناء خروجه إلى بدر، **ولم يكن أسلم، ولكنه خرج نجدة لقومه من الخزرج طالبا للغنيمة، ففرح المسلمون بخروجه معهم، فقال له رسول الله ''لا يصحبنا إلا من كان على ديننا''** [لكنّ هذا الرجل أصرّ و كرّر طلبه ثلاث مرّات] **وفي الثالثة قال له: تؤمن بالله ورسوله؟ قال نعم،**

---

[108] ابن سيّد الناس/ عيون الأثر في المغازي والسير/ج1/ص321، سيرة ابن هشام/ص 415

[109] صحيح مسلم/كتاب الجهاد و السير/باب غزوة بدر

[110] ابن سيّد الناس/ عيون الأثر في المغازي والسير/ج1/ص321، سيرة ابن هشام/ص 415

فأسلم وقاتل قتالا شديدا.[111] ولا يخفى علينا أنّ هناك من اختصر الأمر وأسلم منذ البداية ليستطيع المشاركة في الغزوات والحصول على الغنائم.
واختار النبيّ مكان المعركة وتوقيتها، كما أنّه كان أوّل النازلين ببدر فقام بردم الآبار فيها فصار متحكّما في مورد مهمّ في الحرب وهو الماء، وصار له تفوّق استراتيجيّ وتكتيكي على عدوّه وهذه الفكرة في الحقيقة ليست فكرته بل كان رأي خباب بن المنذر، حيث أنّ محمّدا اختار في البداية مكانا آخر فقال له خباب: **يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فقال يا رسول الله فإنّ هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أشرت بالرأي** [112]
وأودّ أن أذكر هذه ''الحكاية الطريفة'' كي ندخل قليلا في الجوّ العام لعقليّة بعض أصحاب محمّد ففي طريقهم نحو بدر و معهم النبيّ: **لقوا رجلا من الأعراب، فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبرا** [أي سألوه إن كان له علم بأخبار قريش] **فقال له الناس سلّم على رسول الله قال أو فيكم رسول الله؟ قالوا: نعم، فسلّمَ عليه، ثم قال إن كنت رسول الله فأخبرني عمّا في بطن ناقتي هذه.**[يقول بما أنّك نبيّ فقل لي ماذا يوجد في بطن هذه الناقة الآن] **قال له سلمة بن سلامة بن وقش لا تسأل رسول الله وأقبل عليّ فأنا أخبرك عن ذلك ثمّ قال: نزوتَ عليها ، ففي بطنها منك سخلة** [أي أنت نكحت ناقتك و توجد ابنتك داخلها] **فقال رسول الله مه أفحشت على الرجل ثم أعرض عن سلمة** [113] ولنا أن نلاحظ أخلاق هذا الصحابيّ وكلامه.
و قد تردّدت قريش في الخروج لسببين:
-أبو سفيان استطاع أن يسلك طريقا أخرى و ينجو بالقافلة.
-خوف قريش أن تهاجمهم بنو كنانة من الخلف و ذلك لوجود ثأر بينهم.
لكنّ المصمّمين على الخروج خرجوا، لمحاربة محمّد وكذلك للمشاركة في سوق بدر السنويّ وتجدر الإشارة إلى أنّ أبالهب لم يخرج معهم كما تراجع منهم البعض من بني زهرة و كذلك من بني هاشم.
نتيجة القوى:
قريش: خرجوا على عجل بلا تحضير مسبّق للحرب، و ينقصهم العديد من المحاربين المعتادين على القتال.
محمّد:خرج على مهل و اختار المكان المناسب و الوقت المناسب.
قريش: متفوّقة عدديّا.
محمّد: متفوّق استراتيجيّا و تكتيكيّا.

---

[111] سير أعلام النبلاء/الذهبي/ج1/ص501، وانظر البخاري في التاريخ الكبير/باب خبيب
[112] سيرة ابن هشام /ص 424
[113] سيرة ابن هشام /ص 420

تقابل الطرفين:

وقبل أن تبدأ المعركة وقف محمّد وأخذ حفنة من التراب والحصى ورمى بها ناحية قريش وقال: **شاهت الوجوه** [114] [كما تفعل الكهّان قبل الحرب] ووعد المسلمين بالجنّة إذا انتصروا ثمّ عاد إلى الخيمة الصغيرة التي صنعوها له وبدأ يصلّي ويدعو الله أن ينصره. أمّا أبو جهل في الناحية الأخرى فقد أخذ يدعو الله أيضا قائلا: **اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة** [115] [أي اللهمّ إنّ محمّدا قطع رحمنا وفرّق بين أهلنا وجاءنا بما لم نسمع به من قبل فأهلكه هذا اليوم] وأبو جهل كان يعرف الله مثله مثل قريش، والاختلاف كان حول التقرّب بالأصنام إلى الله زلفى ويعتبرها محمّد شركا حيث أراد جعل العلاقة بين الإنسان وربّه علاقة عموديّة مباشرة بلا واسطة لكن المسلمون اليوم لم يخرجوا عن هذا الشرك وإن ادّعوا غير ذلك فتراهم اليوم يتقرّبون بالأولياء الصالحين وينذرون لهم النذور ويتّخذون الكهنة وأصحاب العمائم أربابا من دون الله بل ويقدّسون محمّدا ويرفعونه إلى مرتبة بريئة في ظاهرها ولكنّها شرك بالله في باطنها فجعلوه سيّد الخلق وأعظم البشر ويتشفّعون به ويلوذون به ويلهجون باسمه في الغدوّ والرواح وهو يقول: سبحان ربّي هل كنت إلاّ بشرا رسولا.

ثمّ بدأت المعركة وانتصر المسلمون وبدؤوا يأسرون العدوّ، وكان سعد بن معاذ واقفا على خيمة محمّد بصدد حراستها مع بعض الأنصار ومحمّد في الداخل، و إذ بدأ المسلمون في قتل الأسرى خرج محمّد وأمرهم بعدم قتلهم قائلا: **إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها** [116]

الخلاصة أنّه طالب بعدم قتل أهله من قريش، ممّا دفع أحدهم أن يقول: **أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس والله لئن لقيته لألحمنه السيف** [117] فسمع محمّد ما قاله الرجل فقال لعمر بن الخطاب: **يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق** [118] لقد أصبح حذيفة الآن منافقا لأنّه طالب بالعدل في التعامل مع الأسرى، فكيف يقتل أهله بينما محمّد يطالب بعدم لمس بني هاشم.

المهمّ أنّ كلّ من كان له عائلة تستطيع أن تفديه أبقوا على حياته لمبادلته بالمال [ثمن الفداء كان بين ألف وأربعة آلاف درهم أي ما يعادل تقريبا بين عشرين وثمانين ناقة] إلاّ بعض الذين أطلقوا سبيلهم، وكانت الغنيمة كبيرة، حيث خرج المسلمون في جوادين وسبعين ناقة فقط [انظروا إلى حالة الفقر التي هم عليها] و عادوا بعد المعركة بعشرة جياد ومائة وخمسين ناقة وسيوفا وعتادا وخاصّة بالأسرى الذين سيتمّ فداؤهم بالمال.

---

[114] المصدر السابق/ص428
[115] المصدر السابق
[116] المصدر السابق/ص429
[117] المصدر السابق
[118] المصدر السابق

هوامش من غزوة بدر

أبو جهل:

أمر محمّد بعض صحابته أن يبحثوا عن أبي جهل بين القتلى، فوجده عبد الله بن مسعود، و لم يكن أبو جهل قد مات بعد وإنّما كان يحتضر في دمائه، فرفع عبد الله بن مسعود رجله ووضعها على عنق أبي جهل و قال له: **هل أخزاك الله يا عدوّ الله؟ أجاب أبو جهل: وبماذا أخزاني؟ أعمد من رجل قتلتموه** [أي لا يوجد عار على رجل قتله قومه] **ثمّ سأله أبو جهل: لمن الدائرة اليوم؟** [أي من المنتصر في المعركة؟] **فأجاب ابن مسعود: لله و رسوله. فقال له أبو جهل: لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعيّ الغنم** [أي أنّ وضع رجلك على عنقي هو شيء أكبر منك] **فذبحه ابن مسعود وقطع رأسه وجاء به إلى محمّد قائلا: هذا رأس عدوّ الله أبي جهل. فقال محمّد: آلله الذي لا إله غيره** [أي يتساءل هل حقّا هو] **قال ابن مسعود: نعم، و الله الذي لا إله غيره. ثمّ ألقى رأس أبي جهل بين يدي محمّد، فحمد الله.** [119]

عقبة بن معيط:

كان من بين الأسرى، و قد أسره عبد الله بن سلمة، ولمّا كان المسلمون عائدين من بدر ومتّجهين إلى المدينة أمر محمّد بقتل عقبة، فقال له عقبة: **يا محمّد أمن بين هؤلاء أقتل؟** [أي لماذا تقتلني أنا فقط من بين الأسرى؟] **فقال محمّد: نعم. فقال عقبة: بم؟ فقال محمّد: بكفرك وفجورك و عتوّك على الله و رسوله. فقال عقبة: فمن للصبية يا محمّد؟** [أي من سيهتمّ بالصبية بعدي؟] **فقال محمّد: النار. ثمّ قام عاصم بن ثابت فقطع عنقه.** [120]

ويبدو أنّ النبيّ لم ينس ما فعله به عقبة بن معيط في مكّة، ويرويها لنا ابن عبّاس: **كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلاّ صنع طعاما فدعا إليه أهل مكة كلهم وكان يكثر مجالسة النبي ويعجبه حديثه وغلب عليه الشقاء فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ثم دعا رسول الله إلى طعامه فقال: ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فقال: أطعم يا ابن أخي قال: ما أنا بالذي أفعل حتى تقول فشهد بذلك وطعم من طعامه فبلغ ذلك أبي خلف فأتاه فقال: أصبوت يا عقبة ؟ - وكان خليله - فقال: لا والله ما صبوت ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلاّ أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت له فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك حتى تأتيه فتبصق في وجهه، ففعل عقبة، فقال له رسول الله : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرا** [121] وفي رواية أخرى أنّ عقبة هو الذي طلب من أبيّ أن يبصق في وجه محمّد في مكّة.

النضر بن الحارث:

كان بين الأسرى و أثناء العودة إلى المدينة أمر محمّد عليّ بن أبي طالب بقطع عنقه، والنضر بن الحارث بن كلدة كان يجلس بعد النبيّ في مكّة **فيتلو عليهم شيئا من أخبار رستم واسفنديار**

---

[119] المصدر السابق/ ص 433

[120] المصدر السابق/ ص 438

[121] الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور/جلال الدين السيوطي/سورة الفرقان/دار الفكر/بيروت/1993

وما جرى بينهما من الحروب في زمن الفرس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها. فأنزل الله تعالى: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا. [122]

و قد قامت أخته برثائه حين علمت بقتله في الأسر، فقالت تخاطب محمّد:

ما كـــان ضرّك لو مننت وربّما ** منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

أو كنت قـــابل فديـــة فلينفقن بأعز مـــــا يغلو به ما ينفق**

والنضر أقرب من أسرت قرابة ** وأحقهم إن كـــــان عتق يعتق

ظلّت سيـــوف بني أبيه تنوشه ** لله أرحـــــام هنـــــالك تشقق

صبرا يقـــاد إلـــى المنية متعبا ** رسف المقيد وهو عـــان موثق

وهو ليس ابن الحارث بن كلدة طبيب العرب المشهور في زمن محمّد.

أميّة بن خلف:

وقع أسيرا بعد المعركة هو وابنه، أسره عبد الرحمن بن عوف، وكانا صديقين حيث كان يهتمّ عبد الرحمن بأملاك أميّة في المدينة وكان أميّة يهتمّ بأملاك عبد الرحمن في مكّة، فأسرهما عبد الرحمن وأخذ يقودهما من يديهما وهو بينهما، و بينما هم كذلك إذ رآهم بلال فجاء نحوهم وقال: **رأس الكفر أميّة بن خلف, لا نجوتُ إن نجا. فقال عبد الرحمن: أبأسيريّ؟** [أي إنّهما أسيران عندي و ليس لك أن تلمسهما] **فقال بلال:لا نجوتُ إن نجا. فقال عبد الرحمن: أتسمع يا ابن السوداء؟** [أي هل تفهم أنّهما أسيران عندي؟] **فصرخ بلال: يا أنصار الله، رأس الكفر أميّة بن خلف، لا نجوت إن نجا. فقام الأنصار وأحاطوا بهم من كلّ جانب، فارتمى عبد الرحمن على أميّة ليحميه بجسده على الأرض، فأخذ أحد الأنصار سيفه وضرب به ساق ابن أميّة فوقع على الأرض، فصرخ أميّة حين رأى ابنه يسقط مقطوع الساق. فقال له عبد الرحمن: انجُ بنفسك ولا نجاء بك، فو الله ما أغني عنك شيئا. لكنّهم انقضّوا عليهما بأسيافهم حتّى فرغوا منهما.** [123]

أبو حذيفة يريد أن يبارز أباه:

قبل بداية المعركة، خرج شيبة وعتبة والوليد وهم أبناء عبد مناف قائلين: هل من مبارز؟ فهمّ أبو حذيفة بالخروج ليبارز أباه عتبة، لكنّ محمّدا منعه. فقالت هند بنت عتبة [هي أخته وزوجة أبي سفيان و أمّ معاوية بن أبي سفيان]:

الأحول الأثعل المذموم طائره ** أبو حذيفة شر الناس في الديــن

أما شكرت أبا ربّاك من صغر ** حتى شببت شبابا غير محجون

فخرج إليهم: حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث [و هم أيضا من أبناء عبد مناف] ثمّ حين انتهت المعركة وأمر محمّد برمي الجثث في البئر، أخذوا يجرّون عتبة من رجليه ليلقوه في البئر، فنظر محمّد إلى وجه أبي حذيفة [ابن عتبة] فوجده كئيبا، فقال له محمّد: يا أبا حذيفة، لعلّك قد

---

[122] ابن كثير/البداية و النهاية/ ج3 / ص 110

[123] سيرة ابن هشام / ص 431

دخلك من شأن أبيك شيء؟ لكنّ أبا حذيفة قال فيما معناه أنّه كان يرجو أن يدخل أبوه في الإسلام. [124]

الاختلاف حول الغنائم:

حين جمع محمّد الغنائم قال **الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه والله لولا نحن ما أصبتموه لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله، والله ما أنتم بأحق به منا، والله لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله تعالى أكتافه ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ولكنا خفنا على رسول الله كرة العدو فقمنا دونه فما أنتم بأحق به منا** [125] لكنّ محمّدا أخذ كلّ الغنائم وقام بقسمتها بينهم بالتساوي. وأثناء العودة إلى المدينة وإثر وصوله إلى الروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بالنصر ومن معه من المسلمين فقال لهم سلمة بن سلامة: **ما الذي تهنئوننا به؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعقلة فنحرناها** [أي وجدنا شيوخا في هذه الحرب تشبه الخرفان فقمنا بذبحها] **فتبسم رسول الله ثم قال أي ابن أخي، أولئك الملأ.** [126] [أي نعم إنّ أشراف مكّة كذلك]

أبو لهب يموت من القهر:

و حين وصل الخبر إلى مكّة لم يصدّق أبو لهب أذنيه، و أصيب بقوحة في معدته من فرط الغيظ، ثمّ مات بعدها بأسبوع. [127]

وبعد انتهاء غزوة بدر، جاء وقت فداء الأسرى الذين كان عددهم ثلاثة وأربعين أسيرا، فكلّ من كان له أهل أغنياء يستطيعون فداءه تمّت مبادلته بالمال، أمّا الفقراء [خاصّة الذين لم يؤذوا محمّدا في مكّة] فقد تمّ إخلاء سبيلهم، و هناك من تمّ إطلاق سراحه مبادلة بشخص آخر كعمر بن أبي سفيان، حيث أنّ ابن أبي سفيان واسمه ‘‘عمر’’ كان من بين الأسرى، فقيل لأبي سفيان : **افْدِ عمرا ابنك، قال: أيجمع عليّ دمي ومالي ! قتلوا حنظلة وأفدي عمرا ! دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم.** [128] فأبو سفيان رفض فداء عمر ابنه قائلا: يقتلون ابني حنظلة ثمّ ادفع المال لأفدي ابني الآخر، فليقعد عندهم! لكنّه استطاع فداء ابنه بطريقة أخرى، إذ جاء أحد الأشخاص من المدينة معتمرا إلى مكّة [كانت قريش لا تتعرّض للحجّاج من قبل، لكنّ القيم تغيّرتْ] فعدا عليه أبو سفيان و حبسه، قائلا تعطونني ابني أعطيكم رجلكم، فذهب أهله الذين في المدينة وهم بنو عمرو بن عوف إلى محمّد وطلبوا منه أن يعطيهم ابن أبي سفيان ليسترجعوا صاحبهم فوافق محمّد وتبادلوا بالأسيرين [129] [مثلا أبدى محمّد هنا قراءة جيّدة للأحداث لأنّه لو رفض، فربّما سيثور ضدّه أهل المدينة حيث أنّه بدأ يعرّض -بحروبه- حياة الأهالي للخطر، وأغلب الظنّ أنّ محمّدا لم يكن يسكن المدينة مع أصحابه وإنّما خارجها وتحديدا عند مسجد قباء، و إلاّ ما الداعي إلى بنائه مسجدا هناك[مسجد قباء]حال وصوله إلى المدينة وقد كان

[124] سيرة ابن هشام / ص 436
[125] المصدر السابق / ص 437
[126] المصدر السابق
[127] المصدر السابق
[128] المصدر السابق / ص 442
[129] المصدر السابق

يستطيع بناءه مباشرة في وسطها؟ وبالتالي نفهم أنّ الذين اتّبعوه لم يكونوا كثيرين في البداية- كما أشرت- و التحقوا به في مقرّه عند مسجد قباء وحينما انتصر محمّد في الحروب وكبر جيشه استطاع حينها الدخول إلى المدينة وإجلاء ما تبقّى من اليهود وكتابة معاهدته التي سنذكرها لاحقا وبناء مسجده الذي يسمّى ''المسجد النبويّ'' لكنّ كتّاب السيرة جعلوه يبنيه مباشرة حال وصوله وهذا منطقيّ لأنّه من غير المعقول أن يقولوا لنا أنّ المدينة استقبلته و فرحت به، ثمّ يقولون من ناحية أخرى أنّه ظلّ خارجها لسنوات.

ومن الذين تمّت مبادلتهم أيضا '' العاص بن الربيع'' زوج زينب بنت محمّد، فأطلق محمّد سراحه بشرط أن يرسل إليه ابنته زينب من مكّة، وفعلا عاد العاص وأرسل زينب، فبدأت تتجهّز للخروج فجاءتها هند زوجة أبي سفيان حيث تروي زينب فتقول: : **بينا أنا أتجهز بمكة للحوق بأبي لقيتني هند بنت عتبة، فقالت : يا بنت محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟ فقلت: ما أردت ذلك** [زينب أنكرت لأنّها بطبيعة الحال خائفة من هند التي قتل محمّد أباها وأخاها وعمّها] **فقالت: أي ابنة عمي، لا تفعلي، إن كانت لك حاجة بمتاع ممّا يرفق بك في سفرك ، أو بمال تتبلّغين به إلى أبيك، فإنّ عندي حاجتك، فلا تظطنّي منّي** [أي لا تشكّي فأنا صادقة ولست أستدرجك في الكلام] **فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال. فقالت :** [أي زينب] **والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل** [أي أنّ هندا كانت فعلا صادقة و تريد مساعدة زينب في الخروج] **ولكني خفتها، فأنكرت أن أكون أريد ذلك، وتجهزّتُ** [130] أليست هذه رواية غريبة وغير منطقيّة تماما؟ هند التي أكلت كبد حمزة نيّئا - كما سنرى- من فرط غلّها على محمّد تصبح وهكذا فجأة مسالمة وتساعد بنت عدوّها على السفر! رغم أنّها فرصتها في التشفّي من بنت محمّد ولن يتدخّل أحد من مكّة لمنعها بعد الذي حدث في بدر. بل لنستمع لهذه الرواية: **حين خرجت زينب من مكّة لحق بها رجال من قريش ، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طُوى فكان أول من سبق إليها هبَّار بن الأسود فروّعها بالرمح وهي في هودجها، وكانت المرأة حاملا - فيما يزعمون - فلما ريعت طرحت ذا بطنها** [أي أجهضت وليدها] **وبرك حموها كنانة، ونثر كنانته، ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما، فتكركر الناس عنه.** [131]

فالقوم في مكّة يبحثون عن الثأر بل أنّ هندا قامت بهجاء من اعتدى على زينب أصلا: **ولمّا انصرف الذين خرجوا إلى زينب لقيتهم هند بنت عتبة، فقالت لهم : أفي السلم أعيار جفاء وغلظة * وفي الحرب أشباه النساء العواركِ ؟** [132] و تعني أنتم في السلم تعتدون على النساء بينما في الحرب [أي غزوة بدر] تشبهون النساء العوارك (ومعنى امرأة عارك: امرأة حائض.) كيف تدافع هند عن زينب؟ هذا يذلكّرني بقصّة أخرى عجيبة أيضا يرويها البخاري: **إنّ عليّا خطب بنت أبي جهل فسمعت بذلك فاطمة فأتت رسول الله فقالت يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك وهذا عليّ ناكح بنت أبي جهل فقام رسول الله فسمعته حين تشهد يقول أما بعد أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدّثني وصدقني وإنّ فاطمة بضعة مني وإني أكره أن يسوءها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدوّ الله عند رجل واحد، فترك عليّ الخطبة** [133]

---

[130] المصدر السابق
[131] المصدر السابق
[132] المصدر السابق
[133] صحيح البخاري/كتاب فضائل الصحابة، صحيح مسلم/كتاب الفضائل، الترمذي/كتاب المناقب، و غيرهم

عليّ يريد الزواج من بنت أبي جهل على فاطمة حتّى أنّها اشتكت لأبيها وطبعا رفض محمّد وخيّره بين فاطمة وبين بنت أبي جهل. وهذا يشير إلى أنّ العلاقات بين القبائل كانت معقّدة وتحكمها اعتبارات كثيرة وليس فقط - كما تشير السيرة- جانب الكفّار و جانب المسلمين. ومن غير المنطقيّ أن تساعد هند زينب على الخروج وأرجّح أنّ هذه القصّة تمّ اختلاقها منذ خلافة معاوية [هند هي أمّ معاوية بن أبي سفيان] ثمّ تواترت وانتشرت فصارت حقيقة ودخلت السيرة والسؤال هو لماذا لم يحذفها المراقب العبّاسيّ؟
بغضّ النّظر عن الفائدة المعنويّة والماديّة (الغنائم) التي تحصّل عليها المسلمون في غزوة بدر وتحقيقهم اكتفاءً ذاتيّا وقتيّا من حيث السلاح والمؤونة والمعونة فقد استطاع محمّد تحقيق انتصار استراتيجيّ مهمّ فتح أمامه آفاق أخرى للتحرّك، وينقسم هذا الانتصار إلى محورين أساسيّين:

1 -تخلّصَ من جانب كبير من الطبقة المفكّرة والتي كانت تملك الحجّة والمنطق في معارضته، مثل أبي الحكم (أبو جهل) والنضر بن الحارث وأميّة بن خلف وأبي لهب.
2 -الحصول على شهرة عسكريّة (نسريّة) عند القبائل العربيّة الأخرى التي سينضمّ بعضها تحت لوائه، إمّا طلبا للغنيمة وإمّا درءا لمهاجمته إيّاهم.

ثمّ أرسل زيد بن حارثة ناحية ''نجد'' ليغير على قافلة يقودها أبو سفيان، إذ غيّرت قريش طريق قافلتها فصارت تمرّ من ناحية الشرق قرب العراق بما أنّ محمّدا قاعد لهم بالمرصاد في الطريق الأخرى، وقد تعلّموا ممّا حدث في بدر، وفي القافلة أبو سفيان بن حرب، ومعه فضة كثيرة، وهي عظم تجارتهم، واستأجروا رجلا من بني بكر بن وائل، يقال له : فرات بن حيان يدلهم في ذلك على الطريق [134] واستطاع زيد أن يحصل على القافلة بغنائمها و يعود بها إلى المدينة.

[134] سيرة ابن هشام / ص 515

حُبّب إليّ من دنياكم النساء

بعد عودة النبيّ من غزوة بدر وجد أنّ ابنته رقيّة قد توفّيت وقام زوجها عثمان بن عفّان بدفنها وفي السنة التي تفصل غزوة بدر عن غزوة أحد، استولى زيد بن حارثة على قافلة لقريش [ذكرناها أعلاه، وبعض الروايات تقول أنّ القيمة الإجماليّة للقافلة كانت مائة ألف درهم] فتزوّج النبيّ من حفصة بنت عمر وزوّج ابنته فاطمة لعليّ (لاحظوا أنّه لم يتزوّج إلى الآن إلاّ من أرملتين كبيرتين في السنّ و طفلة صغيرة) لكن بعد زواجه من حفصة التي توفّي زوجها خنيس بن حذافة، ستأخذ حياته الجنسيّة منعرجا آخر، فسيكثر من الزواج بالنساء ويتجاوز الرقم المحدّد في القرآن وسيتّخذ الإماء والسراري، وهو يعرف شغفه وحبّه للنساء إذ يقول : **حُبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب**... [135] هذا دون اللاتي وهبن أنفسهنّ له عن طيب خاطر، ودون اللاتي رفضن الزواج به كصفيّة بنت شامة حيث يروي ابن عبّاس قائلا : **خطب النبي، صفية بنت بشامة بن نضلة العنبري، وكان أصابها سباء**[أي سباها في إحدى غزواته] **فخيّرها رسول الله فقال: إن شئت أنا وإن شئت زوجك. فقالت: بل زوجي. فأرسلها** [136] وقد يتراجع النبيّ أحيانا بعد أن يخطب إحدى النساء حين يكتشف أنّها ليست جميلة أو كبيرة في السنّ كضباعة بنت عامر حيث يروي ابن عبّاس : **كانت ضباعة بنت عامر عند هوذة بن علي الحنفي فهلك عنها فورثته مالا كثيرا فتزوجها عبد الله بن جدعان التيمي وكان لا يولد له، فسألته الطلاق فطلقها فتزوجها هشام بن المغيرة فولدت له سلمة، فكان من خيار المسلمين، فتوفي عنها هشام. وكانت من أجمل نساء العرب وأعظمه خلقا، وكانت إذا جلست أخذت من الأرض شيئا كثيرا، وكان يغطى جسدها بشعرها فذُكر جمالها عند النبي، فخطبها إلى ابنها سلمة بن هشام بن المغيرة فقال: حتى استأمرها. وقيل للنبي، إنها قد كبرت. فأتاها ابنها فقال لها: إن النبي، خطبك إلي. فقالت: ما قلت له؟ قال: قلت حتى استأمرها. فقالت: وفي النبي، يستأمر؟ ارجع فزوجه. فرجع إلى النبي فسكت عنه** [137] سكت عنه النبيّ بعد أن قيل له أنّها صارت كبيرة في السنّ فتراجع في طلبه ، وحتّى لا نطيل سنذكر على عجالة أسماء زوجات النبيّ فقط دون سراريه وسباياه، أسماء نسائه وأعمارهنّ: [138]

1- **خديجة بنت خويلد** المولد: 68 ق.هـ/ 554م الزواج من النبي: 28 ق.هـ/ 594م

الوفاة: 3 ق.هـ/ 619م

عمرها عند زواج النبي بها: **40 سنة**

عمرها عند وفاة النبي: توفيت قبله

المدة التي عاشتها مع النبي: 25 سنة منها عشرة بعد البعثة

عمرها عند الوفاة: 65 سنة

---

[135] أخرجه أحمد في المسند والنسائي في الكبرى وصحّحه ابن حجر في الفتح

[136] ابن سعد/الطبقات الكبرى/ج5/ص154

[137] المصدر السابق

[138] موقع islamstory/أمّهات المؤمنين/29-07-2008

2- **سودة بنت زمعة** المولد: ؟ الزواج من النبي: 3 ق.هـ/ 619م

الوفاة: 54هـ/ 674م

عمرها عند زواج النبي بها: ؟

عمرها عند وفاة النبي: ؟

المدة التي عاشتها مع النبي: 14 سنة

عمرها عند الوفاة: ؟

3- **عائشة بنت أبي بكر** المولد: 7 ق.هـ/ 615م الزواج من النبي: 1 ق.هـ/ 621م

الوفاة: 58هـ/ 678م

عمرها عند زواج النبي بها: **6 عند العقد و9 عند البناء**

عمرها عند وفاة النبي: 18 سنة

المدة التي عاشتها مع النبي: 9 سنين

عمرها عند الوفاة: 65 سنة

4- **حفصة بنت عمر** المولد: 18 ق.هـ/ 604م الزواج من النبي: 3هـ/ 625م

الوفاة: 45 هـ / 665 م

عمرها عند زواج النبي بها: **21 سنة**

عمرها عند وفاة النبي: 29 سنة

المدة التي عاشتها مع النبي: 8 سنين

عمرها عند الوفاة: 63 سنة

5- **زينب بنت خزيمة** المولد: 26 ق.هـ/ 596م الزواج من النبي: 3 هـ/ 625م

الوفاة: 4هـ/ 625م

عمرها عند زواج النبي بها: **29 سنة**

عمرها عند وفاة النبي: توفّيت قبله

المدة التي عاشتها مع النبي: 8 أشهر و بعض الروايات تقول 3 أشهر

عمرها عند الوفاة: 30 سنة

6- **أمّ سلمة هند بنت أبي أميّة** المولد: 24 ق.هـ/ 598م الزواج من النبي: 4هـ/ 626م

الوفاة: 61هـ/ 680م

عمرها عند زواج النبي بها: **28 سنة**

عمرها عند وفاة النبي: 35 سنة

المدة التي عاشتها مع النبي: 7 سنين

عمرها عند الوفاة: 85 سنة

7- **زينب بنت جحش** المولد: 32 ق.هـ/ 590م الزواج من النبي: 5هـ/ 627م
الوفاة: 21هـ/ 642م
عمرها عند زواج النبي بها: **37 سنة**
عمرها عند وفاة النبي: 43 سنة
المدة التي عاشتها مع النبي: 6 سنوات
عمرها عند الوفاة: 53 سنة

8- **جويريّة بنت الحارث** المولد: 14 ق.هـ/ 608م الزواج من النبي: 5هـ/ 628م
الوفاة: 56هـ/ 676م
عمرها عند زواج النبي بها: **19 سنة**
عمرها عند وفاة النبي: 25 سنة
المدة التي عاشتها مع النبي: 6 سنين
عمرها عند الوفاة: 70 سنة

9-**صفيّة بنت حيي** المولد: 9 ق.هـ/ 613م الزواج من النبي: 7هـ/ 628م
الوفاة: 50هـ/ 670م
عمرها عند زواج النبي بها: **16 سنة**
عمرها عند وفلة النبي: 20 سنة
المدة التي عاشتها مع النبي: 4 سنوات
عمرها عند الوفاة: 59 سنة

10- **أمّ حبيبة بنت أبي سفيان** المولد: 25 ق.هـ/ 596م الزواج من النبي: 7هـ/ 628م
الوفاة: 44هـ/ 664م
عمرها عند زواج النبي بها: **32 سنة**
عمرها عند وفاة النبي: 36 سنة
المدة التي عاشتها مع النبي: 4 سنوات
عمرها عند الوفاة: 69 سنة

11- **ميمونة بنت الحارث** المولد: 29 ق.هـ/ 593م الزواج من النبي: 7هـ/ 629م
الوفاة: 51هـ/ 671م
عمرها عند زواج النبي بها: **36 سنة**
عمرها عند وفاة النبي: 40 سنة

المدة التي عاشتها مع النبي: 4 سنوات

عمرها عند الوفاة: 80 سنة

نلاحظ أنّه تزوّج قبل الهجرة بلمرأتين أمّا بعد الهجرة:

2هجري= امرأة واحدة

3 هجري= امرأتين

4 هجري= واحدة

5 هجري = امرأتين

7 هجري = ثلاث نساء

بدأت الزيجات المتعدّدة من 3 هجري ثمّ توقّفت 7 هجري. (الزيجات وليس السبايا) بدأت بحفصة [21 سنة] و انتهت بميمونة [36 سنة] و لم يتزوّج بامرأة أكبر منه سنّا إلاّ بخديجة وربّما أيضا سودة بنت زمعة، أمّا البقيّة فهنّ شابات في أوج عطائهنّ.

ماذا حدث في هذه الأربع سنوات؟ أترك الأمر للمتخصّصين في علم الجنس، مع ضرورة طرح كلّ المعطيات والمصالح والعلاقات القبليّة والسياسيّة وحتّى الجماليّة لأنّ الأمر - و حسب رأيي- أعقد من آراء أو انطباعات عابرة. قد يقول قائل: إنّ النبيّ و ببساطة يحبّ النساء والنكاح، هذا كلّ ما في الأمر، و لا ننسى أيضا السبايا والإماء. وطبعا هذا الأمر واضح وجليّ وإنّما نودّ تفسير الأحداث بطريقة علميّة تحيط بكلّ الظروف والدوافع وتفسير علاقة الجنس بالقيادة والسلطة.

ولم يأل الإخباريّون والرواة جهدا في أسطرة زيجاته وجعل النبيّ يمتلك قدرة جنسيّة سحريّة تتجاوز سنّه المتأخّرة وطاقاته البشريّة فنرى البخاري يقول: **عن قتادة عن أنس قال كان النبي يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة قلت لأنس وكان يطيقه؟ قال كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين** [139] فالنبيّ الذي تجاوز الستّين من العمر ليس يطوف على نسائه الإحدى عشرة فقط في ليلة واحدة بل وله أيضا قوّة ثلاثين رجلا في الجماع

[139] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج2/ص467

بداية الإجلاء

بدأ محمّد يضيق باليهود، [ربّما لأنّهم يتقوّلون عليه ويسخرون من كلّ هذه البدع الجديدة التي جعلها في النبوّة] فحدثت مشكلة بين امرأة عربيّة وصائغ يهوديّ من بني قينقاع، والقصّة هي **أنّ امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يُريدونها على كشف وجهها، فأبتْ** [أرجّح أنّ كتبة السيرة لا يروون الحادثة الحقيقيّة وإنّما يبرّرون، فآية الحجاب لم تنزل بعد ووجه المرأة مكشوف] **فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحتْ . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع .**[140]

هذه الحادثة جعلت محمّد يجمع بني قينقاع ويخطب فيهم قائلا: **يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنّي نبيّ مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم** . فأجابوه قائلين: **يا محمد، إنك ترى أنّا قومك ! لا يغرّنّك أنّك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب** [يقصدون شيوخ قريش في بدر] **فأصبت منهم فرصة، إنّا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس فقام محمّد بحصارهم لمدّة أسبوعين وفي الأخير استسلموا، فأمر بتصفيتهم وقتلهم جميعا** [141] وهنا يتدخّل عبد الله بن أبيّ بن سلول ليمنعه فقال : **يا محمد أحسنْ في مواليّ** [أي في حلفائي] **وكانوا حلفاء الخزرج، قال : فأبطأ عليه رسول الله** [أي أنّ النبيّ تجاهله] **فقال : يا محمد، أحسن في موالي، فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله** [أي أنّ ابن سلول أمسك محمّد من تحت درعه] **فقال له رسول الله : أرسلني** [أي أتركني] **وغضب رسول الله حتى رأوا لوجهه ظُللا، ثم قال : ويحك أرسلني، قال لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله : هم لك** [142]

فقام النبيّ فقط بإجلائهم - دون أموالهم طبعا- و تقاسم هو وأصحابه الغنيمة. وإذ بدأ يضيق باليهود فهو أيضا سيغيّر تشريعه الذي كان يهوديّا فيجعل صيام عاشوراء سنّة بعد أن كان فرضا لأنّه **حين قدم المدينة وجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء فقال لهم: ما هذا اليوم الذي تصومونه قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه من فرعون وأغرق فرعون وقومه فصامه موسى شكرًا فنحن نصومه. فقال رسول الله : فنحن أحق وأولى بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه.** [143] وتشريع النبيّ كان يهوديّا في البداية وليس مقام تفصيله هنا فقد

---

[140] سيرة ابن هشام/ص513

[141] **فأنزلهم فكتفوا واستعمل على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي فكلم ابن سلول فيهم رسول الله وألح عليه فقال حلوهم لعنهم الله ولعنه معهم وتركهم من القتل وأمر أن يجلوا من المدينة وتولى ذلك عبادة بن الصامت فلحقوا بأذرعات فما كان أقل بقاءهم بها وذكر ما تنفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلاحهم وسيأتي ذكرنا له وخمست أموالهم فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية الخمس وفض أربعة أخماس على أصحابه.**[ابن سيّد الناس/عيون الأثر في المغازي والسير/ج1/ ص 386]

[142] سيرة ابن هشام/ص514

[143] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج2/ص37

تناوله بالبحث أكثر من واحد [144] وربّما غيّر القبلة أيضا من بيت المقدس [حيث كان يتوجّه إليها اليهود بصلاتهم] إلى الكعبة في تلك السنة.

[144] Charles.C.Torrey/The Jewish Fondations of Islam/USA/1933; Joseph Bertuel/L'Islam ses veritables origines/N.E.Latines/Paris/1981; etc...

لقد قتلنا محمّدا

مرّت سنة على مرور غزوة بدر حتّى جاء وقت غزوة أحد. ولنا أن نتساءل: لماذا انتظرت قريش كلّ هذه المدّة؟ و العديد من أشرافها قتلوا، و أموالهم نهبت، فكيف لم يعدّوا جيشا سريعا و يخرجوا إلى المسلمين؟ لماذا انتظروا سنة كاملة؟ قلنا منذ بداية هذه السلسلة أنّ قريشا كان توجّهها سلميّا فلم تقتل النبيّ حين كان بينها، فهي لا تقتل من أجل الدين، وأغلبهم تجّار يحرّكهم الدرهم والدينار، والمصلحة الآنيّة الماديّة هي المسيطرة على تفكيرهم لذلك حين قطع محمّد الطرق الذاهبة إلى الشام عبر المدينة، أخذوا الطرق الغربيّة ناحية العراق كأن لم يحدث شيء.
و رغم ذلك فقد هاجم محمّد أيضا هذه القافلة في سريّة زيد كما أشرنا وغنم المسلمون منها مائة ألف درهم، و هنا تحديدا تحرّكت قريش، فمحمّد يهدّد فعلا الاقتصاد المكّي وينوي تحطيمه تماما بقطعه لكلّ الطرق المؤدّية إلى الشمال.
لا بدّ أنّ هناك - وربّما منهم أبو سفيان- من طالب بمهاجمة محمّد منذ البداية، أي مباشرة بعد غزوة بدر ولكنّهم على ما يبدو لم يلقوا آذانا صاغية، حيث أنّ الملأ [أشراف قريش] يجتمعون ويقرّرون الحرب من عدمها [تلك هي الديمقراطيّة] وكما قلنا فهم تجّار يميلون إلى الجانب السلميّ، ولكنّ بما أنّ تجارتهم أصبحت فعلا مهدّدة فقد وجدت الأصوات المطالبة بالحرب آذانا صاغية عندهم. [145]
لكنّ الأمور ليست كبدر، حيث اجتمع بعض الشيوخ للذهاب إلى الحرب وعيونهم على سوق بدر للمشاركة فيه، بل هذا إعداد حقيقيّ للحرب، فخرجت قريش بحدّها وجدّها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة وفيهم العديد من المقاتلين الأشدّاء، و حملوا معهم نساءهم كي لا يفرّوا.[146] وخرج معهم أيضا بعض من بني ثقيف وخمسون رجلا من الأنصار بقيادة أبي عامر الراهب [147]
وما الوضع في المدينة؟
لم يدر محمّد ماذا يفعل. هل يخرج إليهم أم لا، ومن أين له القوّة على ردّ هذا الجيش القادم نحوه؟ فهو كما أشرنا في البداية لا يحكم كلّ المدينة وإنّما مجموعة معه قرب قباء وأغلب أهل المدينة ليسوا معه وإنّما على الحياد [148]
اختلف أصحابه في هذا الأمر، قسم يرى أنّه من الحكمة عدم الخروج والبقاء في المدينة فإن هاجمتهم قريش فسيكون العديد من المتساكنين مجبرين على القتال للدفاع عن أرضهم، ومن أصحاب هذا الرأي مثلا: محمّد نفسه وعبد الله بن أبيّ بن سلول [لنا أن نتساءل لماذا يشير ابن سلول على محمّد بهذا الرأي الصائب] و قسم يرى ضرورة الخروج [ربّما لأنّهم يعتقدون أنّ الله سيكون معهم أيضا كما في بدر، ففي الأخير قد أثبت محمّد فعلا لهم أنّه نبيّ وأنّ الملائكة

[145] René Marchand/Mahomet/op.cit

[146] سيرة ابن هشام / ص 522
[147] مغازي الواقدي/ج1/ص205
[148] راجع صفحتيْ 32 و 61.

تحارب معه و الدليل غزوة بدر] ويبدو أنّهم أصرّوا و بدؤوا يلحّون على القتال، **فلم يزل الناس برسول الله الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله بيته ، فلبس لأْمته** [أي لبس لباس الحرب] **وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة**. [149] كيف يخطئ محمّد هذا الخطأ؟ كيف لم يحسبها؟ أم أنّه كان متيقّنا أنّ الله لن يخذله؟ أم هي سكرة المحارب المنتصر في بدر؟ على كلّ حال فقد تجهّز الجميع واتّجهوا نحو جبل أحد، و في الطريق تراجع عبد الله بن أبيّ بن سلول فتراجع معه ثلث الجيش [لاحظوا مكانته في المدينة فهو الوحيد الذي أمسك محمّد من ‘‘خناقه‘‘ كما أشرنا أعلاه في أمر بني قينقاع، وهو الآن يتراجع فيتراجع معه الثلث] قائلا: **أطاعهم وعصاني** [أي أنّ محمّدا لم يستمع لرأيي حين أشرت عليه بالبقاء في المدينة] **ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس؟ فرجع بمن اتبعه من قومه** [150] حينئذ بدأ بعض المسلمين يقدّرون خطورة الموقف فقالوا لمحمّد: **يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟** [لكنّ محمّدا يعلم أنّ اليهود لن تكون بجانبه خاصّة أنّه لم يمض وقت طويل على إجلائه بني قينقاع وتقسيم أموالهم] فأجاب : **لا حاجة لنا فيهم** [151] وفي طريقهم إلى جبل أحد أرادوا أن يعبروا مكانا آمنا لا يكون فيه بعض قريش، فدخلوا في أرض لشيخ ضرير اسمه ابن قيظيّ، **فلمّا سمع حِسّ رسول الله ومن معه من المسلمين قام يحثي في وجوههم التراب ويقول : إن كنت رسول الله فإني لا أحلّ لك أن تدخل حائطي** .[أي لا أحلّ لك أن تعبر من أرضي] **وأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال : والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك. فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله :لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر** [152] ولكن قام سعد بن زيد بضرب الشيخ بالقوس في رأسه فشجّه، يقول ابن هشام: [ضربه] قبل نهي رسول الله، وكما نرى فابن هشام يريد تبرير هذه الفعلة، أي ضرب شيخ ضرير، ولكنّ محمّدا لم ينههم عن ضربه بل فقط عن قتله. فقال لا تقتلوه، و كان يستطيع أن يقول مثلا: لا تلمسوه، فيكون أيضا نهيا عن الضرب. وربّما لم يكن محمّد في موقف يخوّل له اختيار كلماته بعناية فهو مقبل على حرب.

أمّا قريش فقد كانت منظّمة [خاصّة أنّ المحاربين المعتادين على القتال جاءوا فيها] فكان خالد بن الوليد على الجناح الأيمن من الجيش، وعكرمة بن أبي جهل على الجناح الأيسر، وجعلوا مائة جواد في الخلف كاحتياط. و هذا يدلّ على قدرتهم العسكريّة المتفوّقة تماما على المسلمين فأن يجعلوا مائة فرس موجودة بلا فارس، للاحتياط، فلنا أن نتخيّل عدد الجياد المشاركة فعليّا وللجياد دور حاسم وقاطع في ترجيح كفّة المعارك القديمة حيث تخترق الصفوف وتبعثر المحاربين. وعادة ما يكون دورها محوريّا في النصر أو الهزيمة. يقول ابن اسحاق: **وتعبّأت قريش ، وهم ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم مئتا فرس قد جنبوها** [جنبوها تعني أنّهم جعلوها في جنوب الجيش فلا يستعملونها إلاّ إذا تعبت الجياد المقاتلة في المعركة أو قتلت] **فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل** [153] بينما جيش محمّد لا

---

[149] المصدر السابق
[150] المصدر السابق
[151] المصدر السابق
[152] المصدر السابق/ ص 524
[153] المصدر السابق

يتجاوز سبعمائة شخصا، و عدد الجياد لا يتجاوز العشرة. واختار محمّد أن يجعل ظهره إلى جبل أحد حيث يكون الجيش مقابلا للمدينة، و ترك على هضبة قريبة منه ثلاثين راميا بالنبال. وقد أحسن النبيّ اختيار هذا المكان حيث يكون قد حمى ظهر الجيش من الخلف كما أنّ الهضاب والمرتفعات المنتشرة في المنطقة تعيق حركة خيول قريش.
تقول كلّ كتب السيرة أنّ المسلمين انتصروا في بداية المعركة و لكنّ الرماة الذين على الجبل تركوا أماكنهم للحصول على الغنائم فالتفّ خالد بن الوليد و معه مائتا فارس وهاجموا المسلمين من الخلف. وهذا عجيب، حيث نفهم أنّ خالد بن الوليد لم يكن يستطيع التحرّك بسبب وجود الرماة، فأين رماة قريش إذن؟
لقد كانوا مائة شخص: **جعلوا على الخيل صفوان بن أمية وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة وكانوا مائة رام وفيهم سبعمائة دارع** [154] فلماذا لم يتكفّل رماة قريش الأكثر عددا بمهاجمة رماة المسلمين بينما يعبر خالد بن الوليد بخيوله إلى المعركة؟ وماذا عن قائد الجناح الأيسر عكرمة ابن أبي جهل وخيوله؟ ماذا كان يفعل؟ وماذا عن المواجهة المباشرة بين المشاة من المسلمين وقريش؟ ما هي النتيجة حين يلتقي 650 محارب مع 2500 محارب؟
نحن لسنا في بدر الآن حين جاءت بعض الشيوخ من قريش لتحارب وعينها على سوق بدر للتجارة بل نحن أمام جيش منظّم لقريش يحتوي على محاربين مستعدّين للقتال.
أرجّح أنّ المعركة كانت في صالح قريش منذ البداية وتمّ اختلاق حكاية ترك الرماة لمواقعهم كطريقة لحفظ ماء الوجه وأنّهم لو نفّذوا ما قال لهم النبيّ لانتصر المسلمون في المعركة، فالخطأ ليس من محمّد وإنّما من الرماة، والله لم يتخلّ عنه فهو نبيّه ولكن بما أنّهم لم ينفّذوا أوامر نبيّهم فقد أراد الله أن يعطيهم درسا، لهم وللمؤمنين جميعا، ليتعلّموا طاعة نبيّهم، والدليل أنّه نصره في البداية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو يوم بلاء وامتحان ليعلم الله المنافقين منهم والمؤمنين. ولكن منطقيّا - وخارج التبريرات الدينيّة - فإنّنا نرجّح أنّ المعركة كانت في صالح قريش منذ البداية.

مشاهد من المعركة:

- مقتل حمزة:
قبل خروج قريش من مكّة، **دعا جبير بن مطعم غلامًا له حبشيًا يقال له : وحشيّ، يقذف بحربة له قذف الحبشة قلّما يخطئ بها، فقال له : أخرج مع الناس فإنْ أنت قتلت حمزة عمّ محمد بعمّي طعيمة بن عدي، فأنت عتيق** [155] ويروي وحشيّ كيف قتل حمزة قائلا: **فلمّا التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصّره حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يهدّ الناس بسيفه هدّا ما يقوم له شيء، فوالله إنّي لأتهيّأ له، أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني، إذ تقدّمني إليه سباع بن عبد العزى، فلمّا رآه حمزة قال له :هلمّ إليّ يا ابن مقطعة البظور.**[أي يا ابن المرأة التي تقوم بالختان في مكّة، أظنّها كانت تقوم بختان النساء]

[154] عيون الأثر في المغازي والسير/ابن سيّد الناس/ج1/ ص 412، و راجع المنتظم في التاريخ/ابن الجوزي/ج3/ص180
[155] سيرة ابن هشام/ ص 527

فضربه ضربة كأنّ ما أخطأ رأسه [أي قطع رأسه] **وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه، فوقعت في ثُنّته** [الثنّة هي ما بين العانة وأسفل البطن] **حتى خرجتْ** [الحربة] **من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي** [أيّ أنّ حمزة تحامل على نفسه وأراد أن يتوجّه إلى وحشيّ] **فغلب** [لكنّه لم يستطع وسقط] **وتركته وإيّاها حتى مات، ثمّ أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر، فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق .** [156] وحمزة كان رجلا شديدا يحسب حسابه العديد ومنهم النبيّ نفسه، حيث يروي البخاري في صحيحه أنّ حمزة كان يسكر في المدينة مع بعض الأنصار في مجلس شرب وغناء، ولنستمع إلى القصّة التي يرويها عليّ بن أبي طالب : (...) **أقبلتُ فإذا شارفاي** [الشارف هو البعير الهرم] **قد جبّت أسنمتهما وبقرت خواصرهما وأخذ من أكبادهما** [أي وجد بعيريه ممزّقين] **فلم أملك عيني حين رأيت ذلك المنظر فقلت من فعل هذا قالوا فعله حمزة وهو في هذا البيت في شرب من الأنصار غنّته قينة وأصحابه فقالت في غنائها: ألا يا حمز للشرف النواء، فوثب حمزة إلى السيف فاجتبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما** [أي أنّ حمزة حين سمع المغنّية تمدحه مزّق البعيرين كتأكيد لكلامها] **قال عليٌّ فانطلقت حتى أدخل على رسول الله وعنده زيد بن حارثة، فعرف رسول الله في وجهي الذي لقيت، فقال: ما لك؟ قلت: يا رسول الله عدا حمزة على ناقتيّ فاجتبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما وها هو ذا في بيت معه شربٌ. فدعا رسول الله بردائه فارتدى ثم انطلق يمشي واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة فاستأذن فأذن له فإذا هم شربٌ** [يسكرون] **فطفق رسول الله يلوم حمزة فيما فعل** [يلومه على البعيرين وليس الخمر] **فإذا حمزة ثمل محمرّة عيناه فنظر إلى رسول الله فصعّد النظر إلى ركبته ثم صعّد النظر إلى سرته ثم صعّد النظر إلى وجهه ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبي؟ فعرف رسول الله أنه ثملٌ فنكص رسول الله على عقبيه القهقرى وخرج وخرجنا معه** [157]

-الفوضى:

واختلط المسلمون فصاروا يقتتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضاً لما يشعرون به من العجلة والدهش[أي أصبحوا لا يرون شيئا من كثرة الفوضى فصاروا يضربون بعضهم بعضا] **ونادى المشركون بشعارهم بالعزى بالهبل. فأوجعوا في المسلمين قتلاً ذريعاً وولّى من ولّى منهم يومئذ قال موسى بن عقبة ولمّا فقد رسول الله** [محمّد اختفى فجأة] **قال رجل منهم أنّ رسول الله قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم فإنهم داخلوا البيوت** [158] [أي أنّ قريش تنوي مهاجمة بيوت المدينة أيضا]

---

[156] المصدر السابق

[157] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين /ج1/ص74، وهناك من يضيف أنّ الخمر لم يكن قد حُرّم يو مئذ، لكنّا نعرف أنّ الخمر حُرّمت في الفترة المكّيّة وقبل الهجرة، ونلاحظ أنّ النبيّ لم يُقم حدّ شارب الخمر على حمزة، وذلك لرهبته من حمزة من ناحية ولأنّ النبيّ لم يقم حدّ الخمر على أحد من ناحية أخرى، وإنّما –على الراجح - حدّ الخمر تشريع متأخّر وضعه الفقهاء ح يث نقرأ هذا التناقض في صحيح البخاري : (**عن أنس أن النبي أتي برجل قد شرب الخمر فجلده بجريد نحو أربعين**) فها هنا أقام النبيّ الحدّ على شارب الخمر، ونقرأ أيضا في صحيح البخاري : (**عن علي رضي الله عنه قال ما كنت لأقيم حداً على أحدٍ فيموت فأجد في نفسي منه شيئاً إلا صاحب الخمر فإنه لو مات وديته وذلك أن رسول الله لم يسنّه**) لم يسنّه أي لم يشرّعه ويجعله سنّة . وقد كان المسلمون أو بعضهم يشربون الخمر فيروي البخاري : **عن جابر، قال اصطبح الخمر يوم أحد ناس ثم قتلوا شهداء** [أي سهروا يشربون الخمر ثمّ في الصباح قاتلوا في معركة أحد وماتوا شهداء]

[158] عيون الأثر في المغازي و السير/ابن سيّد الناس/ج1/ص417

-أين النبيّ؟

لمّا اشتدّ القتال يوم أحد، جلس النبيّ تحت راية الأنصار[159] لكن سرعان ما اختلطت الأمور وبدأت قريش تخترق الصفوف حتّى أنّه لم يبق مع محمّد إلاّ رجل أو رجلان يقومان بحمايته[160] فقال محمّد : **من رجل يشتري لنا نفسه؟**[أي هل هناك رجل يضحّي بحياته وله الجنّة] **فقام زياد بن السكن فقاتلوا دون رسول الله رجلاً رجلاً يقتلون دونه حتى كان آخرهم زياداً وعمارة فقاتل حتى أثبته الجراحة ثم فاءت فيئة من المسلمين**[أي جماعة من المسلمين آخرين جاؤوا] فأجهضوهم عنه [أي فرّقوا قريش وأبعدوها عن محمّد] **فقال رسول الله :أدنوه مني** [أي عمارة وكان يحتضر] **فأدنوه منه، فوسده قدمه فمات وخدّه على قدم رسول الله** [161] لكنّ محاربي قريش لم يتراجعوا **فـاقترب عتبة بن أبي وقاص ورمى رسول الله يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى وأن عبد الله شهاب الزهري شجّه في وجهه وأنّ ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من المغفر في وجنته ووقع رسول الله في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون** [162] فبدأ الدم يسيل على وجه محمّد وهو يمسحه ويقول: **كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيّهم وهو يدعوهم إلى ربّهم** [163] و بدأت النبال تنهال عليه، فارتمى أبو دجانة على محمّد ليحميه فاخترقت كلّ النبال ظهره، و كان بجانب النبيّ سعد ابن أبي وقّاص فبدأ النبيّ يناوله السهام ويقول له: **ارم** [أي اضرب] **فداك أبي و أمّي، يقول سعد: حتّى أنّه يناولني السهم بلا نصل ويقول لي ارم به.** [164] أي اضربْ بأيّ شيء أمامك فالمهمّ أن تضرب وصاح أحدهم في ساحة المعركة إنّ محمّدا قد قتل، فازداد المسلمون تفرّقا وتشتّتا وهم يبحثون عن محمّد ولا يجدونه، وبدأت المعركة في الانتهاء [قريش صدّقت أنّ محمّدا قتل] يقول كعب بن مالك: **فكنت أنا أولّ من عرف النبي، عرفت عينيه تحت المغفر فناديت بصوتي الأعلى هذا رسول الله فأشار إليّ أن اسكتْ** [165] أي قال له محمّد : أسكتْ وذلك حتى لا تستمع إليه قريش فيعودون إليه فطالبه بعدم إفشاء أمر بقائه حيّا، لكنّ الصحابة سمعوا ما قال فالتفّوا حول محمّد وصعدوا به إلى الجبل. وحمل عليّ بعض الماء وأخذ يغسل الدم عن وجه محمّد الذي يقول: **اشتد غضب الله على من دمى وجه رسوله** [166] [نستطيع أن نلمح الخطوط العامّة التي ترسم الشخصيّة المحمّديّة، ففي حال الضعف حين سقط وانهالت عليه قريش بالنبال قال: كيف يفلح قوم......وهو يدعوهم إلى ربّهم، نلاحظ ارتكازه على النبوّة والدعوة في هذه الحالة، ولكنّه حين صعد إلى الجبل مع أصحابه وابتعد عن الخطر قال : اشتدّ

---

[159] سيرة ابن هشام/ص529

[160] صحيح البخاري/كتاب المغازي/غزوة أحد، يشير ابن سيّد الناس إلى أنّ البخاري روى اثني عشر رجلا (لم أجد الحديث)

[161] سيرة ابن هشام/ص534

[162] عيون الأثر في المغازي و السير/ج1/ ص 418

[163] المصدر السابق، وراجع صحيح البخاري

[164] المصدر السابق، وراجع صحيح البخاري

[165] الطبقات الكبرى/ابن سعد/ج2/ص46، يرويها ابن هشام عن كعب فيقول : **فأشار إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن أنصت.** و لا أدري لماذا يقول أنصت؟ بل الصحيح "اسكت" كما رواها ابن سعد, حتى لا تسمع ذلك قريش فتعود إليه.

[166] عيون الأثر في المغازي و السير/ج1/ ص 421

غضب الله...، حيث ارتكز هنا على القوّة و الغضب، و يمكننا أن نقارب هذا مع الفترة المكّيّة والمدنيّة:
حين كان ضعيفا=في مكّة=الدعوة و النبوّة
حين كان قويّا=في المدينة=الغضب و القوّة
ولكلّ مقام مقال] وقامت هند **في نسوة معها يمثّلن بالقتلى يجدعن الأنوف والأذان حتى اتّخذت هند من ذلك خدمًا وقلائد وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.**[167] ثمّ عادت قريش إلى مكّة (!)
لماذا رجعت قريش إلى مكّة؟ ألم تضيّع فرصة ذهبيّة للتخلّص من محمّد وإعادة طرقها التجاريّة المعتادة من قبل دون أن تتعرّض للإغارة؟ وهذا الأمر نفسه سيتكرّر فيما بعد في غزوة الأحزاب، حيث تكون لقريش القدرة على إعادة الأمور كما كانت من قبل ولكنّها لا تفعل شيئا وهذا غريب، ممّا يدفعنا أن نتساءل إن كان رواة السيرة يدركون فعلا ما يكتبون.
طبعا هم يضيفون و يمحون ما شاءوا، لكنّهم يحافظون دائما على بناء منطقيّ للأحداث [حتّى وإن كان ضعيفا أحيانا] بيد أنّهم في غزوة أحد والأحزاب لا يستندون إلى أيّ منطق، فما معنى أنّهم لم يريدوا إنهاء أمر محمّد لأنّ أصحابه قد تستميت في الدفاع عنه؟ ألم يدافعوا عنه منذ البداية؟ ثمّ لقد تفرّق العديد من المسلمين وهرب منهم من هرب ولم يبق الكثير مع النبيّ ومهما استماتوا فقريش متفوّقة عددا و عتادا، كما أنّ مصالحهم الاقتصادية في الميزان وعليهم إعادة تأمين الطرق إلى الشام، فكيف يؤمّنونها بوجود محمّد؟ أرى تفسيرا منطقيّا واحدا وهو أنّ قريش اعتقدت فعلا أنّ محمّدا قد قتل، فلم يعد هناك داع لبقائها ودخول المدينة وفتح جبهة حرب مع الأنصار لا تدري كيف تنتهي وقد تدوم لسنوات، كما أنّ قريش محتاجة لإبقاء العلاقات مع المدينة التي تمرّ منها قوافلها. وسنجمع المعطيات التي تدعّم رأينا في سبب عودة قريش واعتقادها أنّ محمّدا قتل ، وسأضع سطرا تحت الكلمات المفاتيح، وبين قوسين الكلمات التي أراها إضافة من الرواة:
-صحيح البخاري:
وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: لا تجيبوه فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثمّ قال: إنّ هؤلاء قتلوا، فلوا كانوا أحياء لأجابوا، (فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدوَ الله، أبقى الله عليك ما يحزنك.) فقال أبو سفيان: أعلُ هبل. فقال النبي : أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا الله أعلى وأجل [168]
-ابن كثير، البداية و النهاية:
فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد، أفي القوم محمد، أفي القوم محمد؟ ثلاثا فنهاهم رسول الله أن يجيبوه. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة، أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب، أفي القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وقد

[167] ابن كثير/البداية والنهاية/ج4/ص42
[168] البخاري/كتاب المغازي/غزوة أحد

كفيتموهم (فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك [169]

-السيوطي، الدرّ المنثور:

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: نادى مناد يوم أحد حين هزم أصحاب محمد: إنّ محمدا قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول فأنزل الله وما محمد إلا رسول ,الآية وأخرج ابن جرير عن السدي قال: فشا في الناس يوم أحد أنّ رسول الله قد قتل فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبيّ فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان يا قوم إنّ محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلونكم قال أنس بن النضر: يا قوم إنّ كان محمد قد قتل فإنّ رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء فشد بسيفه فقاتل حتى قتل فأنزل الله وما محمد إلا رسول، الآية

انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم ؟ قالوا: قتل محمد رسول الله قال: فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله واستقبل القوم فقاتل حتى قتل [170]

-ابن كثير، البداية و النهاية:

وذكر قتادة أن رسول الله لمّا وقع لشقّه أغمى عليه، فمرّ به سالم مولى أبي حذيفة، فأجلسه ومسح الدم عن وجهه فأفاق، وانطلق رسول الله يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رأوه وضع رجل سهما في قوسه يرميه فقال: «أنا رسول الله» ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله ، وفرح رسول الله حين رأى أنّ في أصحابه من يمتنع به. [171]

-ابن سيّد الناس، عيون الأثر في المغازي و السير:

[حين جاء أبو سفيان و قال أعل هبل، الخ..] **فلمّا أجاب عمر أبا سفيان, قال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمّدا؟ قال عمر: اللهمّ لا وإنّه يسمع كلامك الآن، قال [أبو سفيان] أنت (أصدق) عندي من ابن قمئة و قوله إنّي قتلت محمّدا.** [172]

-ابن سعد، الطبقات الكبرى:

فكنت أنا أوّل من عرف النبي صلى الله عليه وسلم عرفت عينيه تحت المغفر فناديت بصوتي لأعلى هذا رسول الله فأشار إليّ أن اسكتْ [173]

إنّ إشارة محمّد إلى كعب بن مالك بالسكوت وعدم إفشاء أمر بقائه حيّا، و كذلك نهي النبيّ أصحابه أن يجيبوا أبا سفيان حين سألهم عن قتل محمّد، وتفرّق المسلمين وهربهم، كلّ هذا يدلّ

---

[169] ابن كثير/ البداية و النهاية/ج4/ص28

[170] السيوطي/ الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور /تفسير آل عمران/آية144-145

[171] ابن كثير/ البداية و النهاية/ج4/ص27

[172] عيون الأثر في المغازي و السير/ج1/ ص 425

[173] الطبقات الكبرى/ابن سعد/ج2/ص46

على أنّ قريشا اعتقدت فعلا أنّ محمّدا قد قتل، وهذا هو السبب المنطقيّ الوحيد الذي يجعلها تنهي الحرب وتعود إلى مكّة.

بعد انتهاء المعركة وخروج قريش متّجهين إلى المدينة، صلّى محمّد بالناس جالسا بسبب الجروح التي أصابته، ومن الغد [و كان يوم أَحَد] أمر بكلّ من شارك في غزوة أحد أن يتجهّز ليسيروا على آثار قريش وخرج جيش المسلمين [ستّمائة شخص تقريبا] واقتفوا آثار قريش حتّى وصلوا إليهم في منطقة تسمّى "حمراء الأسد".

والسبب؟

تقول السيرة أنّ قريشا وهي عائدة في الطريق علمت أنّ محمّدا لم يقتل [وهذا يؤكّد طرحنا أعلاه] فوصلتْ الأخبار إلى النبيّ أنّ أبا سفيان يريد أن يرجع بقريش إلى المدينة ليستأصلوا [174] من بقي من أصحابه، فقد بلغه أن المشركين قالوا له: **لا محمدا قتلتم، ولا الكواكب أردفتم، بئس ما صنعتم ارجعوا**. [175] أي وفي لفظ أنّهم لمّا بلغوا بعض الطريق قدموا فقالوا بئس ما صنعتم، إنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم قبل أن يجدوا قوة وشوكة. و ظلّ محمّد معسكرا بعيدا عن جيش قريش وقام بإشعال النيران في الليل في أماكن عديدة حتّى تحسب قريش أنّ هناك جيشا كبيرا للمسلمين جاء إلى محاربتها، وبالمقابل ذهب شخص اسمه معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكان مشركا لكنّه يميل إلى محمّد لأسباب ماليّة بفضل الغنائم، إلى أبي سفيان في المعسكر المقابل ولمّا رأى أبو سفيان معبدا قال: **ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقا، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قطّ. قال: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل. قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل شأفتهم**.[أي كنّا ننوي أن نعود و نقضي عليهم] **قال: فإني أنهاك عن ذلك** [176] وهكذا نجحت خدعة النبيّ وظنّ أبو سفيان أنّ أهل المدينة خرجوا فعلا لمحاربتهم [نشير إلى أنّه لو كانت المدينة كلّها فعلا مسلمة لما وقف في طريق محمّد أحد] وزاد في تردّد جيش قريش أنْ رفض صفوان بن أميّة العودة إلى المدينة و مواصلة القتال [كان من أصحاب رؤوس الأموال، وربّما لم يشأ تبذير الأموال دون فائدة لأنّ العودة ستكون لها تكاليفها وقنع بتلقين درس للمسلمين ظنّا أنّهم لن يتجرّؤوا على قطع الطرق بعد غزوة أحد] وهكذا واصلت قريش طريقها إلى مكّة وعاد محمّد إلى المدينة.

---

[174] رواية ابن هشام، رواية ابن كثير: تبتروهم، و البيهقي: تبيدوهم.

[175] برهان الدين الحلبي /السيرة الحلبيّة/حمراء الأسد، الهيثمي/مجمع الزوائد/ج6/ص121

[176] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص 57

الإجلاء الثاني

غزوة أحد كانت يوم سبت، ومن الغد أي صبيحة يوم الأحد خرج النبيّ خلف قريش كما أسلفنا أعلاه. وابن هشام نقلا عن ابن اسحاق في السيرة يقول: كان يوم الأحد 16 من شوّال. وابن سعد في الطبقات يقول: كان يوم الأحد 8 شوّال. قد راجعت هذا التاريخ ووجدت أنّ ابن سعد محقّ فثمانية شوال لثلاثة من الهجرة يوافق يوم الأحد وهو 24 مارس/آذار سنة 625 ميلادي. وقد قمت بمراجعة تواريخ ابن سعد الأخرى فوجدت أنّها كلّها صحيحة إلاّ من بعض الأخطاء التي لا تكاد تذكر، وسنواصل اعتمادنا على كلّ كتب السيرة في الأحداث، ونستعين كثيرا بتواريخ ابن سعد، لما يتميّز به من دقّة ويبدو أنّ مصادره [هو تلميذ الواقدي] أكثر دقّة من مصادر ابن هشام رغم أنّه معاصر له.
إذن بعد أن عاد محمّد من غزوة حمراء الأسد، سمع بعد ثلاثة أشهر أنّ طليحة بن خويلد وأخاه سلمة بدؤوا يحرّضون بني أسد عليه فقام بإرسال أبي سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ ومعه مائة وخمسون شخصا وقال له: **سر حتى تنزل أرض بني أسد فأغر عليهم قبل أن تلاقي عليك جموعهم** [177]
أفتح قوسا:
طليحة بن خويلد هو واحد ممّن ادّعوا النبوّة وقد تبعه أناس كثيرون من بني أسد وطيء وغطفان، وقد كان ممّن حاربهم أبو بكر الصدّيق أيّام الردّة، ثمّ أسلم فيما بعد.
و الذين ادّعوا النبوّة بعد محمّد كثيرون ونذكر منهم على سبيل المثال:
مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وفي خلافة أبي بكر : طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح في بني تميم، وقُتِل الأسود قبل أن يموت النبي، وقُتِل مسيلمة في خلافة أبي بكر، قتله وحشي قاتل حمزة يوم أحد وشاركه في قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار، وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر. ورُوِيَ أنّ سجاح تابت أيضًا. ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة الزبير . وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين، فتتبعهم فقتل كثيرًا ممن باشر ذلك، وأعان عليه . فأحبه الناس، ثم ادعى النبوة وزعم أنّ جبريلًا يأتيه. ومنهم الحرث الكذاب، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقُتِل [178] ونلاحظ تعمّد كتّاب السيرة التهكّم من هؤلاء الأنبياء الكذّابين حيث يقومون بتقويلهم أشياء غير منطقيّة أحيانا، نستشفّ من خلالها عدم مصداقيّة الرواية : **ومنهم مسيلمة، ادّعى النبوة وتسمى رحمن اليمامة، لأنه كان يقول: الذي يأتيني رحمان. فآمن برسول الله وادعى أنه قد أشرك معه، فالعجب أنه يؤمن برسول ويقول إنه كذاب. ثم جاء بقرآن يضحك الناس، مثل قوله: يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين**
[لا يخفى علينا أنّه من غير المنطقيّ أن يقول مسيلمة هذا الكلام وهو الذي اتّبعه عشرات الآلاف كما أنّ هذا كلام محدث و ليس جاهليّا، والغاية منه طبعا واضحة وهي التقليل من شأنه ورفع

---

[177] عيون الأثر في المغازي و السير/ابن سيّد الناس/ج2/ص8
[178] فتح المجيد/عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ/ ص240

القرآن] **ومن العجائب :''شاة سوداء تحلب لبنا أبيض''. فانهتك ستره في الفصاحة. ثم مسح بيده على رأس صبي فذهب شعره. وبصق في بئر فيبست.**[لاحظوا كيف يزيدون بعض البهارات] **وتزوج سجاح التي ادّعت النبوة فقالوا: لا بد لها من مهر، فقال: مهرها أني قد أسقطت عنكم صلاة الفجر والعتمة. وكانت سجاح هذه قد ادّعت النبوة بعد موت رسول الله ، فاستجاب لها جماعة فقالت: أعدّوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أعبروا على الرباب، فليس دونهم حجاب، فقاتلوهم. ثم قصدت اليمامة فهابها مسيلمة فراسلها وأهدى لها فحضرت عنده فقالت: اقرأ عليّ ما يأتيك به جبريل. فقال: إنكنّ معشر النساء خلقتن أفواجا، وجعلتن لنا أزواجا، نولجه فيكنّ إيلاجا. فقالت: صدقت أنت نبي. فقال لها: قومي إلى المخدع، فقد هيىء لك المضجع، فإن شئت مستلقاة، وإن شئت على أربع، وإن شئت بثلثيه، وإن شئت به أجمع، فقالت: بل به أجمع، فهو للشمل أجمع. فافتضحت عند العقلاء من أصحابها** [179] [!]

نغلق القوس و نعود إلى الموضوع:

أرسل محمّد سريّة إلى أرض بني أسد، وقد كانت غزوة ناجحة حيث تحصّلوا على قطعان من الغنم والخرفان كانوا يسرحون في المنطقة [يقال خاف الآخرون الذين يستعدّون لقتال محمّد فهربوا] وعاد أصحاب النبيّ بالغنيمة إلى المدينة. ثمّ سمع محمّد- بعد خمسة أيّام- أنّ هناك شخصا آخر يقوم بجمع الجيوش اسمه سفيان بن خالد، فأرسل النبيّ هذه المرّة شخصا واحدا اسمه عبد الله بن أنيس ليقوم باغتيال هذا المتمرّد، ويروي ابن سعد: **ثم سرية عبد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي بعرنة خرج من المدينة يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرا من مهاجر رسول الله** [180] وقد راجعت هذا التاريخ وهو صحيح فيوم 5 محرّم هو فعلا يوم اثنين، ويوافق 17 جوان/حزيران سنة 625 ميلادي ولنستمع لعبد الله بن أنيس يروي لنا كيفيّة نجاحه في العمليّة : **فأخذت سيفي وخرجت أعتزي إلى خزاعة حتى إذا كنت ببطن عرنة لقيته يمشي ووراءه الأحابيش ومن ضوى إليه** [أي: من تبعه] فعرفته(...) **فقال من الرجل؟ فقلت رجل من بني خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك قال أجل إني لأجمع له فمشيت معه ساعة وحدثته فاستحلى حديثي حتى انتهى إلى خبائه وتفرق عنه أصحابه، حتى إذا هدأ الناس وناموا اغتررته فقتلته وأخذت رأسه ثم دخلت غاراً في الجبل وضربت العنكبوت عليّ** [يبدو أنّ الموضة قديما كانت أنّ كلّ من يختبئ في غار يقوم العنكبوت بنسج خيوطه على الباب] **وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً، فانصرفوا راجعين ثم خرجت فكنت أسير الليل وأتوارى بالنهار حتى قدمت المدينة فوجدت رسول الله في المسجد فلمّا رآني قال " أفلح الوجه " قلت أفلح وجهك يا رسول الله فوضعت رأسه بين يديه**[أي رأس سفيان] **وأخبرته خبري فدفع إلي عصا فقال " تخصرّ بهذه في الجنة ".** [181]

---

[179] صيد الخاطر/ابن الجوزيّ/فصل الأنبياء الكذبة

[180] ابن سعد/الطبقات الكبرى/ج2/ص50

[181] عيون الأثر في المغازي و السير/ابن سيّد الناس/ج2/ص9

القبض على جواسيس النبيّ:

و بعد شهر قام محمّد بإرسال عشرة أشخاص يتجسّسون [182] على أخبار قريش و الأحوال في مكّة وحينما وصلوا إلى منطقة تسمّى الرجيع [هو موضع بين عسفان ومكّة (ياقوت الحموي/معجم البلدان/حرف الراء)] سمعت بهم قبيلة هذيل فخرجت خلفهم بمائة رام، أي المختصّين في رمي النبال، وأحاطوا بهم من كلّ جانب وطلبوا منهم الاستسلام حيث يريدون بيعهم لقريش، فاستسلم ثلاثة وقاتل البقيّة فقُتِلوا فحملوهم إلى مكّة لكنّ أحد الأسرى ثار في الطريق فقتلوه ولم يبيعوا إلاّ اثنين إلى قريش وهما : خبيب وزيد. أمّا خبيب فقد اشتراه أبو إهاب التميميّ وقتله لثأر بينه وبين حلفائه. وزيد اشتراه صفوان بن أميّة وانتظر انتهاء الأشهر الحرام ثمّ أخرجوه في مكّة وعلّقوه على صليب خشبيّ لصلبه وتمّ طعنه بحربة وهو مصلوب فمات.

و في الشهر نفسه [أي شهر صفر سنة 4 من الهجرة] جاء سيّد من بني عامر اسمه ''أبو براء عامر بن مالك'' إلى المدينة فدعاه محمّد إلى الإسلام فرفض ولكنّه بالمقابل طلب من محمّد أن يرسل بعض المسلمين إلى قبيلته ''بني عامر'' ليعرضوا عليهم الإسلام، فوافق محمّد وأرسل سبعين رجلا يسمّون ''القرّاء'' [183] حيث كانوا يتدارسون القرآن في الليل و يعملون بالنهار.

و لنا أن نتساءل عن هذا العدد الكبير: سبعون رجلا؟ ألا تكون النيّة موجّهة لغزوة تحت غطاء أنّهم جاؤوا للدعوة و حين تحين الفرصة يهجمون؟ على كلّ حال ومهما كانت نيّة محمّد وأصحابه فقد جرت الرياح بما لا تشتهي السفن، حيث أنّ هؤلاء ''القرّاء'' وحين وصلوا إلى مكان بين بني عامر وبني سليم، اسمه بئر معونة، أرسلوا رسالة النبيّ إلى ''عامر بن الطفيل'' و هو ابن أخ أبي براء الذي جاء إلى محمّد، فقام عامر هذا بقتل صاحب الرسالة واسمه حرام بن ملحان، هو خال أنس بن مالك، ثمّ استصرخ بني عامر ليهاجموهم فرفضوا لأنّ سيّدهم أبا براء أعطى الأمان للمسلمين، فاستصرخ قبائل من بني سليم فساندوه و حاصروا هؤلاء القرّاء وقتلوهم عن آخرهم إلاّ شخصا واحدا واسمه ''عمرو بن أميّة''[من مضر] أطلق سراحه ''عامر بن الطفيل'' بسبب ديّة كانت على أمّه في مضر وحين كان ''عمرو بن أميّة'' عائدا إلى المدينة وجد شخصين، فسألهما عن أصلهما فقالا أنّهما من بني عامر، فانتظر حتّى ناما ثمّ قتلهما وفرّ. و قد كان يعتقد أنّ بني عامر هم من قتلوا ''القرّاء'' فأخذ بثأرهم من العامريين الذين وجدهما في الطريق [لكنّ بني عامر لم تشارك بل كانت قبائل من بني سليم وعصيّة ورعل وذكوان] هذه الرواية معقّدة بعض الشيء وحاولت تبسيطها للقارئ قدر المستطاع.

إذن عاد عمرو بن أميّة إلى المدينة وأخبر النبيّ بكلّ ما حدث فقال محمّد: **هذا عمل أبي براء** [أي هذا رأي أبي براء الخاطئ] **قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً** [184] وبالمقابل قام بلوم عمرو على قتل الرجلين لأنّهما من بني عامر وكان محمّد في صلح معهم، وبالتالي كانت خسارة النبيّ خسارتين:

---

[182] المصدر السابق، و راجع البخاري/كتاب المغازي/غزوة الرجيع

[183] البخاري يقول كانوا سبعين رجلا, لكنّ بعض الروايات تقول كانوا ثلاثين فقط و أخرى تقول كانوا أربعين

[184] عيون الأثر/ابن سيّد الناس/ج2/ ص 17

- موت القرّاء وقد قنت النبيّ شهرا يدعو على قبائل رعل وعصيّة وذكوان [185]
- ضرورة دفع الديّة لأهل القتيلين.
لقد قمت بإيراد هذه الحكاية لأنّها كانت سببا في إجلاء بني النضير.وكان ذلك في شهر ربيع الأوّل/أوت 625 ميلادي. حيث **ذهب النبيّ يوم السبت فصلّى في مسجد قباء ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار ثم أتى بني النضير فكلمهم أن يعينوه في دية الكلابين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري فقالوا نفعل يا أبا القاسم ما أحببت، وخلا بعضهم ببعض** [186]
وبعد أن طلب النبيّ أن يدفعوا معه ديّة هذين القتيلين وافقه أشراف بني النضير ثمّ اجتمعوا وخرج محمّد من حجرة الاجتماع ينتظرهم خارجا. وفيما محمّد بصدد الانتظار قام مسرعا كأنّه سيذهب لقضاء حاجة [أي بلغة عصرنا كأنّه ذاهب لدورة المياه] وعاد سريعا إلى المدينة، ودخل إلى بيته، وحين افتقده أصحابه ذهبوا خلفه ووجدوه في المدينة سألوه عن سبب ذهابه دون أن يخبرهم. فقال فيما معناه أنّ الله أخبره أنّ يهود بني النضير تنوي الغدر لذلك عاد مسرعا.

نفتح قوسا:
أعتقد أنّ محمّدا كان صادقا حين فكّر في غدر بني النضير، وأعني بكلمة ‘‘صادق‘‘ أنّه بينما كان في الانتظار خارج الاجتماع أحاطت به الهواجس والشكوك وبدأ يضع الاحتمالات فيما يمكنهم فعله وأخيرا قرّ قراره أنّهم سيخونونه واستحوذت عليه الفكرة حتّى أنّه قام مسرعا وعاد إلى المدينة دون حتّى أن يخبر أصحابه. وأرجّح أنّ الدافع لهذه الشكوك هو أنّهم لم يعارضوه حين طلب منهم المساهمة في ديّة القتيلين ووافقوا بسرعة فظنّ أنّهم يعدّون لخدعة، لكنّنا سنرى أنّهم فعلا يخافون من النبيّ وما وافقوا إلاّ بسبب الخوف. وربّما كانوا ينوون فعلا الغدر به واستطاع محمّد بفضل قدرته على قراءة النفوس أن يشعر بهذا الأمر. وهناك احتمال أن يكون سمع حركة ما خلف الجدار [حيث تقول الرواية أنّ أحدهم حمل صخرة ليلقيها على النبيّ وهو جالس ينتظر تحت الجدار و معه أبو بكر و عمر و عليّ و غيرهم] و يبدو أنّ النبيّ كان جالسا بينما كانت كلّ حواسه تراقب المكان بتركيز شديد، فشعر بالخدعة.هذا إن صحّت رواية إلقاء الصخرة. نغلق القوس.
إذن بعد أن عاد محمّد إلى المدينة قام بإرسال محمّد بن مسلمة إلى بني النضير قائلا: **اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها وقد هممتم بما هممتم به من الغدر وقد أجلتكم عشرا فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه** [187] و مباشرة وافق بنو النضير! موافقتهم السريعة هذه تشير إلى أنّهم كانوا يخشون النبيّ فعلا وأنّه يعني ما يقول [ولهم في بني قينقاع واغتيال كعب بن الأشرف عبرة حسنة] وبدؤوا يتجهّزون للرحيل حتّى أنّهم اكتروا بعض الإبل بسبب كثرة أمتعتهم، ولكن عبد الله بن أبي سلول تدخّل في الأمر وقال لهم: **لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصنكم فإنّ معي**

---

[185] صحيح البخاري/ كتاب المغازي، يقول ابن سعد في الطبقات وابن الأثير في الكامل في التاريخ :**ولم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة فأنزل الله فيهم قرآنا حتى نسخ بعد بلغوا قومنا عنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه ويقول الحلبي في السيرة الحلبيّة أنّهم كانوا يقرؤون [هذه الآية] في القرآن زمنا ثمّ أُنسيتْ**
و يقول ابن سيّد الناس في عيون الأثر: **قال أنس أنزل الله في الذين قتلوا ببئر معونة قرآناً قرأناه ثم نسخ بعد " أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه "**
[186] الطبقات الكبرى/ابن سعد/ج2/ص57، و راجع البخاري و كلّ كتب السيرة
[187] المصدر السابق

ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان [188] و هكذا تراجع بنو النضير عن الرحيل وأرسلوا إلى محمّد قائلين: **إنّا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك، فأظهر رسول الله التكبير وكبر المسلمون لتكبيره وقال حاربتْ يهود فصار إليهم النبي في أصحابه فصلى العصر بفضاء بني النضير وعليّ رضي الله تعالى عنه يحمل رايته** [189] فجاء النبيّ وحاصرهم، ولم تتدخّل بنو قريظة ولا غطفان ولا أبو سلول نفسه [من الغريب أنّ أراء أبي سلول تصبّ دائما في صالح النبيّ وكأنّهما متّفقان على هذه الخدعة، و لولا أنّه تراجع عن القتال يوم أحد وترك النبيّ يقاتل وحده لقلنا أنّه يلعب دور المعارضة عمدا باتّفاق بينه وبين محمّد] ودام الحصار خمسة عشر يوما وقام النبيّ بإحراق النخيل المحيط بهم فقالوا له: **يا محمّد، قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟** [190] فنزل القرآن يشرّع العمليّة كالعادة، يقول ابن هشام: **(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها).اللينة : ما خالف العجوة من النخل (فبإذن الله) : أي فبأمر الله قطعت، لم يكن فسادا، ولكن كان نقمة من الله (وليخزي الفاسقين)** [191] واستسلمت بنو النضير فزاد النبيّ في شروطه فأمرهم أن يرحلوا و يحملوا معهم على الإبل ما شاءوا إلاّ الأسلحة [الغريب أنّ النبيّ لم يأمر بقتلهم وهو ما يجعلنا نرجّح اتّفاقه مع ابن سلول الذي كان دوره أن يغرّر بهم ليطردهم النبيّ ولكن دون قتلهم حيث أنّ ابن سلول يرفض القتل] فخرج بنو النضير و قصدوا خيبر.[لم يهتمّ النبيّ بأمر أمتعتهم لأنّ أهمّ شيء عندهم تركوه وهو الأراضي الكثيرة] فتقاسم النبيّ الأراضي ووزّع بعضها على أصحابه، **فكانت أموال بني النضير خالصة لرسول الله وكان يزرع تحت النخل في أرضهم فيدخل من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة** [أصبح النبيّ يقتات من مدخول أراضي بني النضير] **وما فضل جعله في الكراع والسلاح. وأقطع رسول الله من أرض بني النضير أبا بكر وعبد الرحمن بن عوف وأبا دجانة سماك بن خرشة الساعدي وغيرهم.** [192]

---

[188] المصدر السابق
[189] المصدر السابق
[190] سيرة ابن هشام/ص 606
[191] المصدر السابق
[192] البلاذري/فتوح البلدان/ج1/ص18/تحقيق صلاح الدين المنجر/القاهرة/1958

ما أجمل جويريّة

بعد غزوة بني النضير و إجلائهم و"تأميم" أراضيهم سنذكر وعلى عجالة الأحداث التي حدثت في تلك السنة: التاريخ 4 هجري وهو ما يوافق 625-626 ميلادي

-غزوة ذات الرقاع، لم تحدث فيها حرب و عاد المسلمون إلى المدينة.

-ولادة الحسين بن عليّ من أمّه فاطمة بنت النبيّ.

-وفاة عبد الله بن عثمان بن عفّان وهو ابن ستّ سنين وأمّه رقيّة بنت النبيّ.

-زواج النبيّ من زينب بنت خزيمة وتوفّيت بعد ثلاثة أو ثمانية شهور.

-زواج النبيّ مرّة أخرى من أمّ سلمة بنت أبي أميّة، وقد رفضت مرارا عرض النبيّ قبل ذلك بحجّة أنّها امرأة شديدة الغيرة [أي لا تقبل أن يتزوّج النبيّ بغيرها في حياتها، ولأنّ لها أطفالا] وفي الأخير وافقت و تزوّجت.

-غزوة بدر، لم تحدث فيها حرب وقام المسلمون بالمشاركة في سوق بدر بينما لم تشارك فيه قريش.

-النبيّ يطلب من زيد بن ثابت أن يتعلّم التوراة أو السريانيّة أو العبريّة [حسب الروايات]

هذا على عجالة أهمّ الأحداث التي وقعت في تلك السنة.

وفي شهر ربيع الأوّل سنة 5 هجري/أوت-آب 626 ميلادي، بلغ النبيّ أنّ هناك من يجمع الرجال في دومة الجندل **فخرج في ألف من المسلمين فكان يسير الليل ويكمن النهار**[أي يسير في الليل و يستريح في النهار] **ومعه دليل له من بني عذرة يقال له مذكور فلما دنا منهم إذا هم مغربون وإذا آثار النعم والشاء فهجم على ماشيتهم ورعاتهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب في كل وجه وجاء الخبر أهل دومة فتفرقوا ونزل رسول الله بساحتهم فلم يجد بها أحدا فأقام بها أياما وبثّ السرايا وفرقها فرجعت ولم تصب منهم أحدا** [193] [على الأقلّ أصاب النعم والماشية] و بعد أربعة شهور - وكالعادة - سمع النبيّ أنّ هناك من يجمع الرجال ضدّه من بني المصطلق [يبدو أنّ كتبة السيرة ولكي يبرّروا بعض غزوات النبيّ يقولون أنّهم يجمعون الرجال ضدّه] فأعدّ جيشا [فيه ثلاثون فرسا] وخرج لقتالهم **ثم أمر رسول الله أصحابه فحملوا حملة رجل واحد فما أفلت منهم إنسان وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم وسبى رسول الله الرجال والنساء والذرية والنعم والشاء ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد** [194] و كانت غنيمة كبيرة، الإبل: ألفا بعير، الشاء: خمسة آلاف شاء، **وأمر بالأسارى فكتّفوا**(..) **وأمر بالغنائم فجمعت** (...) **وجمع الذرية ناحية** [أي جمعهم في مكان معيّن] (...) **واقتسم السبي وفرّق وصار في أيدي الرجال وقسم النعم والشاء فعدلت الجزور بعشر من الغنم وبيعت الرثة في من يزيد وأسهم للفرس سهمان ولصاحبه سهم وللراجل سهم** [195] و طبعا بدؤوا في اقتسام السبايا

---

[193] الطبقات الكبرى/ج2/ص62، والبخاري يقول في التاريخ الكبير: بعد "حدّثني" و "عن" **أن النبي أغار على بني المصطلق وهم غارون في أنعامهم تسقى على الماء فقتل المقاتلة وسبى الذرية وسبى جويرية بنت الحارث حدثني بذلك عبد الله بن عمر وكان في ذلك الجيش** أي أنّ النبيّ أغار عليهم و هم غافلون و ليسوا مستعدّين للحرب, و قد رجّح ابن سعد الرواية التي أوردتها أعلاه, و رغم أنّي أوردتها فإنّي أميل إلى قول البخاري أنّهم كانوا غافلين و الدليل هو كثرة الغنائم و السبي في هذه الغزوة ممّا يوحي بأنهم لم يكونوا مستعدّين فعلا.

[194] الطبقات الكبرى/ج2/ص64، و يورد البخاري في المغازي أنّ المسلمين طلبوا من النبيّ الدخول بالنساء السبايا فأذن لهم.

[195] المصدر السابق

من النساء [هؤلاء النساء هنّ عربيّات من قبائل عربيّة مثلهم، و ربّما على هذا القياس قال الإمام الشافعي أنّه يجوز استرقاق العرب] و كانت من بين السبايا جويريّة بنت الحارث [ابنة سيّد القبيلة] فوقع سهمها مع ثابت بن قيس، ولنستمع لعائشة تروي لنا الحكاية، قالت : **لمّا قسم رسول الله سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها** [أي أرادت فداء نفسها] **وكانت امرأة حلوة مُلاّحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله تستعينه في كتابتها** [جاءت إلى النبيّ تطلب منه أن يساعدها، هل حقّا جاءت لأجل ذلك أم أنّها سمعت عن حبّ النبيّ للنساء وأنّه لن يصمد طويلا أمام جمالها وبالتالي رأت أن تفوز بسيّد القوم وهي ابنة سيّد القبيلة؟] **قالت عائشة : فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها النبيّ ما رأيت** [ما أن رأتها حتّى علمت أنّ النبيّ سيتزوّجها مباشرة، والمرأة أعلم الناس بزوجها] **فدخلتْ عليه، فقالت : يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، قال : فهل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟** [أظنّها فهمت الأمر مباشرة في عينيه وهل تخفى عليها نظرة الشوق؟ و لكنّها تتعمّد عدم الفهم] **قال : أقضي عنك كتابتك وأتزوجك، قالت : نعم يا رسول الله، قال : قد فعلت** [196] [قال النبيّ قد فعلت دون حتّى أن يأخذ رأي ثابت بن قيس، وهذا مفهوم فجمال المرأة أقوى من أن يدخل محمّد في مفلوضات مع شخص من جنده، وبعض الروايات تقول أنّه أخذ رأيه لكنّ الاتفاق على كلّ حال منذ البداية لم يكن بعلمه] وتروي بعض الأخبار أنّ النبيّ أعتق جويريّة ثمّ تزوّجها: **أعتق رسول الله جويرية واستنكحها وجعل صداقها عتق كل مملوك من بني المصطلق وكانت من ملك اليمين فأعتقها وتزوجها قال ابن سعد وغيره بنو المصطلق من خزاعة وكان زوجها قبل أن يسلم ابن عمها (مسافع بن) صفوان ابن أبي الشفر وقد قدم أبوها الحارث على النبي فأسلم وعن جويرية قالت تزوجني رسول الله وأنا بنت عشرين سنة** [197]

وهكذا فللمرأة الحرّة ابنة سيّد القبيلة المتزوّجة من ابن عمّها، صارت من ملك اليمين، بل و يمنّ عليها النبيّ بعتقها ليتزوّجها! وقرّر الجيش العودة إلى المدينة، وفي الطريق توقّفوا ليرتاحوا قليلا [وربّما باتوا ليلتهم هناك] وقبل أن يرحلوا ذهبت عائشة إلى الخلاء لقضاء حاجة [أي إلى الحمّام] وحين عادت لم تجد عقدها، فرجعت تبحث عنه، تقول: (وفي عنقي عقد لي، فيه جزع ظفار) والجزع الخرز، و ظفار مكان في اليمن، أيّ أن عقدها من خرز يمانيّ، فما قيمة هذا العقد أصلا الذي عادت تبحث عنه؟ و لكن ربّما هو حكم السنّ، فعمرها يكون اثنتي عشرة سنة في هذه الحادثة، وأثناء بحثها حملوا هودجها الذي لم تكن فيه ووضعوه على الناقة دون أن يشكّوا في شيء ورحلوا. وبعد أن وصل الجيش إلى المدينة، وتفرّقوا، وجاء وقت الظهيرة، إذ بصفوان بن المعطّل يدخلها و معه عائشة راكبة على ناقة له يقودها. [198]

---

[196] سيرة ابن هشام/ص673
[197] سير أعلام النبلاء/الحافظ الذهبيّ/ج2/ص262
[198] سيرة ابن هشام/ص 674، و راجع البخاري في حديث الإفك

الفضيحة

بدأ الناس يتكلّمون وانتهزها عبد الله بن سلول فرصة، وكيف لزوجة رسول أن تبقى في الخلاء مع رجل غريب، ومحمّد لا يدري ماذا يفعل فذهب إلى عائشة التي تروي لنا : **ثم دخل عليّ رسول الله، وعندي أبواي، وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي وهي تبكي معي، فجلس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال : يا عائشة، إنّه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله وإن كنت قد قارفت سوءا ممّا يقول الناس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده** [يعني إن كنت فعلت شيئا فاعترفي فإنّ الله يقبل التوبة] **قالت : فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك، فقلص دمعي حتى ما أحس منه شيئا، وانتظرت أبويّ أن يجيبا عنّي فلم يتكلما** [أبو بكر لا يستطيع أن يقول شيئا] **قالت : وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي، وأصغر شأنا من أن ينزل الله فيّ قرآنا يُقرأ به في المساجد، ويُصلى به، ولكني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله في نومه شيئا يكذب به الله عني** [199] [طبعا عائشة أنكرت تماما أن يكون حدث شيء] والنبيّ يكاد يأكله الشكّ، فخرج واستشار عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد، فأمّا أسامة فنفى أن تكون عائشة فعلت شيئا، بينما عليّ قال له : **يا رسول الله، إنّ النساء لكثير، وإنّك لقادر على أن تستخلف وسل الجارية، فإنّها ستصدقك.** [200] [أيّ أنّ عليّا طلب من النبيّ أن يطلّق عائشة، وهذه الجملة التي قالها عليّ ستكون لها آثار وخيمة بعد ستّة وعشرين عاما في معركة الجمل ويموت فيها كثير من المسلمين ولن تنسى عائشة أبدا ما قاله عليّ] ثمّ أشار عليّ أن يستجوبوا الجارية ‘‘بريرة’’ لعلّها تعلم شيئا عن الحادثة، **فدعا رسول الله بُريرة ليسألها، فقام إليها عليّ بن أبي طالب، فضربها ضربا شديدا، ويقول: اصدقي رسول الله، قالت : فتقول والله ما أعلم إلا خيرا وما كنت أعيب على عائشة شيئا** [201] و لكن يجب على النبيّ أن يُسكت هذه الإشاعات التي تنتشر في المدينة [وربّما تستنقص من نبوّته] فجمع الناس في المسجد وخطب فيهم: **أيّها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرا ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا، وما يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي** [202] فالنبيّ ورغم شكوكه فهو يحاول لملمة الأمر أمام الناس ويبدو كأنّه متأكّد من براءة عائشة [بينما الأمور في قرارة نفسه تختلف] وما أن أنهى خطبته حتّى قام رجل من الأوس وقال: **يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفكهم** [أي إن كان ناشرو الإشاعات من الأوس فسنتكفّل بهم] **وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج، فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تُضرب أعناقهم. فقام سعد بن عبادة** [هو من الخزرج] **فقال : كذبت لعمر الله، لا نضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا** [أي أنّك قلت هذا لأنّك تعرف أنّ ناشري الإشاعات رجال من الخزرج] **فقال أسيد : كذبت لعمر الله،**

---

[199] سيرة ابن هشام/ص 675
[200] المصدر السابق
[201] المصدر السابق
[202] المصدر السابق

ولكنك منافق تجادل عن المنافقين، وتساور الناس، حتى كاد يكون بين هذين الحيّن من الأوس والخزرج شر [203] [وأصبحت المسألة قضيّة أمن دولة، وبدأت بوادر الشقاق تنتشر] فتركهم النبيّ وعاد إلى عائشة مرّة أخرى وطلب منها أن تعترف [ولنا أن نتصوّر حالته النفسيّة] لكنّها أنكرت جملة وتفصيلا وقالت فيما معناه أنّها حين بقيت وحدها في الخلاء مرّ بها صفوان وعرف أنّها زوجة النبيّ [لم تكن متحجّبة وذلك قبل نزول الحجاب] فسألها فلم تجبه [لاحظوا أنّها حتّى تنفي أن تكون كلّمته أصلا، وهذا غير صحيح ولكنّها بدافع الخوف تريد أن تنفي أيّ شيء يمكن أن يتمّ تأويله] فأدار وجهه حتّى ركبت على ناقته ثمّ عاد بها إلى المدينة.
و السؤال: هل يمكن أن تكون عائشة قد خانت فعلا؟ هل تكون قد غارت من جويريّة التي تزوّجها النبيّ، مع العلم أنّ الجيش توقّف وبات ليلة قبل الوصول إلى المدينة وربّما دخل النبيّ بجويريّة في تلك الليلة، بينما بقيت عائشة في هودجها وحيدة؟ لكن هل تقدر فعلا - وكذلك صفوان- على أمر كهذا وهما يعرفان أنّ النبيّ لا يتساهل في هذه الأمور؟
أميل إلى أنّ الرواية التي روتها عائشة صحيحة وأنّه لم يحدث شيء، وربّما وبخبرة النبيّ وترجيحه الاحتمالات رأى أنّها بريئة، وقد ظلّ يقاطعها شهرا حيث عادت إلى بيت أبويها وفجأة بدأ العرق يتصبّب على وجهه فألقوا عليه رداء [كان كلّما نزل عليه الوحي قاموا بتغطيته] ووضعوا تحت رأسه وسادة، وهم ينتظرون ماذا سيأتي به الوحي والناس في ترقّب شديد.
ثمّ أفاق النبيّ وأعلن براءة عائشة وذلك بتدخّل الله شخصيّا في هذه المسألة: **إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ لَوْلا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** [سورة النور، 11-17] وطبعا لكي يكفّ الناس عن نشر الإشاعات لا بدّ من نهي إلهيّ مباشر : ''يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين'' وبالتالي فمن سيواصل الكلام في هذا الأمر فهو سيعصي الله و ليس فقط النبيّ، وعقابه معروف. كما أنّه سدّ الطريق وأغلق الباب على كلّ من يدّعي هذا الأمر فعليه أن يأتي بأربعة شهداء، ثمّ أمر النبيّ بجلد حسّان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش [تمّ تطبيق حدّ قذف المحصنات عليهم لأنّهم كانوا ممّن تكلّم في عائشة] **فلما أنزلت براءتها جلدهم ثمانين جلدة إلا عبد الله بن أبي بن سلول فإنه لم يجلده** [204] ونلاحظ أنّه لم يطبّق الحدّ على عبد الله بن أبيّ بن سلول ويبدو أنّه كان لا يزال في منعة في قومه وله كلمته التي يقولها، وهو الوحيد في المدينة الذي يستطيع معارضة النبيّ جهارا، ولنا أن نتساءل لماذا لم يقم النبيّ باغتياله كما فعل مع غيره؟

[203] المصدر السابق
[204] التنبيه و الإشراف/المسعودي/ذكر السنة الخامسة للهجرة/مكتبة الشاملة الإلكترونيّة

و إذ نرى أنّ القرآن نزل لتبرئة عائشة في حادثة الإفك فإنّه لن يتوقّف عند ذلك الحدّ، فسيهتمّ القرآن أكثر بحياة النبيّ العائليّة [وقد كان من قبل مقلاً في هذا الأمر] وسيركّز القرآن أيضا على علاقات النبيّ مع النساء، ممّا يجعل عائشة تقول للنبيّ : **إنّ الله يسارع في هواك**، وجاء في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة : **كانت خولة بنت حكيم من اللائى وهبن أنفسهن للنبي فقالت عائشة أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟ فلمّا نزلت (ترجي من تشاء منهن) قلت: يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك** [205] [!]

[205] الجمع بين صحيحي بخاري و مسلم/الحميدي/تحقيق د. علي حسن البواب/دار ابن حزم/لبنان/2002/ج4/ص83

أمسك عليك زوجك

جاء النبيّ بيت زيد يطلبه فلم يجده، فتقدمت إليه زينب، فأعرض عنها، فقالت له: **ليس هو هنا يا رسول الله فادخل، فأبى أن يدخل وأعجبت رسول الله، أي لأن الريح رفعت الستر فنظر إليها من غير قصد فوقعت في نفسه، فرجع وهو يقول «سبحان مصرّف القلوب» وفي رواية «مقلب القلوب» وسمعته زينب يقول ذلك، فلما جاء زيد أخبرته الخبر، فجاء إليه وقال: يا رسول الله لعل زينب أعجبتك فأفارقها لك، فقال له رسول الله : أمسك عليك زوجك** [206] لكنّ ابن كثير يرويها بطريقة أخرى[موردا رأيه في الرواية أعلاه] : **وقد ذكر غير واحد من المفسرين، والفقهاء، وأهل التاريخ في سبب تزويجه إياها عليه السلام حديثاً ذكره أحمد بن حنبل في مسنده، تركنا إيراده قصداً لئلا يضعه من لا يفهم على غير موضعه.** [207] ثمّ يقول: **وقد تكلم كثير من السلف ها هنا بآثار غريبة، وبعضها فيه نظر، تركناها (...) ثم روى البيهقي: عن أنس قال: جاء زيد يشكو إلى رسول الله من زينب بنت جحش فقال النبي : ((أمسك عليك أهلك)) فنزلت {وتخفي في نفسك ما الله مبديه} ثم قال أخرجه البخاري** [208] لكن لماذا جاء زيد إلى النبيّ يشكو من زوجته زينب؟ حيث نشعر أنّ هناك حرجا ما في كلام ابن كثير فيفهم القارئ أنّ النبيّ أعجبته زينب فطلب من زوجها زيد تطليقها وتزوّجها هو، وفعلا هذا الذي حدث، رغم المحاولات التبريريّة التي يسوقها الفقهاء بحديثهم عن إلغاء التبنّي، وكأنّ الله كان لا يستطيع إلغاءه إلاّ بهذا الأمر، ألا يكفي إنزال آيات من القرآن لإلغائه حتّى يلتزم بها المسلمون؟ ولكن وكما قالت عائشة فإنّ الله يسارع في هوى النبيّ الذي نرى جليّا هنا كيف يشرّع أفعاله بنفسه فينزّل فيها قرآنا. ولكن وكي نفهم الحيثيّات نعود إلى القصّة من البداية وقبل أن يتزوّج بها زيد أصلا: **ذهب النبيّ ليخطب على فتاة زيد بن حارثة فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها** [أي أنّ النبيّ أراد تزويج زينب لزيد] **قالت: لست بناكحته قال: بلى فانكحيه قالت: يا رسول الله أوامر في نفسي، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله: وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا، الآية، قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحا قال: نعم قالت: إذن لا أعصي رسول الله قد أنكحته نفسي** [209] وكما نلاحظ فقد رفضت زينب منذ البداية زيدا لأنّها خير منه حسبا، وجاء في رواية: **خطب رسول الله زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسبا وكانت امرأة فيها حدة فأنزل الله وما كان لمؤمن ولا مؤمنة** [210] إذن فلكي يجبر النبيّ زينب على الزواج أنزل قرآنا، والقرآن تدخّل مرّتين في أمرها: مرّة في تزويجها من زيد ومرّة في تطليقها منه وتزويجها من النبيّ! فالله ليس له من شغل إلاّ أن يطلّق هذا ويزوّج ذاك، وكانت زينب - وعلى ما يبدو - تطمع في الزواج من النبيّ، فليس من الغريب أن تكون قد أثارته تعمّدا منها وهو ما حدث فعلا،

---

[206] السيرة الحلبيّة / برهان الدين الحلبي/غزوة بحران، الكامل في التاريخ/ابن الأثير/ج2/ص 69 ، وراجع كتب التفسير.
[207] البداية و النهاية/ج4/ص166
[208] المصدر السابق
[209] الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور/السيوطي/تفسير سورة الأحزاب
[210] المصدر السابق

بل وأخبرت زيدا برغبة النبيّ فيها، وربّما فكّر زيد في حاله فهو في الأخير كان مملوكا للنبيّ و لا يستطيع أن يخالف أمر سيّده [خاصةً أنّ القرآن تدخّل و إذا رفض زيد فهو لا يعصي النبيّ فقط بل ويعصي الله، ثمّ إنّ زوجته لا تريده] والعجيب في الأمر هو أنّ النبيّ أرسل زيدا نفسه ليخطب له زينب! حيث قال النبي لزيد: **اذهب فاذكرها علي.** [أي اذهب واخطبها لي] **فانطلق حتى أتاها، وهي تخمر عجينها قال** [أي زيد]: **فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، إنّ رسول الله ذكرها، فوليتها ظهري، ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله بذكرك** [يقول لها أبشري، فإمّا أنّه مؤمن إيمانا قاطعا أنّ النبيّ لا يتصرّف من نفسه وأنّ الله هو الذي أمر بذلك، والله أعلم وأحكم منه حتّى وإن كان الأمر يخصّ زوجته، و إمّا أنّه لم يرد إغضاب النبيّ وهو سيّد نعمته وقال في نفسه أنّ النساء غيرها كثير كما أنّ القرآن ذكّره بقدره الحقيقيّ حين قال للنبيّ: وإذ تقول للذي انعم الله عليه وأنعمت عليه] **قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربّي** [211] و قام النبيّ بإعداد وليمة ثمّ دخل بزينب دون عقد زواج، **تقول زينب: فلمّا انقضت عدّتي لم أشعر إلا والنبي** [دخل عليّ] **وأنا مكشوفة الشعر فقلت: هذا أمر من السماء دخلتَ يا رسول الله بلا خطبة ولا شهادة؟ قال: الله المزوّج وجبريل الشاهد** [212] و يبدو أنّ النبيّ لم يستطع الصبر عليها فاختصر الإجراءات المعتادة ودخل في الموضوع مباشرة، وعدم صبر النبيّ على الجنس معروف حيث يذكر البخاري في صحيحه عن جابر قال: **أنّ رسول الله رأى امرأةً** [أي رأى امرأة في الطريق فتحرّكت في نفسه الشهوة] **فأتى امرأته زينب وهي تمعس منيئة لها فقضى حاجته** [أي عاد إلى زوجته زينب وجامعها] **ثمّ خرج إلى أصحابه فقال: إنّ المرأة تقبل في صورة شيطانٍ فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإنّ ذلك يردّ ما في نفسه** [213] لا داعي أن أعلّق على احترام النبيّ الشديد للنساء ووصفهنّ بالشيطان، إذن فقد دخل النبيّ بزينب زوجة زيد ابنه بالتبنّي سابقا، وبدعم من القرآن، وهكذا صار الله هو الذي يقوم بالتزويج [أي بلغة عصرنا المأذون] و صار جبريل من الشهود. و ربّما لا يهمّنا كثيرا زواج النبيّ أو أفعاله الشخصيّة بوصفه بشرا يحبّ ويعشق ويمكن أن يخطئ وهو حرّ في حياته الجنسيّة، لكن الغريب أن يتمّ وضع هذه الآيات في القرآن ومن ثمّ التعبّد بها فكأنّنا نتعبّد بمذكّرات محمّد الشخصيّة.

و قبل أن نمرّ إلى غزوة الخندق نعود قليلا إلى غزوة بني المصطلق والتي تزوّج فيها النبيّ من جويريّة ووقعت حادثة الإفك، فقد وقعت حادثة أخرى أيضا بين النبيّ وعبد الله بن أبيّ بن سلول فقد حدثت مشادّة بين شخصين على إحدى الغنائم، **فاقتتلا، فصرخ الجهنيّ: يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول** [غضب لأنّ بعض المهاجرين قاموا ضدّ الأنصار] **وعنده رهط من قومه فيهم : زيد بن أرقم، غلام حدث، فقال ابن سلول: أو قد فعلوها؟** [أي هل تجرّؤوا على ذلك؟] **قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا** [أي نحن من استقبلهم وضيّفهم في المدينة حتّى بدؤوا يتكاثرون علينا] **والله ما أعدنا** [ما أرانا] **وجلابيب قريش** [جلابيب قريش كانت صفة يطلقها البعض على المهاجرين تهكّما] **إلاّ كما قال**

---

[211] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج2/ص369

[212] الدرّ المنثور/السيوطي/تفسير سورة الأحزاب، و راجع البيهقي في السنن، و الطبراني في الكبير، والبخاري لا يتوسّع ويقول: **وجاء رسول الله ودخل عليها بغير إذن.**

[213] الجمع بين الصحيحين/ج2/ص301

الأوّل: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلا المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ (...) ثمّ أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمستكم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله [أي روى للنبيّ ما قاله ابن سلول] **(...) وعنده عمر بن الخطاب، فقال للنبيّ: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذّن بالرحيل (...) فارتحل الناس حين عرف ابن سلول أنّ النبيّ سمع ما قال حلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمتُ به - وكان في قومه شريفا عظيما - فقال من حضر رسول الله من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبا** [أي دفاعا] **على ابن أبي سلول** [214] تجدر الإشارة إلى أنّ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول اقترح على النبيّ قتل أبيه بنفسه فقال : **يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بدّ فاعلا فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه (...) فقال رسول الله : بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا** [215] وكما نرى فإنّ النبيّ لا يريد اغتيال عدوّه ومعارضه في الحكم، وهذا الأمر يستحقّ دراسة معمّقة لمعرفة علاقة النبيّ به، وإن كنّا نرجّح أنّ ذكاء النبيّ يمنعه من اغتيال رجل شريف في المدينة لئلاّ يوغر صدور أتباعه عليه.

[214] سيرة ابن هشام/ص670
[215] المصدر السابق

أغرب معركة في التاريخ

لكنّ بني النضير الذين تمّ إجلاؤهم إلى خيبر لم يسكتوا عن سلبهم أراضيهم وإخراجهم منها فاجتمع بعض سادتهم منهم سلام بن أبيّ الحقيق [سيقوم محمّد باغتياله فيما بعد] وحييّ بن أخطب [والد صفيّة زوجة النبيّ، سيأمر محمّد بقتله في غزوة بني قريظة] وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق [هو زوج صفيّة التي تزوّجها النبيّ سيقوم محمّد بتعذيبه وقتله في غزوة خيبر لأنّه لم يعترف بمكان وجود الكنز كما سيأتي لاحقا] وشخصان آخران، ذهبوا إلى قبائل غطفان وحرّضوها على غزو محمّد وإلى قريش وقبائل أخرى، **فخرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه. قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه (...) فلمّا قالوا ذلك لقريش سرّهم** [أي فرحت قريش لأنّ دينها خير من دين محمّد وهذا كلام غريب ويتّضح لنا أنّ الذي يروي الرواية متأخّر ويسقط قيمه الدينيّة على قيم أخرى قبله] **ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله فاجتمعوا لذلك واستعدّوا له** [لا أدري ما الذي يجعل قريش تنشط لمهاجمة النبيّ؟ إن كان من أجل الدين فهذا آخر ما تفكّر فيه وإن كان من أجل تأمين قوافلها فلماذا لم تخرج إليه قبل ذلك اليوم وكأنّها تنتظر من سيأتي و يشجّعها، عموما فإنّ السيرة تقدّم لنا قريشا- أحيانا- على أنّهم قوم أغبياء بعض الشيء! ولا أظنّ حقيقة الأمر كذلك] **ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب النبي، وأخبروهم أنهم يكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك واجتمعوا معهم فيه.** [216] و خرجت قريش وحلفاؤها في عشرة آلاف [بعض الروايات تقول عشرين ألف] فيهم خمسمائة فرس تقريبا وهذا الرقم [عشرة آلاف] رقم كبير بالنسبة للحروب العربيّة في ذلك الزمن [أرى أنّه مبالغ فيه] وحينما سمع النبيّ بخروجهم استشار أصحابه فأشار عليه سلمان الفارسيّ [217] بحفر الخندق [الخندق هي كلمة فارسيّة وليست عربيّة] في الشمال الغربيّ للمدينة و كانوا ثلاثة آلاف مقاتل.

<u>طول الخندق:</u>

لم تذكر المصادر التاريخيّة لا طول ولا عرض ولا عمق هذا الخندق وإن كانت قد أشارت إلى حدوده ونستطيع اليوم أن نقدّر طوله تقريبا حسب السمهودي الذي ذكر أنّ النبي خطّ الخندق من أجمة الشيخين في طرف الحرة الشرقية منازل بني حارثة إلى جبل بني عبيد (فالمذاد) أطم لبني حرام غربي مساجد الفتح طرف الحرة الغربية الشمالية، منازل بني سلمة. [218] و بالتالي يمكن أن يكون طوله كيلومترا واحدا وعمقه مترين أو ثلاثة وعرضه أربعة أمتار تقريبا.

---

[216] سيرة ابن هشام/ص621

[217] سلمان الفارسيّ هذا قصّة إسلامه معروفة و يبدو أنّه تعرّض لبعض المضايقات غير الظاهرة بعد وفاة النبيّ لأنّه ليس عربيّا, من طرف بعض أبناء الصحابة, كما يروي لنا ابن عبد ربّه/العقد الفريد/87/2: **وخطب سليمان الفارسي إلى عمر-ابن الخطاب- ابنته فوعده بها, فشق ذلك على عبد الله بن عمر فلقي عمرو بن العاص فشكا ذلك إليه.**
فقال له: سأكفيكه. فلقي سلمان فقال له: هنيئاً لك يا أبا عبد الله هذا أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل في تزويجك ابنته.
فغضب سلمان وقال: لا والله لا تزوجت إليه أبداً." و ربّما هذه من الروايات الشيعيّة التي تريد الطعن في عمر و ابنه.

[218] فصول من تاريخ المدينة المنوّرة/علي حافظ/ص219/طبعة2/1405هجري

حفر الخندق:

كان المسلمون قد اقترضوا المعاول والفؤوس وغيرها من بني قريظة لحفر هذا الخندق واستمرّوا في حفره ستّة أيّام، ومن ناحية جنوب المدينة ذهب حييّ بن أخطب إلى كعب بن أسد سيّد بني قريظة يطلب منهم التحالف مع قريش ومهاجمة المسلمين من الخلف ووصل الخبر إلى النبيّ أنّ بني قريظة خانوا العهد ولم يعودوا حلفاء معه ولكنّه أراد التأكّد فأرسل بعض أصحابه منهم سعد بن معاذ فقال : **انطلقوا حتى تنظروا، أَحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه** [أي إن كانوا نقضوا العهد فلا تتكلّموا أمام الناس الحاضرين معي بل أشيروا إليّ بطريقة سرّيّة أفهمها] **ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، فيما نالوا من رسول الله وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه** [لاحظوا كيف شتموا سعدا وشتمهم ورغم ذلك فالسيرة تقول فيما بعد أنّهم سيرضون النزول على حكم سعد] **وكان رجلا فيه حدّة، فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة. ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما، إلى رسول الله، فسلموا عليه، ثم قالوا : عضل والقارة، أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه** [أي أنّهم أكّدوا للنبيّ-بطريقة غير مباشرة- أنّ قريظة خانت العهد] **فقال رسول الله : الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.** [219] هنا تتجلّى مرّة أخرى قدرة محمّد القياديّة، فرغم أنّ الخبر الذي وصله كان من الممكن أن يجعله ينهار فإنّه صاح: أبشروا يا معشر المسلمين حتّى يعتقدوا أنّ قريظة لا تزال معهم. ويروي ابن كثير المحادثة بين سعد وبني قريظة: **ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير، أو أمرّ منه.** [ليتذكّر القارئ الكريم هذا الكلام جيّدا الذي قاله سعد] **فقالوا: أكلت أير أبيك.** [وهذه شتيمة أي اذهب و لتأكل إير أبيك] **فقال: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن** [220] ثمّ بعد ذلك تشاتموا أكثر.

و ستبدأ غزوة الخندق بين النبيّ و بين قريش و حلفائها، و هي أغرب معركة عرفها التاريخ! أو بالأحرى لم تحدث معركة وإنّما مجرّد تراشق بالحجارة والنبال و بعض المنازلات الفرديّة وهو ما يجعلنا نتساءل عن مدى مصداقيّة هذه الرواية فكيف لجيش يتكوّن من عشرة آلاف مقاتل في خمسمائة فارس أمام ثلاثة آلاف مقاتل يظلّون ينظرون إلى بعضهم البعض و يترامون بالحجارة والنبال؟

الجواب: إنّه الخندق فقد كانت خطّة سلمان الفارسي ناجحة.

لكنّ هذا الجواب ضعيف والدليل التالي: وهو أنّ الحصار حين طال بدأ يشتدّ على المسلمين ولكنّه يشتدّ أيضا على قريش و أحلافها حيث يلزمهم المؤونة التي ربّما لن تكفيهم كثيرا وكذلك

[219] سيرة ابن هشام/ص625، و يرويها ابن كثير/ج4/ص 119: نقلا عن موسى بن عقبة في المغازي: "قال موسى بن عقبة: ثم تقنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بثوبه حين جاءه الخبر عن بني قريظة، فاضطجع ومكث طويلاً فلشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع، وعرفوا أنه لم يأته عن بني قريظة خير، ثم إنه رفع رأسه وقال: (أبشروا بفتح الله ونصره)

[220] البداية و النهاية/ابن كثير/ج4/ص119

كيفيّة إطعام الجياد التي في الجيش، فقاموا بإرسال بعضا من الرجال منهم عكرمة بن أبي جهل إلى بني قريظة في نفر من قريش وغطفان وقالوا لهم: **إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمّدا** [221] ،أي أنّنا بدأنا نشكو من نقص المؤونة فهاجموا -يا بني قريظة-محمّدا من الخلف لنهاجم من الأمام وهذا عجيب فلننظر حيثيّات الوضع:

قريش تنتظر مهاجمة بني قريظة لكي تستطيع المهاجمة، فكم كان عدد مقاتلة بني قريظة؟

النقطة الأولى غير المنطقيّة: كانوا بين ستّمائة وتسعمائة، فكيف ينتظر جيش فيه عشرة آلاف مقاتل دعم ألف شخص أمام جيش بثلاثة آلاف مقاتل؟

النقطة الثانية غير المنطقيّة: لو سلّمنا بقصّة الخندق هذه فلماذا لم يرسلوا خمسة آلاف مقاتل [نصف الجيش مثلا] ليدخلوا من جنوب المدينة؟ فبنو قريظة إن هاجمت فستهاجم من الجنوب وقريش أرسلت إليهم فوجا من الفرسان تطلب مساعدتهم، أي أنّ قريشا تستطيع الذهاب حتّى بني قريظة و مخاطبتها فلماذا لا تهاجم بنفسها؟

لا جواب لدينا ونتابع مع السيرة لنرى كيف ستتخلّص من هذا المأزق: ويا محاسن الصدف جاء شخص إلى النبيّ من العدوّ وأخبره أنّه مسلم و يكتم إسلامه، فطلب منه النبيّ أن يجد خدعة لتثبيط عزائم المحاربين المحاصرين للمدينة، فذهب هذا الشخص واسمه "نعيم بن مسعود الأشجعي " [لاحظوا أنّ الأسماء التي ترد في السيرة في أغلب الأحيان تكون مطابقة للشخصيّة فهذا نعيم و مسعود وشجاع، فنعيم ومسعود لأنّه استطاع أن يجلب السعد ويفرّق المحاصرين وشجاع لأنّه ذهب بنفسه إلى الأعداء] قلنا ذهب إلى بني قريظة وكان نديما لبعضهم ويعرفونه [كما تزعم السيرة] وأشار عليهم أن يطلبوا من قريش ترك رهائن عندهم و ذلك حتّى لا تتراجع قريش أثناء المعركة و تترك اليهود لوحدهم فيختلي بهم النبيّ، فوافق بنو قريظة و قالوا: أشرت بالنصح. ثمّ ذهب إلى قريش وأخبرهم أنّ بني قريظة تنوي الغدر فقال لأبي سفيان ومن معه: **قد عرفتم ودّي إيّاكم وفراقي محمدًا وقد بلغني أنّ قريظة ندموا وقد أرسلوا إلى محمد قائلين: هل يرضيك عنّا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالًا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأجابهم** [أي محمّد]: **أن نعم فإن طلبت قريظة منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلًا واحدًا. ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: أنتم أهلي وعشيرتي. وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم.** [222] وهكذا وحين ذهب بعض من قريش إلى بني قريظة يطلبون منها الهجوم أجابتهم: **إنّ اليوم السبت لا نعمل فيه شيئًا ولسنا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا ثقةً لنا فإنا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل ونحن ببلاده. فلمّا أبلغتهم الرسل هذا الكلام قالت قريش وغطفان: والله لقد صدق نعيم بن مسعود فلوسلوا إلى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلًا واحدًا. فقالت قريظة عند ذلك: إن الذي ذكر نعيم بن مسعود لحقٌ.** [223] [و رفضوا القتال أيضا] أرأيتم كم هم أغبياء قريش وبنو قريظة؟ أو بالأحرى كيف تقدّمهم السيرة لنا؟ وبدأت قريش تعاني هي أيضا من الطقس العاصف والرياح فقرّروا الرحيل. قطعوا

---

[221] الكامل في التاريخ/ابن الأثير/ج2/ص74

[222] المصدر السابق

[223] المصدر السابق

كلّ هذه المسافة وما يلزمها من تكاليف ومصاريف وحاصروا المدينة ثمّ في الأخير عادوا لأنّ تسعمائة مقاتل لم يهاجموا معهم [!]

احتمال1= النبيّ راهن على طول الحصار وكان يعرف أنّهم لن يصمدوا كثيرا وهو ما حدث.[احتمال ضعيف]

احتمال2=تمّ تهويل جيش قريش ولم يكن بذلك العدد لذلك كانوا يريدون مددا من بني قريظة من الخلف.[احتمال ممكن]

احتمال3=لم يحدث شيء من كلّ هذه القصّة [أو تمّ تهويلها كثيرا] كتمهيد من كتبة السيرة لإعطاء تبرير لإبادة بني قريظة فيما بعد [احتمال قويّ]

و هكذا عادت قريش و انكشفت الغمّة عن المسلمين، و حين عاد النبيّ إلى بيته ووضع سلاحه ظهر له فجأة جبريل لتبدأ ملحمة أخرى.

الإبادة

ربّما لو وضعنا كلّ أحداث السيرة في كفّة وهذا الفصل في كفّة لرجحت كفّته.

إنّه ذروة الحدث والطبقة المؤثّرة في هذا البناء الدراميّ العبّاسيّ، فنحن الآن في منتصف الأحداث تماما [السنة الخامسة أو السادسة للهجرة] وقد بدأت القصّة في خطّ تصاعديّ منذ هجرة الرسول، مع بعض المواقف المشوّقة أحيانا ولكنّ البناء الدراميّ كان يتقدّم رويدا رويدا في خطّ تصاعديّ حتّى يصل إلى قصّة بني قريظة [وهو ذروة الحدث] ثمّ يعود هذا الخطّ الدراميّ إلى النزول رويدا رويدا إلى وفاة الرسول.

أقول هذا لأنّ الأحداث التالية في هذا الفصل كانت مركّزة ومكثّفة من الجانبين كما أنّنا لو عددنا كلّ القتلى الكفّار في غزوات النبيّ جميعها [لمدّة عشر سنوات] لوجدناهم حوالي أربعمائة قتيل بينما هذه الغزوة وحدها تساويها ضعفين من حيث عدد القتلى، وفي يوم واحد، فنحن الآن في أعلى مرتبة هذا العمل الأدبيّ الروائيّ، نحن في ذروته.

تبدأ القصّة هكذا:

يعود النبيّ منهكا من جبل سلع بعد معركة الخندق إثر رحيل قريش وحلفائها والذين حاصروهم لأيّام عديدة، وما أن يدخل بيته [رواية تقول عند عائشة و رواية تقول أمّ سلمة] ويبدأ في غسل رأسه حتّى سمع طرقا على الباب، **فارتاع رسول الله ووثب وثبة منكرة** [لماذا خاف وشعر بالفزع؟] **وخرج النبي فخرجتُ في أثره** [عائشة التي تتكلّم] **فإذا رجل على دابة والنبي متكئ على معرفة الدابة يكلمه فرجعتُ فلمّا دخل النبي قلت: من ذلك الرجل الذي كنت تكلمه؟ قال: ورأيته؟ قلت: نعم. قال: ومن تشبهينه؟** [لماذا يسألها من يشبه هذا الرجل؟] **قلت: بدحية بن خليفة الكلبي. قال: ذاك جبريل عليه السلام أمرني أن أمضي إلى بني قريظة.**[224] حيث سأله جبريل قائلا: **أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال: نعم. فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعتُ الآن إلاّ من طلب القوم، إنّ الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم** [225] نرى أنّ النبيّ شعر بالفزع حين سمع طرقا على الباب وكذلك سأل عائشة عن شبه جبريل، وأرجّح أنّ هذه القصّة مركّبة أي أنّ بها بعض الإضافات من هنا وهناك وأميل إلى ما يرويه ابن كثير : **أنّ رسول الله لمّا رجع من طلب الأحزاب، وضع عنه اللأمة واغتسل واستحم، فتبدى له جبريل عليه السلام فقال: عذيرك من محارب إلاّ أراك قد وضعت اللأمة، وما وضعناها بعد. قال: فوثب النبي فزعاً.** [226] هذه الرواية أكثر منطقيّة، فقد تبدّى له جبريل، وليس طرق الباب، و لم يره غير النبيّ، لذلك شعر بالفزع حين ظهر له فجأة دون سابق إنذار، أو بالأحرى اعتقد أنّه ظهر له، وربّما هذا من عوارض الشيزوفرينيا كما أشرنا في بداية البحث.[227]

---

[224] المنتظم في التاريخ/ابن الجوزيّ/ج3/باب بني قريظة

[225] سيرة ابن هشام/ص633

[226] البداية و النهاية/ابن كثير/ج4/ص134

[227] راجع صفحة 17.

إذن فقد أمر النبيّ أحد الأشخاص أن يؤذّن في الناس ويجمعهم قائلا: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّينّ العصر إلاّ في بني قريظة. [228] واتّجه المسلمون إلى بني قريظة وضربوا عليهم الحصار و كانوا ثلاثة آلاف مقاتل وثلاثين فرسا.
وبدأ الحصار يطول فطلب بنو قريظة أن يرسلوا إليهم لبابة بن عبد المنذر[وهو حليفهم وله أملاك عندهم] ليسألوه ماذا سيفعل بهم النبيّ إن استسلموا فوافق محمّد وأرسل إليهم أبا لبابة: **فلمّا رأوه قام إليه الرجال، وأجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه، فَرَقَّ لهم، وقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، يقول: إنه الذبح، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه** [229] وهكذا فقد خاف بنو قريظة ولم يستسلموا، لكن هنا أمر غريب: إن كانوا رفضوا التسليم لأنّ أبا لبابة أخبرهم أنّهم سيتمّ ذبحهم فلماذا سلّموا فيما بعد؟ فهم ميّتون ميّتون؟ ولماذا لم يحاربوا على الأقلّ كآخر فرصة لهم في النجاة؟ ولننظر ماذا ينقل لنا ابن هشام، من الحوار الدائر بينهم في الحصن، سأرتّب كلامه بطريقة أخرى وأنظّمه: [230]

ثباتهم على دينهم:

قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم عليّ هذه فهلمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ؟

عدم تحللهم يوم السبت:

قال: فإن أبيتم عليّ هذه فإنّ الليلة ليلة السبت وإنّه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرّة قالوا : نفسد سبتنا علينا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت ، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ؟ قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .

صبرهم على البلاء:

قال كعب وما حاجتي إلى أن نقتل وتسبى ذرارينا ؟ قال حيي : ملحمة وبلاء كتب علينا ثم قال كعب: ما ترى، فإنا قد اخترناك على غيرك ؟ إنّ محمدا قد أبى إلاّ أن ننزل على حكمه أفننزل ؟ قال: نعم فانزلوا - وأومأ إلى حلقه هو الذبح.

---

[228] المصدر السابق
[229] المصدر السابق
[230] سيرة ابن هشام/ص634

تمسّكهم بالشهادة, و قضاؤهم الليل يدرسون التوراة:

فأمر بالسبي فسيقوا إلى دار أسامة بن زيد والنساء والذرية إلى دار ابنة الحارث وأمر رسول الله بأحمال التمر فنثرت عليهم فبلتوا يكدمونها كدم الحمر وجعلوا ليلتهم يدرسون التوراة ، وأمر بعضهم بعضا بالثبات على دينه ولزوم التوراة.

تثبيت بعضهم البعض:

قال حيي : اتركوا ما ترون من التلاوم فإنه لا يرد عنكم شيئا ، واصبروا للسيف .

امتحان إلهي لبني إسرائيل:

ثمّ أقبل على الناس(حيي بن أخطب) فقال يا أيها الناس لا بأس بأمر الله قدر وكتاب ملحمة كتبت على بني إسرائيل.

كلّ هذه المواقف التي نرى فيها بني قريظة أناسا متشبّثين بدينهم، مستعدّين للتضحية بحياتهم والموت من أجله، يبدو فيها الكثير من المبالغة [قد يكون الرواة هنا بعض من نجوا من الموت كعطيّة القرظي الذي أطلقوا سراحه لأنّه لم ينبت، أو ثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد وغيرهم من بني هدل وكانوا داخل الحصن ويتابعون الحوار ثمّ أسلموا حين استسلم بنو قريظة] ولكن نتساءل عن أسباب ذكرها في السيرة والتي هي في صالح بني قريظة وضدّ النبيّ الذي يبدو كشخص بلا قلب ولا رحمة؟

الجواب حسب رأيي: بالنسبة لنا تبدو هذه المواقف مؤثّرة، لأنّ قيمنا تختلف، وأكثر إنسانيّة، ولكنّ كتبة السيرة يعيشون في واقع آخر وهي الخلافة العبّاسيّة وقبلها الأمويّة، ولا يرحمون أعداءهم أبدا، وتلك قيم العصر حيث أنّ الحاكم خليفة الله في الأرض فما بالك بالنبيّ. كما لا ننسى أنّ المنطلق الدينيّ لكتبة السيرة يخوّل لهم ذكر هذه الأشياء فاليهود مسخهم الله قردة وخنازير- حسب اعتقادهم - و يستحقّون أكثر من ذلك، وكذلك لا ننسى المنطلق القومي لكتبة السيرة فالعرب – حسب اعتقادهم - أكثر قدرا ودمهم أكثر شرفامن اليهود وسائر الناس الذين يمكن إبادتهم – على معبد الله - هكذا دون أن تطرف لهم عين، فإذا التقت القوميّة المتطرّفة والنظرة الدينيّة المتطرّفة أنتجتا تطهيرا عرقيّا ، كإبادة الهنود الحمر من طرف المسيحيّين، أو مذابح صبرا وشاتيلا ودير ياسين في فلسطين أو مثلما حدث مع روما المسيحيّة وألمانيا النازيّة وإيطاليا الفاشيّة وإسرائيل الصهيونيّة الخ. فالتاريخ يحفل بالأمثلة.

ثمّ استسلم بنو قريظة فقام المسلمون بتكتيفهم وعزلوا النساء والصبيان في ناحية، فاختلف في أمرهم الأنصار بين مؤيّد قتلهم وبين رافض له، **فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت، يعنون عفوه عن بني قينقاع، حين سأله فيهم عبد الله ابن أبيّ** [231] فقال لهم محمّد: **يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ فقالوا نعم، فقال النبيّ: ذلك لسعد بن معاذ.**[232] لماذا اختار سعد بن معاذ

[231] البداية و النهاية/ابن كثير/ج4/ص135
[232] المصدر السابق

بالذات؟ هل يذكر القارئ الكريم أنّهم شتموه وشتمهم وأنّه هدّدهم بيوم أمرّ من يوم بني النضير حين ذهب إليهم أوّل مرّة؟ ثمّ إنّه أصيب في غزوة الأحزاب والدم ينزف منه ويكاد يشرف على الموت، أي أنّه - وبكلّ بساطة- سيختار الانتقام منهم وربّما اعتبرهم سببا غير مباشر في إصابته هذه، و قد أحسن النبيّ اختيار الرجل المناسب للمذبحة المناسبة. فذهب جماعة وحملوا سعدا وجاءوا به إلى النبيّ وهم يقولون:[أي الأوس] **يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله إنما ولّاك ذلك لتحسن فيهم، فلمّا أكثروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التي سمع منه** [لقد فهموا خطّة النبيّ وعرفوا أنّ سعدا سيحكم فيهم بالقتل] **فلما انتهى سعد إلى رسول الله والمسلمين، قال رسول الله: قوموا إلى سيدكم** [233] [لاحظوا كيف يخاطب النبيّ سعد بالسيّد و كأنّه يؤكّد على ضرورة احترام ما سيحكم به]

وحكَم سعد فقال : **عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، إنّ الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا: نعم.**

قال: وعلى من ها هنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ، وهو معرض عن رسول الله إجلالاً له، فقال رسول الله: نعم.

قال سعد: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء.

فقال رسول الله لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. [234]

فقام المسلمون بحفر خندق جديد بمعاول بني قريظة نفسها التي اقترضوها منذ شهر لحفر الخندق أثناء غزوة الأحزاب، **وأمر رسول الله فحبست بنو قريظة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم أمر بهم، فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم. فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعي لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل - وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فضربت أعناقهم.** [235]

---

[233] سيرة ابن هشام/ص637

[234] المصدر السابق، وفي البخاري ومسلم: قال **فإني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم فقال النبيّ لقد قضيت بحكم الله.**
والمقصود بالمقاتلة كلّ الرجال، لأنّ محمّدا عفا فقط على من لم ينبت (أي من لم ينبت شعرا في عانته) فهو لم يترك إلاّ الغلمان راجع مثلا سنن أبي داود والترمذي في صحيح سنن الترمذي للألباني، وابن ماجة رقم 541، وأحمد في المسند وابن سعد/ج2/ص76 بإسناد صحيح الخ... [السيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصليّة/ص462]

[235] المصدر السابق، وقطع أعناقهم في الخندق ثلّة ثلّة رواه أحمد في المسند، والترمذي وقال الألباني صحيح ا لخ..

هوامش من بني قريظة

خيانة :

حين ذهب أبو لبابة أخبر بني قريظة بأنّ النبيّ سيذبحهم، قالوا يا أبا لبابة: **أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله على ما صنعت، وعاهد الله أن لا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً.** [236] فقوله هذا اعتبره النبيّ خيانة لأنّه أخبرهم بما يضمره محمّد لهم، أي أعلمهم بأنّهم سيُذبحون لذلك تراجعوا عن الاستسلام و كلّفوا النبيّ أيّاما أخرى من الحصار.

عليّ والزبير وليس عمرا:

حينما حفر النبيّ خندقا قرب سوق المدينة أسند المهمّة لعليّ بن أبي طالب و الزبير بن العوّام بقطع رقاب بني قريظة، بينما جلس النبيّ يتابع المشهد : **فجعل عليّ والزبير يضربان أعناقهم بين يديه** [237] لماذا لم يأمر عمرا أيضا بالمشاركة؟ وأغلب الروايات تخبرنا أنّه كان قويّا وصارما حتّى أنّه يضرب النساء أيضا وليس الرجال فقط، إذ قام بضرب أخت أبي بكر حين مات: **لمّا تُوفي أبو بكر أقامت عليه عائشة النَوح فبلغ ذلك عمرَ فنهاهنَ فأبين. فقال لهشام بن الوليد: أخرج إلي بنت أبي قُحافة فأخرج إليه أم فَروة فعلاها بالدرّة ضرباً فتفرَقت النوائح** [238] ربّما كان جالسا مع أبي بكر والنبيّ بوصفهما جنرالاته، بصدد متابعة المحاكمة. وبالمناسبة فإنّ عمر بن الخطّاب كان أحول، فالحولان من قريش هم : **عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه وأبو لهب بن عبد المطلب** [أبو لهب أيضا كان من الموصوفين بالجمال، و سمّي بأبي لهب لتلهّب وجهه] **وأبو جهل بن هشام وزياد بن أبيه وهشام بن عبد الملك وأبان بن عثمان بن عفان وأبو حذيفة بن عتبة وعمرو بن عتبة يقال منه وعبيد الله بن عبد الرحمن وعبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي.** [239] نلاحظ أنّ أغلب الحولان من بني أميّة ممّا يجعلنا نشكّ في صدق هذه الرواية وأنّها موضوعة من العبّاسيّين لذمّهم ولكنّهم أقحموا فيها عمر بن الخطّاب أيضا فربّما الشيعة من وضعها وأقحموه فيها، وقد تكون الرواية كلّها صحيحة. ولا يهمّنا هنا شكلهم طبعا وإنّما أوردناها للطرافة حيث أنّ الإخباريّين لم يتركوا شيئا إلاّ وذكروه!

---

[236] البداية و النهاية/ابن كثير/ج4/ص138

[237] الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ج3/ص368، وروى نحوه أحمد في المسند، والألباني صحّحه في الترمذي، الخ..

[238] ابن عبد ربّه/العقد الفريد/ج2/ص67، و راجع المدائني/شرح نهج البلاغة/ج1/ص181، و البخاري في صحيحه يقول : **وقد أخرج عمر أخت أبي بكر حين ناحت**، و لا يذكر الضرب.

[239] المنمّق من أخبار قريش/البغدادي/الحولان من قريش، و يقول, ذاكرا من صار أعمى: **و من العميان من قريش : عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي والعباس بن عبد المطلب وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب وأمية بن عبد شمس وأبو سفيان وهو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس** الخ..

سبيّة النبيّ و بيع بعض السبايا:

و اختار النبيّ لنفسه امرأة من سبي بني قريظة اسمها ريحانة وعرض عليها الإسلام والزواج لكنّها رفضت، فبقيت معه دون إسلام ثمّ أسلمت فيما بعد: **وأخرجوا إليه رسلا رسلا فضربت أعناقهم فكانوا ما بين ستمائة إلى سبعمائة واصطفى رسول الله ريحانة بنت عمرو لنفسه وأمر بالغنائم فجمعت فأخرج الخمس من المتاع والسبي ثم أمر بالباقي فبيع في من يزيد وقسمه بين المسلمين** [240] وبعض السبي من النساء قاموا بإرساله إلى نجد لبيعهنّ هناك والشراء بثمنهنّ خيلا وسلاحا [241] نرى أنّه أرسل ببعض السبايا إلى نجد لبيعهنّ وشراء أسلحة و خيلا وقد يبدو لنا هذا متعارضا مع الغنيمة التي وجدوها عند بني قريظة: **ألفا وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفا رمح وألفاوخمسمائة ترس وحجفة وخمر وجرار سكر فأهريق ذلك كله ولم يخمس ووجدوا جمالا نواضح وماشية كثيرة** [242] فهم قد وجدوا أسلحة كثيرة فلماذا يشترون أسلحة أخرى؟ ربّما ذهب ثمن السبايا في الخيول أوّلا وبعض الأسلحة المختلفة أيضا.

النبيّ يشتم بني قريظة:

حين وصل النبيّ لمحاصرة بني قريظة صاح فيهم: **أجيبوا يا معشر يهود، يا إخوة القردة، قد نزل بكم خزي الله عز وجل فأجابوه : يا أبا القاسم لم تكن فحاشاً** [243] أي ليس من أخلاقك هذا الكلام.

اهتزاز العرش:

و بعد أن قرّ الله عين سعد في بني قريظة، توفّي، فجاء جبريل وكان لابسا عمامة من استبرق وأخبر النبيّ بالحادثة، و أنّ عرش الرحمن اهتزّ لموت سعد بن معاذ قائلا: **يا محمد من هذا الميّت الذي فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟ قال: فقام رسول الله سريعاً يجرّ ثوبه إلى سعد، فوجده قد مات رضي الله عنه.** [244] فجبريل يلبس عمامة أيضا ولكنّها نفيسة فهي من استبرق وهذا عاديّ أليس مقرّبا من الله؟ كما أنّ عرش الرحمن شخصيّا اهتزّ لموت سعد.

رفاعة بن شموال و حظّه السعيد:

و كان من بين الأسرى شخص اسمه رفاعة وكان مكتّفا في انتظار دوره فلاذ بسلمى ورجاها أن تتدخّل من أجله ووعدها أنّه سيأكل لحم الجمل [كان النبيّ كي يتأكّد من إسلام بعض اليهود يرى هل يأكلون لحم الجمل أم لا لأنّهم يحرّمونه] فنزل النبيّ عند طلبها و أطلقه [245]

---

[240] الطبقات الكبرى/ابن سعد/ج2/ص75، وذكر سبي ريحانة ابن هشام في السيرة، والطبري في تاريخه، وابن عبد البرّ في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة من ضمن زوجات الرسول [السيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصليّة/ ص463]

[241] تاريخ الرسل و الملوك/الطبري/ج3/ص366، و راجع البداية و النهاية/ج4/ص144، و سيرة ابن هشام ص639، ومغازي الواقدي/ج2/ص523، وابن عبد البرّ في الاستيعاب/ج2/ص47

[242] ابن سعد /الطبقات الكبرى /ج2/ص75

[243] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص163

[244] المصدر السابق، و البخاري يقول في صحيحه عن النبيّ أنّه قال : **اهتز العرش لموت سعد بن معاذ**

[245] المصدر السابق

قطع عنق إحدى نساء بني قريظة:

هذه المرأة اسمها نباتة امرأة الحكم [ربّما اختار كتبة السيرة اسم نباتة لها لأنّهم قاموا بقتل كلّ من أنبت من الغلمان، أي كلّ من نبت له شعر في عانته قتلوه لأنّه- حسب وجهة نظرهم- بلغ الحلم و أصبح رجلا] هذه المرأة قامت برمي رحى على أحد المسلمين أثناء الحصار فقتلته وتروي عائشة: **لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، والله إنها لعندي تحدث معي، تضحك ظهرا وبطناً، ورسول الله يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله فقلت لها: ويلك مالك؟ قالت: أقتل ! قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته، قالت: فانطلق بها فضُرِبتْ عنقها. وكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفتْ أنها تُقتل** [246]

حسن حظّ عطيّة القرظي:

كان النبيّ طلب بقتل كلّ الرجال أمّا الغلمان فكان المسلمون يأخذونهم و يكشفون على عوراتهم فمن وجدوا في عانته شَعْرا كتّفوه لتقطع عنقه والبقيّة يتمّ استرقاقهم ليعملوا عند المسلمين ويروي عطيّة قائلا: **كان رسول الله قد أمر أن يقتل من بني قريظة كل من أنبت منهم، وكنت غلاماً فوجدوني لم أنبت، فخلوا سبيلي.** [247]

[246] المصدر السابق، ورواه أحمد في المسند، وأبو داود في السنن.

[247] المصدر السابق، وراجع الهامش رقم 234

وثيقة المدينة

يقول ابن هشام متحدّثا عن هجرة النبيّ ووصوله إلى المدينة أوّل مرّة : **وكتب رسول الله كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم.** وكلّ كتب السيرة تتّفق على أنّ النبيّ كتب هذا الكتاب أو "الوثيقة التنظيميّة" حين هاجر إلى المدينة وحال وصوله [أي السنة الأولى للهجرة] ولكنّي أستبعد أن يكون استطاع كتابتها وقتها حيث كان ضعيفا ولم تتّبعه إلاّ القلّة القليلة التي بدأت تكبر شيئا فشيئا اعتمادا على الغزوات، وأرى أنّه كتبها بعد أن أباد بني قريظة وطرد بني النضير وبني قينقاع وصار هو الحاكم الأوّل في المدينة وأصبحت له القدرة على كتابة القوانين التنظيميّة فيها [سنة ستّة للهجرة على أقلّ تقدير، هذا إن لم يكن بعدها] وسأورد هذه الوثيقة بالتحليل حيث قمت بترقيمها وتبويبها لتكون أسهل في القراءة. وهو نصّ طويل ولا أدري إن قام أحد قبلي بهذا العمل في العربيّة [صاحب الفكرة الأوّل هو Wensinck سنة 1908] و قد رأيت أنّها فكرة جيّدة وأسهل في القراءة.

النصّ:

1- بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم

2- إنهم أمة واحدة من دون الناس

1/3- المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين

2/3- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

3/3- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

4/3- وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

5/3- وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

6/3- وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

7/3- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

8/3- وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

9/3- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين
4- وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه
5- وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظُلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين
6- وإن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم
7- ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن
8- وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم
9- وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس
10- وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم
11- وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم
12- وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضا
13- وإن المؤمنين يُبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله
14- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه
15- وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن
16- وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول
1/16- وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه
17- وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر مُحْدثا ولا يُؤويه
1/17- وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل
18- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم
19- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين
20- وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يُوتِغُ إلا نفسه ، وأهل بيته
1/20- وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف
2/20- وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف
3/20- وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف
4/20- وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف
5/20- وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف

6/20- وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ؛ إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يُوتغ إلا نفسه وأهل بيته

7/20- وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم

8/20- وإن لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوف

9/20- وإن البر دون الإثم

10/20- وإن موالي ثعلبة كأنفسهم

11/20- وإن بطانة يهود كأنفسهم

1/11/20- وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم

21- وإنه لا ينحجز على نار جرح

22- وإنه من فتك فبنفسه فتك ، وأهل بيته ، إلا من ظلم

23- وإن الله على أبر هذا

24- وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم

1/24- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة

2/24- وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم

25- وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه

26- وإن النصر للمظلوم

27- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين

28- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة

29- وإن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم

30- وإنه لا تجُار حُرمة إلا بإذن أهلها

31- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخُاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

32- وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره

33- وإنه لا تجُار قريش ولا من نصرها

34- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه

1/34- وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلَهم

35- وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة . مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة .

36- وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه

37- وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره

38- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم

39- وإنه من خرج آمنٌ ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم
40- وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

هذا هو الكتاب [248] أو المعاهدة و قد قسّمته إلى أربعين فصلا الفصول من 3-1 إلى 3-9 تذكر القبائل الحاضرة في هذا الحلف. من 4 إلى 18 تنظّم القوانين الداخليّة في حاليْ الحرب و السلم. من 19 إلى 20 و 24 و 27 و 35 يذكر القبائل اليهوديّة الحاضرة. و البقيّة تذكير و تأكيد على ضرورة احترام هذه المعاهدة.
وكما نرى فالوثيقة رغم ذكرها لكلّ القبائل اليهوديّة الموجودة فهي لا تذكر أهمّ هذه القبائل وأثقلها وزنا، أي قبائل بني قينقاع والنضير وقريظة، والأمر واضح فلم تعد هذه القبائل موجودة في المدينة لذلك لا يوجد داع لذكرها وبالتالي فقد رأيت أنّ هذه الوثيقة لم تُكتب في السنة الأولى للهجرة كما يشير الإخباريّون بل بعد السنة الخامسة للهجرة وخلوّ الميدان للنبيّ ولكن قبل السنة السابعة وذلك لسببين:

لا يذكر فيها بني قينقاع والنضير وقريظة	يذكر فيها عداءه لقريش
⇩	⇩
لم يعودوا موجودين	قبل صلح الحديبيّة
⇩	⇩
بعد السنة الخامسة	قبل السنة السابعة

و سنتعرّض لتحليل هذه الوثيقة بوصفها كتبها محمّد أو أشرف على كتابتها وملاحظة كيفيّة التنظيم الداخلي في المدينة.
أصالة هذه الوثيقة تبدو جليّة لنا من لغتها التي تبدو معاصرة للنبيّ و لعدم وجود تجميلات كثيرة عليها، فدور محمّد فيها [وإن كان يبدو كالمشرّع وواضع دستور] فإنّه ظلّ دورا معقولا مواكبا للأحداث، بعكس ما سيحدث فيما بعد حيث سيتمّ تضخيم سيرته ودوره بطريقة لا معقولة.
و قد بقيت بعض الروايات [عن دور النبيّ المعقول] كصدى في الذاكرة، انتقلت فيما بعد إلى الأحاديث كقول عائشة للنبيّ مرّة وهي غاضبة: **أنت الذي تزعم أنّك نبي الله، فتبسّم رسول الله واحتمل ذلك حلماً وكرماً.**[249] لاحظوا قولها : ‘‘ أنت الذي تزعم‘‘ ولاحظوا تعليق ناقل الرواية : ‘‘ فتبسّم النبيّ حلما و كرما‘‘ وكذلك حين اختصمت مع النبيّ : **وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكماً واستشهده فقال لها رسول الله تكلّمين أوْ أتكلم فقالت: بل تكلم أنت ولا تقل إلاّ حقاً، فلطمها أبو بكر حتى دمى فوها وقال: يا عدية نفسها أوَ يقول غير الحق! فاستجارت برسول الله وقعدت خلف ظهره فقال له النبي لم ندعك لهذا ولا**

[248] سيرة ابن هشام/ص353
[249] أبو حامد الغزالي/إحياء علوم الدين/ج2/باب أدب النكاح، والعسقلاني في كتابه ‘‘المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية‘‘ /ج8/ص188: **قالت فقلت ألست تزعم أنك رسول الله قالت فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال أفي شك أنت يا أم عبد الله؟ قالت قلت ألست تزعم أنك رسول الله فهلا عدلت وسمعني أبو بكر رضي الله عنه وكان فيه غرب أي حدة فأقبل علي فلطم وجهي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلا يا أبا بكر فقال يا رسول الله أما سمعت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الغيرى لا تنظر أسفل الوادي من أعلاه.**

أردنا منك هذا. [250] أو قولها المشهور: **إنّ ربّك يسارع في هواك،** كإشارة منها إلى نزول الوحي في زواجه من زينب زوجة زيد. وكذلك قول بعضهم حين أراد النبيّ أن يكتب لهم كتابا قبل وفاته أثناء احتضاره: **قال رسول الله ائتوني باللوح والدواة أو الكتف أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا فقالوا رسول الله يهجر.** [251] [أي قالوا إنّه بدأ يخرّف] وغيره من المواقف التي يضيق المقام عن ذكرها هنا وإنّما هي عيّنات لنشير إلى الرؤية ''المعقولة'' التي كان يعامله بها معاصروه رغم الكثير من التزيينات هنا وهناك.

ذكَرَ هذه الوثيقة بنصّها الكامل:

1-ابن هشام في السيرة نقلا عن ابن إسحاق

2-ابن كثير في البداية و النهاية نقلا عن ابن إسحاق

3-ابن سيّد النّاس في عيون الأثر نقلا عن ابن اسحاق

4-أبو عبيد في كتاب الأموال نقلا عن ابن شهاب

النصّ الذي ذكره أبو عبيد يختلف في بعض أجزائه عن نصّ ابن إسحاق.وهو ما سنتناوله فيما بعد.

قلنا أنّ ابن هشام وابن كثير وابن سيّد الناس نقلوا النصّ عن ابن إسحاق [من سيرة ابن إسحاق المكتوبة والتي لم تصلنا] وبالتالي فمنطقيّا أن تكون نصوصهم متطابقة بما أنّهم ينسخون عن مصدر واحد. لكنّهم ليسوا متطابقين في بعض المواضع! وهذا هو التجميل الذي يقوم به كتبة السيرة و الذي أشرت إليه، أي وجود معلومة أصليّة صحيحة يتمّ إضافة أو حذف بعض منها لتوافق المنحى الإيديولوجي السائد، وسأعطي للقارئ مثالا عن هذا التجميل وذلك بالقيام بأركيولوجيا كتابيّة، وسأضع سطرا تحت الاختلافات:

نصّ ابن كثير، البداية و النهاية، نقلا عن ابن إسحاق، المقدّمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من <u>محمد النبي الأمي</u> بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم

نصّ ابن هشام، السيرة النبوية، نقلا عن ابن إسحاق، المقدّمة:

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من <u>محمد النبي صلى الله عليه وسلم</u> ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم

نصّ أبي عبيدة، كتاب الأموال، نقلا عن ابن شهاب، المقدّمة:

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من <u>محمد النبي رسول الله</u> ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ،فحلّ معهم وجاهد معهم

---

[250] أبو حامد الغزالي/إحياء علوم الدين/ج2/باب أدب النكاح

[251] مسند أحمد بن حنبل/عن عبد الله بن عبّاس، و يرويها البخاري و غيره من رجال الحديث و بعض الروايات تنسب الكلام لعمر فقط

ابن كثير أضاف كلمة ‘‘الأميّ‘‘ و لم يكتب ‘‘صلّى الله عليه و سلّم‘‘ ولو كانت موجودة لنسخها. وبالتالي ابن هشام و أبو عبيدة أضافا ‘‘رسول الله و صلّى الله عليه و سلّم‘‘ فمحمّد مذكور باسمه فقط و بصفة النبوّة أي ‘‘محمّد النبيّ‘‘ لأنّ ذكر الصلاة و السلام عليه -كلّما ذُكر اسمه- متأخّرة و كذلك أميّته. فيكون نصّ ابن اسحاق الأصليّ هو التالي:

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ،فحلّ معهم وجاهد معهم.)

وهي الجملة التي تتّفق فيها النسخ الأربع.

كما أنّ اسم محمّد مقرون بصفة النبوّة مذكور فقط في بداية الوثيقة أمّا في بقيّة الفصول فلا يذكر إلاّ اسمه فقط، وهو ما نراه في نسخة ابن سيّد الناس، مثلا:

(مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله والى محمد وان اليهود يتفقون مع المؤمنين)

أو **(وانه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد وأنه لا ينحجر عن ثأر جرح)**

والمسلمون أثناء حياة محمّد - وهو ما تبيّنه النقوش الأثريّة- كانوا يسمّون بالمؤمنين ولنا أن نتساءل عن سبب ذكر المؤمنين مع المسلمين في بداية هذه الوثيقة، خاصّة إذا لاحظنا أنّ باقي النصّ يستعمل كلمة ‘‘المؤمنين‘‘، و قد تكون كلمة ‘‘المسلمين‘‘ إضافة من الناسخين الثلاثة وقد تكون أصليّة إذا أخذناها في إطارها التاريخيّ بمعنى ‘‘الذين تصالحوا على‘‘، فجذر المسلمين هو ‘‘سلم‘‘ و السلم في لغة قريش هو الصلح. [252]

أي بين المؤمنين الذين هم رجال الدعوة وبين المسلمين الذين تصالحوا معهم على....

على ماذا تصالحوا معهم؟

تصالحوا معهم على تكوين أمّة وعلى الجهاد. وهو ما توضّحه الكلمات التالية:

(بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ،فحلّ معهم وجاهد معهم)

حلّ معهم أي انتمى إليهم، وهذا نجده في الفصل الثاني مباشرة من هذه الوثيقة:

(إنهم أمة واحدة من دون الناس)

وجاهد معهم واضحة وتشير إلى التوجّه الديني للنبيّ وأوّله الجهاد ونشر الدين. كقوله : **أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله،** رواه كلّ رجال الحديث.

وغزو محمّد القبائل وحمله السيف مُثبت من مصدر خارجيّ أيضا مثل ‘‘دوكترينا جاكوبي‘‘ المكتوبة باليونانيّة بين سنوات 634 و 640 ميلادي أي معاصرة للأحداث وجاء فيها:

يقولون أنّ النبيّ الذي ظهر مقبل مع العرب (...) فذهبت أنا ابراهيم إلى شيخ مطلع للغاية على الأسفار المقدسة وسألته: "ما رأيك، أيها السيّد والمعلم، بالنبي الذي ظهر بين العرب؟" أجاب، وهو يتأوه من أعماقه: "إنه نبيّ كاذب. وهل يأتي الأنبياء بسيف ومركبة حربية؟ إن هذه الأحداث اليوم هي حقاً أعمال فوضى... لكن اذهب، يا سيد ابراهيم، واستعلم عن النبي

---

[252] لغات القبائل في القرآن/أبو عبيد القاسم بن سلام/عن قوله‘‘إن جنحوا للسلم‘‘ /مكتبة الشاملة الإلكترونيّة

الذي ظهر". وهكذا، قمت أنا، ابراهيم، بتحرياتي، وأخبرني أولئك الذين التقوه أنّه ليس ثمة من حقيقة يمكن أن توجد عند هذا النبي المزعوم، سوى قتل الرجال، وإراقة الدماء.[253]

قد يجد البعض غرابة في قولي أنّ كلمة ‘‘المسلمين‘‘ المذكورة في هذه الوثيقة تعني ‘‘الذين تصالحوا على‘‘. وقد يقول قائل أنّ ‘‘المسلمين‘‘ تعني الذين أسلموا [وجوههم] لله وسلّموا به إلها. وأنا لا أختلف معهم في هذا الشأن وإنّما علينا أن نضع الكلمة في سياقها المستعمل ونبحث عن دلالاتها التاريخيّة. فالوثيقة تقول: (**هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.**) وحرف العطف بين ‘‘المؤمنين‘‘ و‘‘المسلمين‘‘ للتخصيص و معناه أنّ المؤمنين يختلفون عن المسلمين [مع الإشارة إلى أنّ هذا المعنى تغيّر فيما بعد وصار المسلمون والمؤمنون شيئا واحدا، واللغة تتطوّر وتختلف الدلالات من عصر إلى عصر] قلنا هناك اختلاف كقول القرآن: **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** [أي لم يدخل الإيمان قلوبكم بعد] فهؤلاء الأعراب هم مسلمون ولكنّهم ليسوا مؤمنين بعد. كيف يكونوا مسلمين ولكن ليسوا مؤمنين؟

هذا هو بالتحديد المعنى الذي نجده في هذه الوثيقة وهو أنّ المسلمين هم الذين تصالحوا مع محمّد على فعل كذا وكذا، حيث أنّ محمّدا كان واعيا بانضمام المحاربين إليه للحصول على الغنيمة وليس لأنّهم آمنوا فعلا، بينما المؤمنون هم الذين آمنوا فعلا أي أنّهم في مرتبة أعلى من المسلمين، ولفظ المسلمين هنا يختلف عن معنى قوله عن إبراهيم ‘‘كان حنيفا مسلما‘‘ وبالتالي نفهمها حسب السياق، ولذلك فإنّ ‘‘السلم‘‘ في لغة قريش يعني ‘‘الصلح‘‘ كما نجد مثلا في القرآن قوله ‘‘بئسما اشتروا‘‘ وهي من لغة قبيلة هذيل وتعني:‘‘ بئسما باعوا‘‘ [254] أو قوله: ‘‘تعضلوهنّ‘‘ وهي بلغة أزد شنوءة وتعني ‘‘تحبسوهنّ‘‘، أو قوله ‘‘تفشلا‘‘ وهي بلغة حمْير وتعني ‘‘تخافا‘‘ الخ.. فالسلم في لغة قريش يعني الصلح .

نواصل : [الوثيقة كنت وضعتها مرقّمة أعلاه لمن يودّ الرجوع إليها]

الفصول من 2 إلى 3-9 يذكر فيها أسماء القبائل الحاضرة و الموقّعة [كلّ النسخ متطابقة]

و في الفصول من 20 إلى 20-11 يذكر اليهود الذين في المدينة والمتحالفين مع بعض بطون من الأوس والخزرج، فالمدينة لم يكن فيها فقط قينقاع والنضير وقريظة.كما تجدر الإشارة إلى أنّ اسم الخزرج غير مذكور في هذه الوثيقة ولا مكّة ولا الكعبة.

يقول في الفصل 28:

(وإنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة)

و هنا نتساءل: أين توجد يثرب؟ قد يبدو السؤال مجّانيّا و يكون الجواب و بكلّ تأكيد: يثرب هي المدينة. و لكن هذا ليس صحيحا، أو بالأحرى ليس دقيقا. فيثرب هي مكان معيّن في المدينة أو خارج المدينة ويقول ياقوت الحموي: **ثمّ اختلفوا فقيل إنّ يثرب من الناحية التي منها مدينة الرسول قال آخرون بل يثرب ناحية من مدينة النبي عليه السلام** [255] أي أنّ يثرب جزء

---

[253] Hoyland/Seeing/p 57 ; Doctrina Jacobi/ V 16/ Déroche /p208-209 ; انظرْ النصّ كاملا صفحة206

[254] المصدر السابق

[255] ياقوت الحموي/معجم البلدان/حرف الياء/مكتبة الشاملة

من المدينة أو المدينة جزء من يثرب. ويثرب مذكورة منذ القرن السادس قبل الميلاد في نقوش في حران ومذكورة أيضا في مواضع أخرى في أزمنة متفرّقة Athrippa و Yathrippa الخ.. وموقعها في شمال الجزيرة العربية ونرجّح أنّها هي نفسها يثرب الحالية مقام حديثنا [مع بعض التحفّظ لأنّ اسم يثرب المذكور في النقش الملك البابلي ‘‘نبونيد‘‘ موجود مع أسماء مناطق أخرى كتيماء وديدان ممّا يوحي بأنّ يثرب موجودة في شمال الجزيرة العربيّة قرب هذه المناطق وهو المكان الذي ذهب إليه الملك البابليّ ‘‘نبونيد‘‘ قبل عودته إلى بلاد الرافدين وبنائه معبد إله القمر في حرّان [256]] أمّا المدينة فهي تشير إلى قرى عديدة تنضوي تحتها أي أنّ المدينة تجمع يثرب ومناطق أخرى بسبب اتّساعها وكثرة أعداد ساكنيها. فالقول الثاني لياقوت الحموي أنّ يثرب جزء من المدينة هو الأصحّ.

و نجد كلمة ‘‘المدينة‘‘ مذكورة في هذه الوثيقة: الفصل 39: نسخة ابن هشام:

(وإنه من خرج آمنٌ ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم)

نلاحظ أنّ ابن هشام أضاف هذه الكلمة من عنده، حيث لا تذكرها نسخة أبي عبيد:

(وإنه من خرج آمنٌ ، ومن قعد آمن ، إلا من ظلم أو أثم)

فمحمّد بدأ يحكم يثرب [منطقة في المدينة] ولم يتوسّع تماما إلى كلّ المدينة، وقد تكون كلمة ‘‘المدينة‘‘ إضافة إسلاميّة لاحقة حيث سمّوها: مدينة النبيّ. ولكنّي أرجّح وجودها منذ البداية بسبب وجود اليهود فيها وهي كلمة توراتيّة. وما يدعّم طرحنا هو ذكر ابن شبّة واصفا أسواق المدينة قائلا: **وكان في الجاهلية سوق بزبالة من الناحية التي تدعى يثرب، وسوق بالجسر في بني قينقاع** [257] وكلّ المصادر الخارجيّة المعاصرة تشير إلى أنّ النبيّ خرج من يثرب ولا تذكر إطلاقا مكّة ولا المدينة إلاّ تاريخ خوزستان المكتوب بالسريانيّة سنة 660 ميلادي يذكر اسم المدينة ويقول تسمّى أيضا يثرب، لكنّه يجعلها في منطقة مدين ناحية الشمال[258]

ودور النبيّ التشريعيّ أو التنظيميّ مُثبت أيضا من مصدر خارجيّ معاصر وهو تاريخ ‘‘سبيوس‘‘ الذي يعود إلى سنة 660 ميلادي على أقصى تقدير، وجاء فيه : **كان هنالك في ذلك الوقت اسماعيلي اسمه مهميت [محمد] وكان يعمل تاجراً، لقد قدّم لهم نفسه، كما لو أن الله أمره بذلك، كبشير، كطريق إلى الحقيقة، وعلّمهم كيف يعرفون إله ابراهيم، لأنه كان مطلعاً على قصة موسى وملمّاً بها للغاية. ولأن الأمر جاء من العلى، فقد توحّدوا كلهم تحت سلطة رجل واحد، في ظل شرع واحد** [259]

الوثيقة تنتهي هكذا:

ابن هشام:

(وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)

---

[256] Premare/Fondations/p99 citation : H.Hayajneh/Seminar for Arabian Studies/31/Brepols/2001

[257] تاريخ المدينة/ أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري/دار الفكر/تحقيق محمد شلتوت/1410 ه/ج1/ص306

[258] Premare/Fondations/p100 citation : Chronica minora, texte syriaque, p38

[259] Histoire d'Héraclius/l'Evêque Sebeos/ch30 ; انظرْ النصّ كاملا صفحة204

هذه الجملة أضافها ابن هشام كاملة [خاصّة قوله ومحمّد رسول الله الخ] بينما تتوقّف نسخة أبي عبيد عند قوله:
(وإنّ أولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن.)

إذن و للتلخيص:
1- النبيّ لم يكن بالصورة التي رسمها الإخباريون فيما بعد من حيث تعظيمه وتضخيمه وجعله المصطفى وغيرها من الألقاب.
2- النبيّ من يقوم بالتشريع والتنظيم.
3- يملك وعيا يفرّق بين المؤمنين [بقضيّته أو نبوّته] وبين المتحالفين معه لمصالح ماليّة تدرّها الغنائم.
4- الجهاد من ركائز هذه الأمّة [المجموعة]التي يكوّنها.
5- التعامل بحذر مع اليهود وإنذارهم في كلّ لحظة رغم أنّهم كانوا من الموالين له في البداية وكانوا يشاركون معه في الغزوات إذ جاء في مصنّف أبي شيبة: **كان اليهود يغزون مع رسول الله فيسهم لهم** [260] هذا دون أن نذكر النصوص الأجنبيّة. [261]

[260] مصنف أبي شيبة/دار الفكر/1994/ج7/في الاستعانة بالمشركين
[261] راجع صفحة 29.

آراء بعض المستشرقين في بني قريظة

جمع René Marchand [262] بعض هذه الآراء [سأنقل كلامه دون تدخّل منّي] وسأجعل كلامه بالخطّ المائل و بالخطّ الغامق الاقتباسات التي أشار إليها.

(النصّ) :

هؤلاء المستشرقون الغربيون الذين يصدّقون كلّ ما يكتبه العبّاسيّون، هل أحسّوا بالإحراج؟ حول الأسباب المباشرة لهذه المذبحة؟ إنّهم [أي المستشرقون] يصدّقون كلّهم تبريرات كتبة السيرة حول مذبحة قريظة، دون تفكير أو تمحيص، لكنّهم يجدون أنفسهم مجبرين على تقديم بعض التعليقات:

Roger Caratini في كتابه ''محمّد'' يبدأ ومنذ الصفحات الأولى في تبرير فعلة محمّد، بل يكاد يثني عليه ويمدحه قائلا: **سياسيّا، فإنّ الأحداث التي سنراها الآن تفرض نفسها، فالنبيّ المنتصر في غزوة الخندق يجب أن يقوم بالاستفادة من الموقف.** *وبعد أن قام Caratini بعرض الأحداث بنزاهة يخلص قائلا:* **إنّه إنذار لكلّ العرب واليهود و الوثنيين، إن حاولوا الوقوف أمام القوّة الصاعدة في المدينة.** *وهذا صحيح و لكنّه إنذار بالإرهاب! ويضيف قائلا هذه الجمل العجيبة:* **ليست مذبحة أفريل 627 ميلادي علامة على سياسة ضدّ-يهوديّة anti-juive من طرف محمد، لأنّها لو كانت كذلك لتعارضت بلا شكّ مع وثيقة المدينة.** *ويلاحظ قائلا:* **فبعد بني قريظة بقي يهود في المدينة لم يقع تهديدهم ولا الاعتداء عليهم.** *لكنّه تجاهل أن يشير إلى أنّ اليهود الباقين في المدينة كانوا قلّة وتحت السيطرة الكاملة للقبائل العربيّة وأنّه لم يعد هناك يهود يمتلكون قوّة، وأنّه على كلّ حال يجب أن يُبقي العرب على بعضهم ليقوموا بالاشتغال في أراضيهم التي سلبوهم إيّاها.*

Philippe Aziz في كتابه حياة و تعاليم محمد يقول: **لا شيء يعكّر صفو كتبة السيرة وهم يروون هذه القصّة بكلّ برود وطمأنينة بل أنّ بعض الإخباريين استشهد بآية من سفر التثنية ليبرّر هذه المذبحة الرهيبة.** *لا أدري من هم هؤلاء الإخباريون الذين استشهدوا بالتوراة فلم يذكرهم الكاتب كما أنّه لم يذكر كذلك سبي ريحانة.*

أمّا Virgil Gheorghiu في كتابه حياة محمد فيقول: **لم يكن محمّد يريد فعلا أن يقوم بهذه المذبحة.** *هذا الكلام تلفيق مقرف، وبعد أن يقوم الكاتب بعرض الأحداث بسرعة في عشرة سطور يخلص قائلا:* **العمليّة لم تكن مبيّتة بسبق إصرار، والأحداث وقعت هكذا.** *هذا الكاتب صاحب كتاب ''الساعة الخامسة والعشرون'' و الذي فيه فضح الشموليّة الأوروبية نراه هنا يميل إلى محمّد.*

Jean Prieur في كتابه'' نبيّ المشرق و المغرب'' لا يذكر أصلا غزوة بني قريظة، فهو يمرّ من غزوة الخندق سنة 627 إلى سنة 628 مباشرة وبينهما يجعل عشرين صفحة يحاول الكاتب أن يبرهن فيها على أنّ تعاليم محمّد ما هي إلاّ تذكير بالحقائق الكبرى التي جاء بها يسوع وتمّ

---

[262] Rene Marchand/Mahomet/p374, op.cit

نسيانها. ها هو غربيّ آخر كتب أكثر من ثلاثين كتابا حول الغيبيّات والروحانيّات، نجده حين يتكلّم عن نبيّ الإسلام, يفقد فجأة كلّ نزاهته و قدرته على التحليل.
Watt المتخصّص يساوي كلامه كلام Gheorghiu غير المتخصّص فيقول أنّ عقوبة محمّد لليهود ‘‘**كانت عفويّة و غير مجهّزة من البداية**‘‘ *ويقول أنّ النبيّ كان له أسباب وجيهة ليفعل ذلك.*

أمّا Maxime Rodinson في كتابه ‘‘محمد‘‘ فلِنّ كلامه أخطر حيث يقول: **من الصعب الحكم على مذبحة قريظة، حيث يجب أن نتفادى الإسقاط الزمني لرؤيتنا على عصر سابق كانوا فيه أكثر غلظة.** *لا توجد مفاجأة إلى حدّ الآن و لكنّه بعد أن يُشير قائلا*: **التفاصيل التي بين أيدينا تجعلنا نصدّق بصعوبة براءة النبيّ.** *فإنّه و للأسف يقول*: **القرار الذي تمّ اختياره** [بقتل بني قريظة]**هو بلا شكّ الأحسن والأكثر فعّاليّة، فسياسيّا وعند الفجر الأحمر لشهر ماي 627 ميلادي يستطيع محمّد أن ينظر بكلّ ثقة إلى المستقبل.** *هذه هي الكلمات الأخيرة التي ينهي بها فصل ‘‘النبيّ المسلّح‘‘ في كتابه محمّد.*
قصّة هذه المذبحة غائبة تماما عن القواميس والموسوعات الأوروبية الموجّهة للجمهور العريض، وفي فرنسا غير موجودة في القاموس الموسوعي الكبير Hachette في باب سيرة محمد، ولا في القاموس المبوّب المتكوّن من 24 مجلّدا، ولا في Petit Robert ولا في Essentiels ولا Robert Laffont ولا في القواميس التاريخيّة التي قد تكون أكثر توسّعا كقاموس Dominique Vallaud ولا في سيرة محمّد في موقع معهد العالم العربي ولا -طبعا- في دروس التاريخ الموجّهة لطلبة التعليم الثانوي .
كلّهم - القواميس والموسوعات على العموم- يشيرون قائلين: محمّد قام بإخراج اليهود من المدينة. نعم هذا صحيح و لكن إخراجهم للعالم الأخر، إن جاز لنا القول، لبعض المئات منهم.
(انتهى نصّ الاقتباس.)

قد يبدو الكاتب متحاملا على النبيّ بمعارضته الحادّة لآراء المستشرقين الآخرين، وقد يبدو محقّا -بالنسبة إلى غير المسلمين- في كلامه هذا. إنّما علينا أن ننظر إلى المسألة بعين أخرى وهو أنّ الذين يجدون هذه التبريرات فإنّهم يضعونها في سياقها أي:
-علينا قراءة التاريخ بعين الماضي و ليس بعين الحاضر.
-محمّد ليس نبيّا وإنّما هو شخص ‘‘سياسيّ‘‘ محارب.
أي أنّهم يتحدّثون عنه كما يتحدّثون عن الاسكندر أو نابليون أو غيرهما، ويحاولون تفسير الدوافع السياسيّة والعسكريّة بمعزل عن الدين وإنّما كشخصيّة تاريخيّة مُؤسّسة.لأنّ قراءاتهم تاريخيّة ماديّة وليس دينيّة، أمّا لو طرحنا الأمر من وجهة نظر دينيّة فإنّ هذه الأفعال قد لا تجوز لنبيّ، بينما تجوز لقائد حربيّ يتصرّف حسب الأحداث والمعطيات المعاصرة له. لذلك فنحن في هذا الكتاب نتناول محمّدا من هذه الناحية الماديّة الجدليّة. و René Marchand الذي ترجمنا كلامه أعلاه يخلط بين هذين العنصرين [النبوّة والسياسة] لذلك يتعجّب من كلامهم [ثمّ إنّه متعجّب من عدم ذكر المذبحة في الموسوعات وربّما لم يبق إلاّ أن يطالب بجعلها يوما وطنيّا يهوديّا أيضا، وأرجّح أنّه يقول ذلك لأنّه مصدوم، وما كان ليُصدم لو تناول محمّدا على أنّه قائد

حرب و ليس نبيّا] قلت هو يتعجّب رغم علمه أنّ Rodinson مثلا ملحد ماركسيّ ولا يؤمن بإله ناهيك عن أن يؤمن بنبيّ، وبالتالي فإنّ Rodinson يتناول محمّدا كقائد حربيّ ومشرّع ولا تهمّه الأحكام الأخلاقيّة الدينيّة كثيرا في قراءته لمحمّد لأنّه لا يؤمن بها.
و على كلّ حال فنحن لا ننتظر آراء المستشرقين [المؤيّدين أو المعارضين] في قراءتنا لتاريخنا وإنّما نستأنس بها فقط، حيث أنّنا أعلم بتاريخنا منهم.

متفرّقات قبل الصلح

سنذكر الغزوات بسرعة التي كانت قبل صلح الحديبيّة:
لم ينس النبيّ ما فعله بنو لحيان في عاصم بن ثابت وأصحابه حين قتلوهم [263] فتظاهر أنّه خرج إلى الغزو نحو الشام شمالا ثمّ وفي الطريق دار واتّجه نحو بني لحيان جنوبا وأخذ يسرع في المشي لكنّهم سمعوا به فصعدوا جميعهم إلى الجبال وحين وصل النبيّ لم يجد أحدا فأقام معسكره هناك وأرسل بعض السرايا في اتّجاهات مختلفة لكنّهم لم يجدوا شيئا فعادوا إلى المدينة. ومرّت أيّام قليلة وجاء عينيّة بن حصن [سيتزوّج عثمان بن عفّان ابنته فيما بعد وكنيتها أمّ البنين] جاء ومعه أربعون فارسا وأغاروا على بعض الإبل التابعة للنبيّ ترعى خارج المدينة وقتلوا ابن أبي ذرّ الغفّاريّ الذي كان يرعاها وهربوا بها وبزوجة أبي ذرّ فجاء شخص من المسلمين إلى المدينة يصرخ : **"الفزع، الفزع" فكان أول من أقبل إليه المقداد بن عمرو وعليه الدرع والمغفر شاهرا سيفه فعقد له رسول الله لواء في رمحه وقال امض حتى تلحقك الخيول إنّ على أثرك** [264] و استطاعوا أن يلحقوا بهم ولكنّهم لم يسترجعوا إلاّ النصف من الإبل أي عشرا فقط ومعهم زوجة أبي ذرّ، فقالت للنبيّ لتعبّر عن سعادتها بالنجاة: **يا رسول الله قد نذرت أن أنحرها إن نجاني الله عليها، وآكل من كبدها وسنامها، فتبسم رسول الله وقال: بئسما جزيتها أن حملتك، لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين، إنّما هي ناقة من إبلي** [265]
[حيث أرادت امرأة أبي ذرّ أن تذبح الناقة وتأكلها احتفالا بنجاتها ممّا دفع النبيّ إلى الابتسام, وربّما أحسّ بالإحراج، فهو خسر نصف إبله وتريد زوجة أبي ذرّ أن تذبح أخرى أيضا، لذلك قال لها إنّها ناقة من إبلي أي لا تنذرين فيما لا تملكين] ولا أرى داعيا إلى ذكر كلّ الغزوات والمناوشات وسأقتصر على غزوتين فقط ربّما تستحقّان الإشارة إليهما.

سريّة وادي القرى:
خرج زيد بن حارثة إلى الشام للتجارة [ربّما ليبيع ما أشرنا إليه أعلاه من سبي بني قريظة] فقطع طريقه أناس من بني فزارة وضربوه وضربوا من معه وسلبوا كلّ البضائع التي معهم [لاحظوا أنّهم سلبوهم وضربوهم فقط ولم يقتلوهم] فعاد زيد إلى المدينة وأخبر النبيّ فأرسل معه جيشا صغيرا وأحاطوا ببني فزارة صباحا وقتلوا منهم شخصين ثمّ أخذوا أمّ قرفة وهي عجوز كبيرة فأمسكها أحد الصحابة واسمه قيس بن المحسر: **فقتلها قتلا عنيفا، ربط بين رجليها حبلا ثم ربطها بين بعيرين ثم زجرهما فذهبا فقطعاها** [266] [أي جعل بعيرين متضادّين وربط الساق اليمنى لأمّ قرفة في ناحية والساق اليسرى في ناحية، ثمّ ضرب الناقتين فركضتا فمزّقتا هذه

---

[263] راجع صفحة 80.
[264] طبقات ابن سعد/ج2/ص80
[265] المصدر السابق
[266] المصدر السابق/ص90، وذكر الحادثة ابن هشام في السيرة والطبري في تاريخه والواقدي في المغازي، وينكر العديد هذه القصّة بسبب وحشيّتها ويطعنون في صحّتها خ اصّة أنّ الضحيّة امرأة، ولكن ألم يقتل النبيّ عصماء بنت مروان؟ كما أنّ هذه القصّة لا تقلّ وحشيّة عن التمثيل بالجثث كقطع الأطراف وسمل الأعين، انظرْ الصفحة التالية، هامش 269.

العجوز] ثمّ عاد زيد وأصحابه إلى المدينة: **فقرع باب النبي فقام إليه عريانا يجرّ ثوبه حتى اعتنقه وقبله وسايله فأخبره بما ظفره الله به** [267]

سريّة العرينين :

جاء ثمانية أشخاص من عرينة إلى النبيّ فأسلموا وأرادوا الإقامة بالمدينة فأمرهم محمّد أن يقيموا قرب إبله التي ترعى ناحية قباء فسكنوا هناك، ثمّ بعد مدّة قصيرة جمعوا كلّ إبل النبيّ وهربوا بها فتفطّن لهم "يسار" أحد خدم النبيّ، فقاتلهم فقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات [268] وطبعا لن يسكت محمّد فأرسل خلفهم عشرين فارسا قبضوا عليهم وعادوا بهم إلى المدينة فأمر النبيّ بهم **فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم فصلبوا هناك وأُنزل على رسول الله إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا الآية فلم يسمل بعد ذلك عينا** [269]

---

[267] طبقات ابن سعد/ج2/ص90

[268] المصدر السابق

[269] طبقات ابن سعد/ج2/ص94، وروى حادثة التمثيل بهم من طرف النبيّ وقطع أطرافهم وسمل أعينهم كلّ أهل السيرة وكلّ رجال الحديث بما فيهم البخاري ومسلم، وجاء في صحيح البخاري مثلا : **عن أنس أن ناساً كان بهم سقمٌ فقالوا يا رسول الله آونا وأطعمنا فلما صحوا قالوا إن المدينة وخمة فأنزلهم الحرة في ذودٍ له فقال اشربوا من ألبانها وأبوالها فلما صحوا قتلوا راعي رسول الله واستاقوا ذوده فبعث في آثارهم وقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم فرأيت الرجل منهم يكدم الأرض بلسانه حتى يموت.**

الاتّفاق القديم

رأى النبيّ في المنام أنّه يحجّ إلى مكّة ويدخل البيت الحرام معتمرا، فأخبر أصحابه بذلك وبعزمه على المسير إلى مكّة دون سلاح [يحملون السيوف فقط بلا رماح أو دروع] فتهيّأ الجميع و خرجوا.

التاريخ:يوم الاثنين 16 من ذي القعدة سنة 6 هجري الموافق ليوم الاثنين 28 مارس/آذار سنة 628 ميلادي.

ولا يوجد اختلاف في كلّ كتب السيرة في هذا التاريخ، وحتّى غزوة بني قريظة والتي من المفروض أن تطبع الذاكرة فإنّه يوجد اختلاف حولها بشهرين أو ثلاثة، بينما غزوة الحديبية هذه يتّفق الجميع في تاريخها ممّا جعلنا نتساءل عن الذي حدث فعلا كي يظلّ هذا التاريخ موجودا في الذاكرة ليجد صداه فيما بعد عند الإخباريّين، ولكنّ الأمر كان أبسط من ذلك حيث أنّ السبب هو خروج النبيّ إلى مكّة ليعتمر، و من المنطقيّ أن يخرج في الأشهر الحرم وأوّلها شهر ذي القعدة وبالتالي فاتّفاقهم على هذا التاريخ هو بديهيّ ومنطقيّ ولا علاقة له بقوّة وضعف ذاكرة الإخباريّين.

قلنا أنّ النبيّ رأى رؤيا في المنام، وربّما يحقّ لنا أن نتساءل عن دور القرآن في مثل هذه قرارات، فنحن نلاحظ أنّه لم تنزل آية واضحة ومباشرة تأمر بهجرة الحبشة ولا حتّى بالهجرة إلى المدينة ولا بحفر الخندق في غزوة الأحزاب ولا بالذهاب إلى مكّة معتمرا [270] وإنّما الآيات تنزل دائما بعد الحدث، إمّا كتعليق على بعض الأحداث وإمّا كتبرير لقرارات محمّد، بينما وفيما يتعلّق بحياة النبيّ الشخصيّة كزواجه ومعاملته أزواجه فإنّه توجد آيات مباشرة وواضحة تأمره بفعل كذا وكذا كقوله : يا أيّها النبيّ قل لأزواجك..الخ '' لكن لا توجد آية تقول مثلا : ''يا أيّها النبيّ اخرج معتمرا إلى مكّة فإنّ الله سيكفيك كيد الكافرين'' قد يقول قائل ولكن هناك آية في القرآن تقول:''لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا[سورة الفتح/48] أليست هذه آية واضحة تأمر النبيّ بتصديق الرؤيا و الذهاب إلى مكّة للعمرة؟

بلى ولكن المشكلة أنّه لم يدخل هذا المسجد الحرام فقد ردّته قريش وبالتالي فإنّ هذه الرؤيا لم تصدق ممّا دفع بعمر بن الخطّاب حين رأى أنّ النبيّ عقد صلحا مع قريش [كما سيأتي ذكره] وتنازل عن بعض الحقوق أن يقول: **وما شككت منذ أسلمت إلا تلك الساعة** [271] بل ودخل الشكّ بعض الصحابة: **وقد كان أصحاب رسول الله قد خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله. فلمّا رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول الله في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون** [272] ولنشاهد هذا الحوار بين عمر و النبيّ الذي يرويه البخاري:

---

[270] الفكرة طرحها René Marchand في كتابه Mahomet, contre enquête ، مرجع سابق.

[271] السهيلي/الروض الأنف/ج7/ص72

[272] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص193

قال عمر بن الخطاب فأتيت نبي الله فقلت : ألست نبي الله حقا؟
قال: بلى
قلت : ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل
قال: بلى
قلت : فلمَ نعطي الدنيّ في ديننا؟
قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري
قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟
قال: بلى [هل]أخبرتك أنا نأتيه [هذا] العام؟
قلت :لا
قال : فإنك آتيه ومطوّف به [أي أنّ النبيّ لم يحدّد تاريخ تحقيق هذه الرؤيا]
لكن يبدو أنّ عمرا غير مقتنع تماما فذهب إلى أبي بكر :
قال : فأتيت أبا بكر فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا؟
قال: بلى
قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى
قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا؟
قال: أيها الرجل إنه لرسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق
قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟
قال: بلى, أفأخبرك أنك تأتيه العام؟
قلت: لا
قال : فإنك آتيه ومطوّف به [273]

نلاحظ - وهذا منذ بداية السيرة- أنّ شخصيّة أبي بكر متماهية تماما مع شخصيّة النبيّ وتسانده في كلّ شيء، بدءا بالمال منذ بداية الدعوة وصولا إلى تطبيق كلام النبيّ بحذافيره، وحتّى بعد وفاة محمّد فإنّه سيواصل تماما وبالحرف تشريعات النبيّ ولا يحيد عنها قيد أنملة وأوّلها محاربة القبائل التي منعت الزكاة إذ اعترض عمر بن الخطّاب على محاربتهم فقال أبو بكر : **والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لأقاتلنهم على منعها** [274] بينما نجد شخصيّة عمر شخصيّة ''مجتهدة'' و ''جريئة'' ومستقلّة بنفسها حتّى أنّه سيتّخذ قرارات تشريعيّة لم يطبّقها النبيّ في حياته وذلك بقيامه ببعض الاجتهادات كتعطيله حدّ السرقة في ظروف معيّنة مثلا [275] ربّما يجوز لنا القول أنّ أبا بكر سلفيّ يطبّق تماما تشريعات من سبقه بلا اجتهاد، بينما عمر''مجتهد'' إن جاز هذا التعبير وإن كنّا نستعمل مصطلح (الاجتهاد) بحذر في هذا المقام فهو يجتهد و يحاول تطبيق القوانين وفق متطلّبات المرحلة.

---

[273] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج3/ص287
[274] ابن كثير/البداية و النهاية/ج6/ص343
[275] أشار المفكّر فرج فودة إلى هذه المقاربة في الشخصيّة العمريّة في كتابه الحقيقة الغائبة

وكان النبيّ قد طلب من الأعراب ‘‘المسلمين‘‘ أي المتحالفين معه، الخروج برفقته إلى مكّة تخوّفا من هجوم قريش عليه لكنّ أغلب الأعراب رفضوا، **فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب** [276] وحين وصل النبيّ قرب مكّة وسمعت به قريش خرج إليه مائتا فارس لمنعه بقيادة خالد بن الوليد، ويقال عكرمة بن أبي جهل [277] وظلّوا يراقبونهم من بعيد ممّا دفع النبيّ إلى اختيار طريق آخر لا تستطيع الخيول المرور منه بسبب وعورته وعسكر قرب مكّة.

لماذا لم تهجم عليه قريش؟

قد يقول قائل: إنّه الشهر الحرام وقريش لا تقاتل في هذا الشهر لذلك أحسن النبيّ اختيار التوقيت.

و هذا كلام غريب لأنّه يوجد ثلاثة أسباب:

- النبيّ لم يُبق لا شهرا حراما ولا حلالا في اعتدائه على قريش وعلى القبائل وخاصّة غزوة نخلة فلماذا لا يعاملونه بالمثل؟
- قريش تحترم الشهر الحرام، هذا صحيح، ولكن أحيانا تقع حروب في ذلك الشهر، كحرب الفجّار والتي شارك فيها النبيّ حين كان صبيّا، وبالتالي لا شيء يمنعهم من تقديم مصالحهم التجاريّة على الحرام و الحلال.
- قريش وضعت قانونا يخوّل لها الحرب في الشهر الحرام، إن دعت الحاجة لذلك، ويسمّى: ‘‘النسيء‘‘ وهو تأخير الشهر إلى ما بعده كي يمكنهم القتال.

ولكن بدءا من الآن ستتوضّح لنا الرؤية أكثر ونفهم علاقة محمّد بقريش.

حين السمع النبيّ بخروج قريش لمنعه عن مكّة قال: **يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوّا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة** [278] النبيّ هنا يتساءل قائلا: لماذا لا تتركني قريش أحارب العرب؟ فإنْ خسرتُ فذلك ما ترغب فيه قريش، وإن ربحتُ دخل الجميع في الإسلام، وإن لم يدخلوا فأكون على الأقلّ منهكا بسبب الحروب وتكون قريش قويّة وبالتالي تستطيع قتالي. ما يلفت الانتباه هو قوله: **(ماذا عليهم لو خلوّا بيني وبين سائر العرب)** ومتى منعته قريش عن العرب؟ بل كانت تدافع عن قوافلها التي يغير عليها النبيّ و على حلفائها، فلماذا يقول النبيّ هذا الكلام؟ وكي نفهم الأمر أكثر فهناك رواية أخرى استطاعت المرور من رقابة كتبة السيرة وربّما تضيء لنا العديد من الجوانب غير المفهومة، وهي رواية يتيمة وحيدة ذكرها ‘‘ابن الديبغ‘‘ في كتابه ‘‘نشر المحاسن اليمانيّة‘‘ [279] وجاء فيها فيما معناه [عن التفاوض قبل الهجرة بين محمّد والأنصار]: **حين رأت قريش أنّ الأوس والخزرج جاؤوا إلى مكّة لمبايعة النبيّ، انطلق منهم** [أي من قريش] **أبناء عمومته** [أي أبناء عمومة محمّد] **وكان فيهم أبو جهل وعتبة وأبو سفيان وشيبة وأبيّ وأميّة وسهيل ونبيه ومنبّه**

---

[276] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص188

[277] ابن سعد/الطبقات الكبرى/ج2/ص95

[278] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص189 من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن، ورواه أحمد في المسند بإسناد حسن.

[279] لم أستطع الحصول على هذا الكتاب وقد نقلتُ النصّ مترجما من Premare في Fondations ص401-402 (مرجع سابق) والذي بدوره نقله عن M.Lecker في Did The Quraysh

والنضر بن الحارث وعمرو بن العاص وقالوا لهم: ‘‘يا أهل يثرب، إنّ لنا حقّا على محمّد فنحن أهله وعشيرته‘‘ فقال الأوس والخزرج:‘‘ بل نحن أحقّ منكم لأنّنا وإيّاه نعبد ربّا واحدا‘‘ وحين رأت قريش صدقهم وتصميمهم على أمرهم، خافت من اشتعال حرب بينها وبينهم فاقترحت عليهم:‘‘إذن اتركوه لنا ونعدكم أن نحميه ونمنعه كأنفسنا ونعاهدكم على حسن معاملة من اتّبعه ومن سيهاجر إليكم من المهاجرين.‘‘ فلم يجبهم أهل يثرب ونظروا إلى محمّد الذي قال: أجيبوهم إلى طلبهم يا أهل يثرب فإنّ الله مصدّق عهده ومتمّ وعده. فقال الأوس و الخزرج: ‘‘هل ترضى بذلك يا رسول الله؟‘‘ فقال محمّد: ‘‘نعم‘‘ فقالوا: ‘‘سمعنا وأطعنا‘‘ ثمّ اتّفق الأوس والخزرج مع قريش على اللقاء بعد أربعة أشهر.

هذه الرواية تفسّر لنا العديد من الأحداث وأنّ الأمور كانت بالتنسيق بين محمّد وقريش على حكم العرب منذ البداية، وربّما حدثت قطيعة بين محمّد وقومه، بعد هجرته إلى يثرب [ربّما أراد الاستئثار بالسلطة] ممّا أشعل بعض الحروب بينهما، في بدر وأحد، وهذا يفسّر لنا قول النبيّ أعلاه : **يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب؟** ونلاحظ أيضا أنّ قريشا تعهّدت هذا الأمر بعد وفاة النبيّ، بل وأثناء حياته إثر فتح مكّة كما سيأتي لاحقا ولولا قريش وجنودها في حروب الردّة وإعادة الأمور إلى نصابها لما وصلنا الإسلام فقد **ارتدّت العرب عند وفاة رسول الله ما خلا أهل المسجدين مكة والمدينة** [أي كلّ الجزيرة العربيّة ارتدّت إلاّ مكّة و المدينة] **وارتدّت أسد وغطفان، وعليهم طليحة بن خويلد الأسدي الكاهن. وارتدّت كندة ومن يليها وعليهم الأشعث بن قيس الكندي. وارتدّت مذحج ومن يليها وعليهم الأسود بن كعب العنسي الكاهن. وارتدّت ربيعة مع المعرور بن النعمان بن المنذر. وكانت حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب. وارتدّت سليم مع الفجأة واسمه أنس بن عبد ياليل. وارتدّت بنو تميم مع سجاح الكاهنة.**[280]

ولو سلّمنا بهذه الفرضيّة أعلاه [أي أنّ الأمور مرتّبة منذ البداية] لتوضّحت الرؤية أكثر لنا في موقف قريش من محمّد وعدم مهاجمتها إيّاه في الحديبية، رغم قدرتها، وهو أنّه صار له أتباع واستطاع التخلّص من القبائل اليهوديّة الثلاث، وحقّق بعض الامتيازات الحربيّة فما المانع من إعادة الاتّفاق القديم تحت مسمّى ‘‘صلح الحديبيّة‘‘ بل والاستفادة من الغنائم في معارك محمّد فيما يسمّى ‘‘المؤلّفة قلوبهم‘‘ فيما بعد؟ وهذا ما حدث فعلا، فالنتيجة توضّح لنا المقدّمة!

إذن عسكر محمّد قرب مكّة فأرسلت إليه قريش رجلين يسألانه عن سبب المجيء وكان الردّ دائما أنّه جاء للعمرة، ثمّ أرسلت إليه عروة بن مسعود الثقفي فدخل على محمّد [حسب السيرة فإنّه جاء ليجسّ النبض] فقال له : **يا محمّد أجمعت أوشاب الناس** [أي هل جمعت الغوغاء من الناس] **ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضّها بهم** [أي إلى أهلك لتحاربها بهم] **إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا** [يريد إخافته بأنّ قريشا متجهّزة له تماما] **وكان أبو بكر جالسا فقال لعروة: امصصْ بظر اللات أنحن ننكشف عنه.؟ فقال عروة لمحمّد: من هذا يا محمد؟ قال** [أي محمد]: **هذا ابن أبي قحافة. قال**[أي عروة] : **أما والله لولا يد كانت لك عندي**

[280] ابن كثير/البداية و النهاية/ج6/ص344

لكافأتك بها ولكن هذه بهذه. [أي لولا أنّك قدّمت لي خدمة في الماضي لأجبتك على شتيمتك لي (حيث قال له أبو بكر:امصص بظر اللات) و لكن سيكون ردّي بطريقة أخرى]

ثمّ أخذ عروة يتحدّث مع محمّد وهو يضرب لحية النبيّ بيده، وكان المغيرة بن شعبة واقفا خلف النبيّ وفي يده سيف، فقال لعروة: اكففْ يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك [أي قبل أن أقطعها] **قال عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك.** [كان يتهكّم من تهديد المغيرة] **فتبسم رسول الله** [النبيّ هنا يبتسم وكأنّه يشاهد مسرحيّة، ربّما هو من يحرّك خيوطها مع عروة] **فقال له عروة: من هذا يا محمد ؟** [أي من هذا الذي يهدّدني] **قال** [أي محمد] :**هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة قال: أيّ غدر وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟** [281] وعروة بن مسعود هذا سيصبح مسلما فيما بعد [بطبيعة الحال] وقال النبيّ عنه كما ذكر البخاري: **قال رسول الله يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين - لا أدري أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما- فيبعث الله عيسى بن مريم، كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة** [282] ويذكر بعض أهل التفسير أنّ رجالا من قريش قالوا: **كان الأحق بالرسالة الوليد بن المغيرة من أهل مكة أو عروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف. فأنزل الله تعالى {وقالوا لولا} أي هلا {أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} أي أعظم وأشرف من محمد** [283]

إذن وبعد هذه المسرحيّة يعود عروة بن مسعود إلى مكّة ويخبر قريش أنّ محمّدا جاء معتمرا فأرسلوا سهيل بن عمرو ليعقد صلحا بينهم وبين محمّد، وقالوا له: **ائتِ محمداً وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنّا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً** [284]

قريش هنا هي التي بادرت بالصلح!

وقريش لا تهجم على النبيّ وهو في موقف ضعف، ولكنّها تخرج في عشرة آلاف محارب وتتكبّد عناء الطريق لتحاربه في المدينة، في غزوة الخندق، منذ سنة، وحين يأتي إليها بنفسه - بلا دروع و غير جاهز للحرب- تطلب الصلح!

ما الذي دار بين عروة بن مسعود ومحمّد حقيقة؟ هل تحدّثا منفردين؟ هل أعادا إحياء العقد القديم بأن تحكم قريش العرب؟ كلّ الدلائل في المستقبل تشير إلى هذا الأمر، وإلى أنّ صلح الحديبيّة هو في الحقيقة عودة المياه إلى مجاريها بين محمّد وقريش لتحقيق مشروع توسّعيّ قرشيّ تحت غطاء الدين.

---

[281] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص190، ومعنى قوله : (وهل غسلت سوأتك إلاّ بالأمس) : المغيرة بن شعبة هو من ثقيف, وعروة بن مسعود الذي أمسك بلحية النبيّ من ثقيف, و حدث أنّ المغيرة بن شعبة خرج مع جماعة من قومه إلى مصر و أثناء الرجوع حسدهم على العطايا التي تحصّلوا عليها هناك, و يروي لنا كيف أسلم: وخرجوا وحملوا معهم الخمر فكنا نشرب فأجمعت على قتلهم فتمارضت وعصبت رأسي فوضعوا شرابهم فقلت رأسي يصدع ولكني أسقيكم فلم ينكروا فجعلت أصرف لهم وأترع لهم الكأس فيشربون ولا يدرون حتى ناموا سكرا فوثبت وقتلتهم جميعا وأخذت ما معهم فقدمت على النبي فأجده جالسا في المسجد مع أصحابه وعلي ثياب سفري فسلمت فعرفني أبو بكر فقال النبي الحمد لله الذي هداك للإسلام قال أبو بكر أمن مصر أقبلتم؟ قلت: نعم, قال: ما فعل المالكيون؟ قلت: قتلتهم وأخذت أسلابهم وجئت بها إلى رسول الله ليخمسها فقال النبي : أما إسلامك فنقبله ولا آخذ من أموالهم شيئا لأن هذا غدر ولا خير في الغدر فأخذني ما قرب وما بعد وقلت: إنما قتلتهم وأنا على دين قومي ثم أسلمت الساعة قال: فإن الإسلام يجبّ ما كان قبله وكان قتل منهم ثلاثة عشر فبلغ ثقيفا بالطائف فتداعوا للقتال ثم اصطلحوا على أن يحمل عني عروة بن مسعود ثلاث عشرة دية [أيّ أنّ عروة بن مسعود دفع عنه ديّة القتلى, لذلك قال له حين هدّده المغيرة بقطع يده: أيّ غدر وهل غسلت سوأتك إلاّ بالأمس؟] راجع الذهبي/سير أعلام النبلاء/باب المغيرة

[282] الحميدي/الجمع بين صحيح البخاري و مسلم/ج3/ص340

[283] راجع تفسير الطبري وابن كثير وغيرهما وهناك اختلاف في الأسماء.

[284] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص192

على كلّ حال فإنّ سهيل بن عمرو الذي جاء من قريش يطلب الصلح كتب العقد مع محمّد، وقد تفاوضا كثيرا، **فلمّا انتهى سهيل إلى رسول الله تكلّمَ فأطال الكلام** [فيما أطال الكلام؟ هذا لا تذكره السيرة ولكنّها تذكر لنا روايات هامشيّة، ربّما لعدم معرفة الإخباريين بالحوار الدائر] **تراجعا** [أي تناقشا و تفاوضا] **ثم جرى بينهما الصلح.** [285] وكان النصّ كما تنقله السيرة هو وضع هدنة بعشر سنين وبعض البنود الأخرى التي تبدو في صالح قريش منها أنّ من أسلم من قريش ابتداءً من توقيع الصلح يردّه محمّد ولا يستقبله في المدينة.

ويا محاسن الصدف، جاء أبو جندل وهو ابن سهيل بن عمرو الذي يكتب العقد مع النبيّ، جاء في الحين ليدخل في الإسلام [لاحظوا كيفيّة صنع كتبة السيرة للمشاهد الدراميّة، يعني من دون أهل مكّة جميعا جاء ابن سهيل بن عمرو!] فمنعه أبوه سهيل وقال لمحمّد: **يا محمد قد لجّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا** [أي لقد كتبنا الصلح قبل أن يسلم ابني وبالتالي فيجب منعه وردّه] ثمّ أمسكه سهيل وأخذ يجرّه إلى مكّة، فنهض عمر بن الخطّاب وأخذ يمشي بجانب أبي جندل ويقول له: **اصبر أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب** واقترب عمر كثيرا من أبي جندل وقرّب له سيفه، حتّى يستلّه أبو جندل ويقتل أباه، لكنّ لم يفعل، يقول عمر: **رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه. فضنّ الرجل بأبيه** [286] [أي أنّ أبا جندل استخسر أن يقتل أباه من أجل الإسلام] ولا يعدم الإخباريون أن يرووا لنا بعض المعجزات للنبيّ في هذه "الغزوة" كخروج الماء من أصابعه وغيرها من الأساطير التي لا داعي لذكرها.

إذن أخذ محمّد طريق العودة إلى المدينة، واعتمادا على ما سبق في السيرة يمكننا أن نتوقّع خطوته التالية، ولنلخّص أوّلا كيفيّة تقسيم كتبة السيرة للتحرّكات التي ذات قيمة للنبيّ:

غزوة بدر⇦ احتكاك مع قريش، النتيجة : الالتفات إلى اليهود وطرد بني قينقاع

غزوة أحد ⇦ احتكاك مع قريش، النتيجة: الالتفات إلى اليهود وطرد بني النضير

غزوة الخندق⇦ احتكاك مع قريش، النتيجة: الالتفات إلى اليهود وإبادة بني قريظة

صلح الحديبيّة ⇦ احتكاك مع قريش، النتيجة: ؟

لم يبق إلاّ يهود خيبر، ولم يخيّب كتبة السيرة توقّعاتنا، فالتفت إليهم النبيّ و ذهب إليهم.

و هذا الأمر يجعلنا نتساءل عن حقيقة هذه الأحداث فعلا، حيث تقدّم لنا السيرة محمّدا لا يفعل شيئا إلاّ الردّ على خيانة اليهود في كلّ مرّة، أي أنّ كتبة السيرة يصنعون الحيثيّات اللازمة لتبدو أفعال النبيّ منطقيّة، بينما لو عدنا إلى كتب البلاذري في فتوح البلدان لرأينا منطقا آخر في عرض الأحداث [287] حيث يبدأ كتابه بالحديث عن الهجرة ثمّ يمرّ مباشرة إلى الاستيلاء على أراضي اليهود، فيبدأ بالمدينة ثمّ يصعد رويدا رويدا إلى الشمال نحو خيبر ثمّ فدك ثمّ تيماء ثمّ وادي القرى، وبعدها تلتحق مكّة أيضا مع محمّد ثمّ حصار الطائف والقرى المحيطة ثمّ مهاجمة الأراضي التي تحت حكم الموالين لبيزنطة في الشمال. فكتاب البلاذري يخضع لمنطق التوسّع المبرمج من طرف العرب ويختلف عن منطق كتبة السيرة و المغازي [288]

---

[285] المصدر السابق

[286] المصدر السابق

[287] A.L de Premare/Les fondations de l'islam/Seuil/Paris/2002/p107

[288] Ibidem

خيبر

قال موسى بن عقبة: **لما رجع رسول الله من الحديبية مكث عشرين يوماً أو قريباً من ذلك، ثم خرج إلى خيبر، وهي التي وعده الله إياها** [289] وخيبر تقع في شمال الجزيرة العربيّة [290] وتبعد عن المدينة ثمانية ‘‘برد‘‘ والبريد متكوّن من أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، فتكون المسافة تقريبا مائة ميل ناحية الشمال، وخيبر مذكورة في نقش قديم يُسمّى نقش حرّان و جاء فيه [291]

(أنا شرحيل بن ظلمو بنيت ذا المرطول.

سنت 463 بعد مفسد.

خيبر.

بعم.)

وهو مكتوب بالعربيّة واليونانيّة وسأكتبه بأكثر توضيح اعتمادا أيضا على النصّ اليوناني:

(أنا شرحبيل بن ظالم بنيتُ هذا البناء التذكاريّ [من أجل القدّيس يوحنّا] **سنة 568 ميلادي وذلك بعد دمار خيبر بعام.)**

ويذكر لنا الإخباريون رواية عن دمار خيبر وسبي أهلها من طرف الغساسنة العرب[المسيحيين] حيث جاء في المفصّل لجواد علي: **وأمّا "ابن قتيبة" "الذي جعل "الحارث بن عمرو بن محرّق" أول ملوك آل غسان، فقد وضع "الحارث بن أبي شمر" من بعده. وقال: أنّه الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر، وأمه مارية ذات القرطين. وكان خير ملوكهم، وأيمنهم طائراً، وأبعدهم مغاراً. وكان غزا "خيبر"، فسبى من أهلها، ثمّ أعتقهم بعد ما قدم الشام.** [292]

طبعا ليس بالضرورة أن تكون هذه الرواية تتحدّث عن النقش أعلاه فقد تكون أيضا بعده أو قبله.

وخيبر من أكبر المدن اليهوديّة في الجزيرة العربيّة وتحتوي على ثمانية حصون على الأقلّ وتتميّز بالأراضي الزراعيّة الوافرة والنخيل الكثير. ولنا أن نتساءل عن سبب غزوة النبيّ لها؟

فعلى الأقلّ يحاول الإخباريّون إيجاد تبرير للنضير أو لقريظة على أساس أنّهم خانوا العهد فإنّهم لم يكلّفوا أنفسهم إيجاد دافع للنبيّ بالنسبة لخيبر، وإنّما ذكروا أن الله وعده بها، أي أنّهم برّروا هذه الغزوة بأمر إلهيّ.

هل أحسّ المسلمون بخيبة أمل بعد صلح الحديبيّة فأراد النبيّ تعويضهم بغنيمة أكبر؟ تقول السيرة الحلبيّة التي لا نعتمد عليها في هذا البحث وإن كنّا نعود إليها في مرّات نادرة: وجاءه المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، فقال: لا **تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا،** أي أنّ الأعراب الذين رفضوا الخروج مع محمّد في ذهابه إلى مكّة معتمرا جاؤوا ليشاركوا في غزوة خيبر ليتحصّلوا على بعض الغنائم لكنّ النبيّ رفض وأخبرهم أنّ الغنيمة ستكون فقط لمن ذهب معه إلى الحديبيّة أمّا إن أرادوا الجهاد مجّانا فيمكنهم

---

[289] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص206

[290] ياقوت الحموي/معجم البلدان/مادة خيبر

[291] جواد علي/المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/الفصل 121/الصفحة 1003

[292] المصدر السابق/ص 357

الخروج معه. ولكنّنا نجد سبب الغزوة في القرآن نفسه الذي يقول : **قَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ** [293] **عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** [الفتح، 18-20] ويقول الطبري في تفسيره وعلى ذلك كلّ المفسّرين: **مغَانِم كَثِيرَة يَأْخُذُونَهَا مِنْ أَمْوَال يَهُود خَيْبَر، فَإِنَّ اللَّه جَعَلَ ذَلِكَ خَاصَّة لِأَهْلِ بَيْعَة الرِّضْوَان دُون غَيْرهمْ.** فالله يعد المؤمنين الذين علم ما في قلوبهم [علم خيبة الأمل ربّما] بمغانم كثيرة أحسن من مكّة إذا انتصروا على يهود خيبر.

قلنا إذن توجّه النبيّ إلى خيبر و معه ألف وأربعمائة مقاتل [أي جميع من كان معه في الحديبيّة] **ونزل على خيبر ليلًا ولم يعلم أهلها فخرجوا عند الصباح إلى عملهم بمساحيهم** [أي خرجوا يحرثون الأراضي] **فلما رأوهم عادوا** [هربوا] **وقالوا: محمد والخميس** [الخميس هو الجيش] **فقال النبي: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ** [294] وقام النبيّ بمحاصرتها وكان يشكو من صداع في رأسه فلم يخرج من خيمته **وأرسل الكتائب لفتح الحصون فبعث أبا بكر إلى بعض حصون خيبر فقاتل، ثم رجع ولم يكن فتح، وقد جهد.** [295]

وكذلك ذهب عمر بن الخطّاب ولم يفعل شيئا وعاد، وهذا عجيب فيوجد في المسلمين من هو أكثر من هذين خبرة وقوّة في المعارك والنبيّ لا أعتقد أنّه سيجامل أو يخطئ في تقدير من سيرسل لفتح الحصون خاصّة أنّ خيبر ليست سهلة وهي منيعة وأعتقد أنّ الغرض من هذه الرواية هو وضع عليّ بن أبي طالب في الواجهة و تفضيله بطريقة غير مباشرة على أبي بكر و عمر [ربّما توجد يد شيعيّة في هذه الرواية في إشارة للخلافة فيما بعد وكيف فضّلوا أبا بكر ثمّ عمر ولم يبايعوا عليّا] ونلاحظ فيما بعد أسطرة الحادثة حيث قال النبيّ: **لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، وليس بفرَّار** [296] إلى هنا الأمر معقول، كما أنّ كلمة "**ليس بفرّار**" أظنّها زائدة ولم يقلها محمّد وهي لمز غير مباشر للذين فرّا قبله أي أبي بكر وعمر، لذلك رجّحنا وجود يد شيعيّة فيها، وتبدأ أسطرة الحادثة حيث يقوم محمّد بالتفل على عيني عليّ الذي يشكو من رمد فيهما فذهب مرضه في الحال ثمّ **لمّا دنا من الحصن** [أي عليّ] **خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل منهم من يهود، فطرح ترسه من يده فتناول عليّ باب الحصن فترس به عن نفسه** [أي أنّ عليّا أخذ باب الحصن واستعمله

---

[293] السكينة هي كلمة معرّبة عن العبريّة (شاكيناه) و تعني الحضور الإلهيّ، و تشير التقاليد التلموديّة إلى أنّ موسى غطّى وجهه بخمار حين نزلت على الجبل، و جذرها العبريّ يلتقي مع الجذر العربي 'سكن' لكن استعمالها الاصطلاحي هو استعمال لاهوتيّ يهوديّ، و معناها القرآنيّ يحمل هذا المعنى نفسه الذي تطوّر فيما بعد و صار يعني الطمأنينة، ووجد اللغويّون التخريجات اللغويّة اللازمة له اعتمادا على جذر سكن، لكن معنى الكلمة غير ذلك،و قد ورد عن ابن مسعود: **أنّ السكينة تنطق على لسان عمر**، ونقرأ في تفسير ابن كثير، **قال وهب بن منبّه:"السكينة روح من الله تتكلّم، إذا اختلفوا في شيء تكلّم فأخبرهم ببيان ما يريدون"** و هذا التفسير و إن كان يُعتبر من الإسرائيليّات فهو التفسير الصحيح الموافق لروح الآيات، كما جاء في سورة البقرة: "**إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربّكم** " [آية رقم 248] و قد جاء في التلمود [كوهين/التلمود/باريس/دار Payot /1991] أنّ السكينة تنزل على الأرض على: 1-الشعب اليهوديّ، 2-على كلّ عشرة أشخاص اجتمعوا للعبادة، 3-على كلّ ثلاثة أشخاص يحكمون مع بعضهم، 4-على كلّ من يقوم **بترتيل التوراة** الخ.. ونلاحظ أنّ نزول السكينة هذا انتقل أيضا إلى الموروث الإسلامي حيث تتنزّل على كلّ من **يقرؤون القرآن**، كما يذكر البخاري في باب نزول السكينة و الملائكة عند قراءة القرآن. لكن و كما أشرت فإنّ المصطلح عبريّ استورده الإسلام

[294] ابن الأثير/الكامل في التاريخ/ج2/ص100، و عيون الأثر/ج2/ص134، و غير ذلك

[295] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص212

[296] المصدر السابق

كدرع] **فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده، فلقد رأيتني في نفر معي سبعة أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه** [297] [أي بعد أن انتهى عليّ من القتال ألقى بالباب من يده فحاول ثمانية أشخاص أن يقلبوا الباب فلم يستطيعوا وهنا نحن طبعا في روايات أسطوريّة بحتة] و يعلّق ابن كثير الذي يورد هذه الرواية مع غيرها قائلا: **وفي هذا الخبر جهالة وانقطاع ظاهر**. [ربّما هذه من المرّات النادرة التي يحكّم فيها ابن كثير عقله!] وهناك من يقول أنّ الباب لم يستطع حمله أربعون رجلا وآخرون يقولون سبعون رجلا [فيمن يزيد أكثر] مثلما روى البيهقي في الدلائل، وأعقلهم ابن اسحاق الذي قال ثمانية رجال فقط. وبما أنّ لكلّ أسطورة جذرا حقيقيّا فأرجّح أنّ عليّا تدرّع بباب عاديّ يمكن حمله وليس بباب الحصن ثمّ تأسطرت القصّة. وبدأت الحصون تتساقط وكلّ شخص يريد أن يتحصّل على غنيمة، مهما كانت، ممّا يعكس لنا حالة أغلب المكوّنين لهذا الجيش [يسمّون بمصطلحات عصرنا:المرتزقة] فعن عبد الله بن مغفل المزني قال: **أصبت من فيء خيبر جراب شحم** [أي تحصّل على كيس فيه شحم] **قال: فاحتملته على عنقي إلى رحلي وأصحابي، قال: فلقيني صاحب المغانم الذي جعل عليها فأخذ بناحيته، وقال: هلمّ حتى تقسمه بين المسلمين، فقلت: لا والله لا أعطيكه، قال: وجعل يجاذبني الجراب.** [أخذا يتخاصمان من أجل كيس الشحم] **فرآنا رسول الله ونحن نصنع ذلك، فتبسم ضاحكاً** [ربّما يقول في نفسه: الأعراب أشدّ كفرا ونفاقا] **ثم قال لصاحب المغانم خلِّ بينه وبينه، قال: فأرسله فانطلقت به إلى رحلي وأصحابي فأكلناه.** [298] [نلاحظ أنّ كتبة السيرة - في أغلب الأحيان- يعطون الأسماء حسب الشخصيّة فهذا سمّوه عبد الله بن مغفّل، والمغفّل هو الأحمق] فهذا الرجل من المسلمين وقد أوضحت الفرق بينهم وبين المؤمنين [299] بينما أعطي أيضا مثالا عن المؤمنين حيث جاء أعرابيّ إلى النبيّ وآمن بدعوته منذ البداية وأثناء غزوة خيبر لم يشارك في المعركة، وأخذ النبيّ في تقسيم الغنائم فأخرج سهم هذا الأعرابيّ وحين جاء أعطوه نصيبه فأخذه وذهب إلى النبيّ وقال : **ما هذا يا محمّد؟ فقال النبيّ: قسم قسمته لك.فقال: ما على هذا اتّبعتك، ولكن اتّبعتك على أن أرمى بسهم ها هنا، وأشار إلى حلقه، فأدخل الجنّة.** [300] وأمثال هذا الرجل قليل [بغضّ النظر عن دغمائيّته الدينيّة] فهو يزهد في الدنيا وليس كالنبيّ مثلا الذي يأخذ الخمس في كلّ غزوة (بتشريع من القرآن نفسه) ولا في عدد سباياه و زوجاته، هذا دون أن نذكر الصحابة، وبما أنّ الحديث ذو شجون فسأقتبس من كتاب فرج فودة ''الحقيقة الغائبة'' ينقل فيه عن ابن سعد في الطبقات بعض ثروات الصحابة، اقتباس:

كان لعثمان ابن عفان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف (الألف ألف هي المليون) درهم وخمسمائة ألف درهم وخمسون ومائة ألف دينار (الدرهم عملة فارس والدينار عملة الروم) فانتهبت وذهبت، وترك ألف بعير بالربذة وترك صدقات كان تصدق بها ببر أديس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتى ألف دينار(كانت قيمة ما ترك الزبير واحد وخمسين أو اثنين

---

[297] المصدر السابق

[298] المصدر السابق

[299] راجع صفحة 108

[300] مصنّف عبد الرازق/ج5/ص276

وخمسين ألف ألف . وكان للزبير بمصر خطط وبالإسكندرية خطط وبالكوفة خطط وبالبصرة دور وكانت له غلات تقدم عليه من أعراض المدينة)
- (عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص : مات أبي رحمه الله في قصره بالعتيق على عشرة أميال من المدينة، وترك يوم مات مائتى ألف وخمسين ألف درهم)
- (كانت قيمة ما ترك طلحة بن عبيد الله من العقار والأموال وما ترك من الناضح ثلاثين ألف درهم ، ترك من العين ألفى ألف ومائتى ألف دينار ، والباقي عروض)
- (ترك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة بالبقيع ومائة فرس ترعى بالبقيع، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً، وكان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه وترك أربع نسوة فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفاً)
فالدين والدنيا لا يجتمعان معاً إلا بشق الأنفس، وجمع المال على هذا النحو لا يستقيم مع نقاء الإيمان وصفاء السريرة إلا بجهد مجهد وجهيد، وقول الرسول عن ابن عوف أنه يدخل الجنة حبواً يطرق الأذهان في عنف.[301]

نعود إلى خيبر : ويروي البخاري أنّ النبيّ أخذ لنفسه [بكلّ تأكيد] إحدى النساء من السبي واسمها صفيّة ودخل بها أثناء العودة إلى المدينة حيث توقّف الجيش ثلاثة أيّام في الطريق [ربّما ليدخل من معه بسباياهم أيضا] فيروي عن أنس: **أقام رسول الله بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يُبنى عليه بصفية، فدعوت المسلمين إلى وليمته، وما كان فيها من خبز ولحم، وما كان فيها إلا أن أمر بلالاً بالأنطاع فبسطت، فألقي عليها التمر والأقط والسمن** [302] طبعا هذه الوليمة هي ممّا غنموه من خيبر. وصفيّة هذه مازالت متزوّجة حديثا من ابن عمّها كنانة بن الربيع، وقد حملها إليه بلال الذي **أُتي بصفية بنت حيي ابن أخطب، وأخرى معها، فمر بهما بلال - وهو الذي جاء بهما - على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت، وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله قال: أعزبوا عني هذه الشيطانة وأمر بصفية فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله قد اصطفاها لنفسه** [303] و كما قلنا فإنّ زوجها اسمه كنانة بن الربيع و قد كان عنده كنز بني النضير [أي أمين المال بلغة عصرنا] فسأله النبيّ عن مكان الكنز فأنكر كنانة أن تكون له معرفة بمكانه، لكنّ أحد الحاضرين من اليهود أخبر النبيّ أنّه رأى كنانة بجانب خربة كلّ يوم فقاموا بتفتيشها فوجدوا بعضا من المال، فسأل النبيّ كنانة عن باقي الكنز لكنّه أصرّ على الإنكار فطلب النبيّ من الزبير أن يقوم بتعذيبه حتّى يعترف وقال له: **عذّبه حتى تستأصل ما عنده. فكان الزبير يقدح بزنده في صدره حتى أشرف على نفسه** [أي يحرق صدره بالنار حتّى كاد كنانة يموت ولكنّه رغم ذلك لم يعترف بمكان الكنز] **فأمر النبيّ محمّد بن مسلمة بقطع رأسه برأس أخيه محمود.** [304] وهكذا قطع النبيّ رأس الرجل ثمّ دخل بامرأته.

---

[301] فرج فودة/الحقيقة الغائبة/ص53-54

[302] وأخرج الرواية مسلم في صحيحه عن أنس: (...)**ووقعت في سهم دحية جارية جميلة** [أي أنّ صفيّة كانت من نصيب دحية الكلبي في البداية] **فاشتراها رسول الله بسبعة أروس ثم دفعها إلى أم سليم تصنعها وتهيئها (...) وهي صفية بنت حيي قال فجعل رسول الله وليمتها التمر والأقط والسمن.**

[303] ابن كثير/البداية والنهاية/ج4/ص224، الإصابة/ج7/ص739، سيرة ابن هشام، والجميع عن ابن اسحاق عن أبيه.

[304] ابن كثير/البداية والنهاية/ج4/ص225، وأخرج نحوه أبو داود في السنن/باب ما جاء في حكم أرض خيبر، بإسناد صحيح.

هوامش من غزوة خيبر

أهل فدك يستسلمون أيضا:

و سمع اليهود في قرية ليست بعيدة تسمّى فدك [على بعد مسيرة ثلاثة أيّام عن المدينة، معجم البلدان/ياقوت الحموي] باستسلام من بقي من أهل خيبر فاستسلموا بعد أن أرسل إليهم النبيّ يدعوهم إلى الإسلام، **ورئيسهم رجل منهم يقال له يوشع بن نون اليهودي. فصالحوا رسول الله على نصف الأرض بتربتها. فقبل ذلك منهم. فكان نصف فدك خالصا لرسول الله لأنه لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب. وكان يصرف ما يأتيه منها إلى أبناء السبيل** [305] [لا أدري هل أرسل يدعوهم إلى الإسلام حقيقة أم ليعطوه نصف أراضيهم وإلاّ فسيغزوهم؟] وستقع مشكلة فيما بعد حول أرض فدك هذه حيث أرادت فاطمة ابنة النبيّ استرجاعها بعد وفاة أبيها فذهبت إلى أبي بكر حين أصبح خليفة و قالت له: **إنّ رسول الله جعل لي فدك فأعطني إياها. وشهد لها علي بن أبي طالب. فسألها أبو بكر شاهدا آخر فشهدت لها أم أيمن. فقال: قد علمت يا بنت رسول الله أنه لا تجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين.** [يبدو أنّه لم يشهد لها أحد آخر إلاّ زوجها و امرأة اسمها أمّ أيمن] **فانصرفتْ.** [306] [و لكنّ أبناءها سيسترجعونها فيما بعد]

وعلى كلّ حال فالنبيّ استولى على العديد من الأراضي لوحده دون قسمة مع المسلمين حيث **كانت خيبر فيئاً بين المسلمين** [أي تقاسمها المسلمون] **وكانت فدك خالصةً لرسول الله** [أي باسم محمّد فقط] **لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.** [307] [أي لأنّهم لم يحاربوا للاستيلاء عليها] وكذلك أراضي بني النضير و قينقاع و إن كان محمّد قد فرّق بعضها على أصحابه حيث **أقطع رسول الله الزبير أرضا بخيبر فيها نخل وشجر.** [308]

محاولة وضع السمّ للنبيّ:

بعد الاستيلاء على خيبر، جاءت امرأة يهوديّة واسمها زينب بنت الحارث وأبدت رغبتها في إهداء خروف مشويّ للنبيّ وسألت عمّا يحبّ أكثر في الخروف فقيل لها أنّ يحبّ الذراع فوضعت السمّ في الخروف وأكثرتْ من وضعه في الذراع ثمّ حملته إلى النبيّ، فجلس يأكل هو و شخص آخر معه اسمه بشر بن البراء. وأخذ بشر يأكل دون أن ينتبه لأيّ شيء بينما قضم النبيّ منها قضمة فوجد طعمها غريبا، فألقاها من فمه. وقد شكّ النبيّ أنّ هناك خدعة فقال: **إنّ هذا العظم ليخبرني أنه مسموم** [309] ثمّ طلب من المرأة أن تعترف، فاعترفتْ وأخبرته أنّها أرادت اختباره فإن كان كاذبا فسيموت بعد أكلها وإن كان نبيّا فسيخبره الله. يقول ابن هشام: **فتركها النبيّ و لم يفعل لها شيئا.** وهذا غريب، و ليس من عادة النبيّ أن يصفح عن مثل هذه الأفعال وبالتالي فإنّنا عدنا إلى كتاب المغازي للواقدي لتبيّن ماذا فعل النبيّ، حيث أنّنا لم نستشهد

---

[305] البلاذري/فتوح البلدان/ج1/ص21
[306] المصدر السابق
[307] المصدر السابق
[308] المصدر السابق
[309] سيرة ابن هشام/ص698، و البخاري يقول : لمّا فتحت خيبر أُهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم.

بكلام الواقدي منذ بداية البحث وزدنا - للتوكيد و التدعيم- أن عدنا إلى كتاب ''زاد المعاد في هدى خير العباد'' لابن قيّم الجوزيّة، لنقارن بين الروايات، وهكذا وقعت الحادثة: [310]
محمّد عرف أنّ الشاة مسمومة بسبب طعمها المتغيّر [ثمّ جعلها الرواة فيما بعد أسطورة معتبرين أنّ الذراع كلّم محمّدا وأخبره أنّه مسموم] وذلك أنّ بشر بن البراء عرف أيضا ذلك ولم يكونا لوحدهما حيث جلس ليأكل معهما أشخاص آخرين والجميع عرفوا أنّها مسمومة ما إن ذاقوها:
قال النبيّ: ادنوا فتعشوا، فدنوا فمدّوا أيديهم وتناول رسول الله الذراع وتناول بشر بن البراء عظما، وأنهش رسول الله منها نهشا وانتهش بشر، فلما ازدرد رسول الله، ازدرد بشر، فقال رسول الله كفوّا أيديكم فإنّ هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة. فقال بشر بن البراء قد والله يا رسول الله وجدت ذلك من أكلتي التي أكلتها. وكان نفر ثلاثة قد وضعوا أيديهم في الطعام ولم يسيغوا منه شيئا [أي أنّ المسلمين الحاضرين أيضا ذاقوها وعرفوا أنّها مسمومة منذ البداية] **فأمر رسول الله أصحابه فاحتجموا أوساط رؤوسهم من الشاة واحتجم رسول الله تحت كتفه اليسرى** [أي أمر الذين أكلوا من الشاة المسمومة بالاحتجام - وهو معهم- والاحتجام هو إخراج الدم من رؤوسهم بطريقة معيّنة وهي طريقة بدائيّة في التداوي]
من المستحيل أن يترك النبيّ المرأة تذهب في حال سبيلها، يقول الواقدي: **فاختُلف علينا فيها فقال قائل رواية: أمر بها رسول الله فقُتِلت ثم صلُبت** [وهذا منطقيّ] وقال قائل رواية: **عفا عنها واختلف في قتل المرأة فقال الزهري**: **أسلمت فتركها ذكره عبد الرزاق عن معمر عنه ثم قال معمر والناس تقول قتلها النبي**. [و الناس معها حقّ] ورواية أخرى: **أنه قتلها لما مات بشر بن البراء،** وابن قيّم الجوزيّة قد وفق بين الروايتين بأنه لم يقتلها أوّلا فلمّا مات بشر قتلها. [وبشر بن براء مات مباشرة بعد الأكل من هذه الشاة ويبدو أنّه أكل المنطقة الأكثر سمّا لسوء حظّه] النبيّ مات بعد هذه الحادثة بثلاث سنوات واعتبر أنّ السمّ هو السبب في وفاته إذ قال في وجعه الذي مات فيه: **ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر فهذا أوان انقطاع الأبهر منّي** [311] [الأبهر هو عرق في القلب]

النبيّ يدخل بصفيّة أثناء العودة، و شخص يحرسه:

فبات بها رسول الله في قبّة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد، أخو بني النجار متوشحاً سيفه يحرس رسول الله، ويطوف بالقبة، حتى أصبح رسول الله، فلما رأى مكانه قال: ما لك يا أبا أيوب؟ قال: يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلتَ أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك [312] [قام أحد الصحابة بحراسة خيمة النبيّ في الليل خوفا من أن تغدر به صفيّة حيث أنّ محمّدا قتل أباها و زوجها و سباها و هي عروس]

النبيّ يضيّع صلاة الصبح:

أثناء العودة إلى المدينة وفي الليل استراح الجيش في الطريق فقال محمّد: **من رجل يحفظ علينا الفجر لعلّنا ننام؟ قال بلال: أنا يا رسول الله أحفظه عليك**. [أي نريد أن ننام فمن يستطيع السهر

[310] مغازي الواقدي/ج2/ص678، ابن قيّم الجوزيّة/زاد المعاد/ج3/ص54
[311] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج4/ص146
[312] سيرة ابن هشام/ص700، و يذكر البخاري دخول النبيّ بصفيّة في الطريق

ولا ينام حتّى يوقظنا لصلاة الفجر؟ فتطوّع بلال لذلك] إذن نام الجميع وظلّ بلال ساهرا، لكن أخذته سِنة آخر الليل فنام، ولم يستيقظ الجميع إلاّ حين مسّت أشعّة الشمس أعينهم **وكان رسول الله أوّل أصحابه هبّ** [أي من استيقظ] **فقال: ماذا صنعت بنا يا بلال؟ فأجابه بلال : يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك** [313] [أي أتّي أيضا متعب] وقد أصابهم التعب كثيرا في هذه الغزوة بسبب الهواء النديّ نسبيّا حتّى أنّ النبيّ أصابه وجع الرأس فظلّ في خيمته أثناء الحصار [كانت الشرقيقة أي الصداع تأتيه دائما] وخيبر أيضا معروفة بتغيّر الطقس فيصاب بالحمّى -غير المعتادين على هوائها – حيث يقول القزويني: **خيبر هي حصون على ثمانية برد من المدينة لمن أراد الشام ذات مزارع ونخيل كثيرة وهي موصوفة بكثرة الحمى ولا تفارق الحمى أهلها** [314] وبالتالي ليس من الغريب أن يكونوا متعبين و يناموا حتّى شروق الشمس.

---

[313] المصدر السابق

[314] القزويني/آثار البلاد وأخبار العباد/باب "خط" /المكتبة الشاملة الإلكترونيّة

الرسائل

قام النبيّ بإرسال رسائل إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، وهذا الفعل من النبيّ قد لا نستغربه ومن الممكن والمرجّح أن يكون أرسل البعض فعلا، فما الذي سيخسره لو فعل؟ ولكن ما هو غير معقول ولا يمكن تصديقه هو ردّة فعل بعض هؤلاء الملوك: أمّا كسرى فقد مزّق هذه الصحيفة وجاء فيها: **بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت، فإنّ إثم المجوس عليك**. [315]
واضح و جليّ أنّ هذا النصّ يكتبه الإخباريّين من الذاكرة، و غنيّ عن القول أنّه لا توجد نسخة من هذه الرسالة في الأرشيف الفلوسي، ولم يذكرها أيّ مؤرّخ عاصر تلك الفترة، والنسخة من هذه الرسالة الموجودة حاليّا نسخة مقلّدة وليست أصليّة خاصّة أنّ كسرى مزّق الرسالة فكيف صارت موجودة؟ وكان جواب كسرى: **فلمّا قرأه مزّقه، وقال: يكتب إليّ هذا وهو عبدي** [316]
وردّة الفعل هذه منطقيّة من الإمبراطوريّة الفارسيّة أمّا الغريب والذي يبدو خيالا بحتا هو ما فعله المقوقس: **بعث المقوقس صاحب الإسكندرية إلى رسول الله في سنة سبع من الهجرة بمارية وبأختها سيرين وألف مثقال ذهبا وعشرين ثوبا لينا وبغلته الدلدل وحماره يعفور** [317]
وهذا طبعا مستحيل، كيف يرسل المقوقس ألف مثقال ذهبا إلى شخص مجهول في الصحراء؟ لا لشيء إلاّ لأنّه أرسل إليه رسالة تهديد؟ فهذه الرواية عن المقوقس تُسقط واقع المسلمين أثناء كتابة السيرة، إذ أصبحوا إمبراطوريّة، على زمن محمّد.
أوّلا، من هو هذا المقوقس؟ يقول ابن كثير: **المقوقس صاحب مدينة الإسكندرية واسمه جريج بن مينا القبطي** [318] فهل كان يوجد شخص اسمه جريج يحكم الإسكندريّة؟ العديد يخلطون بينه و بين قيرس بطريرك الإسكندريّة الذي كان في مفاوضات مع عمرو بن العاص
Cyrus Patriarche d'Alexandrie سنوات 630-643 ميلادي، لكن كان قبله:
Georges I Patriarche d'Alexandrie سنوات 621-630 ميلادي وجورج الأوّل هو نفسه جريج الذي ذكره ابن كثير [وإن كان أخطأ ابن كثير في اعتباره قبطيّا بينما هو يتبع الكنيسة اليونانيّة] وهو نفسه الذي أرسل إليه النبيّ الرسالة - إن صحّت - و تشير السيرة إلى أنّه أرسل هذه الرسائل بعد صلح الحديبيّة وقبل فتح مكّة أي بين سنوات 628 و 630 ميلادي وكما أشرنا فشخصيّة المقوقس جريج أو جورج هي شخصيّة تاريخيّة، لكن أن يرسل الأموال إلى النبيّ فهذه طبعا من خيال الإخباريّين وإسقاطهم التاريخيّ لشخصيّة محمّد المعروفة في عصرهم على شخصيّة محمّد التاريخيّة. وقد ظننت في البداية أن يكون قد أرسل بعض الهدايا إلى النبيّ

---

[315] الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ج4/ص38
[316] المصدر السابق
[317] ابن سعد/الطبقات الكبرى/ج8/ص212
[318] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص310

فعلا لرغبته في كسب بعض الأنصار من العرب والتخلّص من حكم هرقل على الأقباط، لكن وجدت أنّ المقوقس جورج أو جريج ليس قبطيّا بل عامل لهرقل - دينيّ وسياسيّ- على مدينة الإسكندريّة ويتبع الكنيسة اليونانيّة، بينما بطريرك الإسكندريّة للكنيسة القبطيّة اسمه بنيامين الأوّل، وبالتالي فإنّ جريج يأتمر بأمر هرقل وليس له داع أو رغبة في تحرير الأقباط لأنّه هو نفسه يحتلّهم.

إذن لو استثنينا حكاية الأموال والعطايا هذه فمن أين جاءت ماريّة ؟ لا أدري أين وجد حاطب بن بلتعة [هذا الذي أرسله النبيّ] ماريّة وأختها ومن أين جاء بهما، وربّما، وأقول ربّما، أرسلهما أحد الأقباط يعمل في قصر المقوقس، لرغبته في كسب أنصار من العرب ضدّ هرقل [دون علم المقوقس] فقال حاطب أنّ المقوقس نفسه هو الذي أرسلهما.

وستثور بعض المشاكل حول ماريّة هذه، حيث أنّ النبيّ رأى زوجته حفصة بنت عمر بن الخطّاب خرجت من بيتها لقضاء بعض الشؤون فأرسل في طلب ماريّة ودخل بها في منزل حفصة، وأثناء وجودهما هناك عادت حفصة وتفاجأت بالمشهد فقالت: **يا رسول الله في بيتي وفي يومي وعلى فراشي؟** [319] وطبعا لم يتوقّع النبيّ عودتها وطلب منها أن تكتم هذا الخبر وأنّه لن يقرب من ماريّة أبدا بعد اليوم [يحاول إرضاءها] فقال لها: **اسكتي، فلك الله لا أقربها أبدا ولا تذكريه** [320] ولكنّ حفصة أخبرت عائشة بما حدث وبالتالي - وكالعادة في الأمور الزوجيّة - تدخّل القرآن، فأنزل الله: **(يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك؟)** أي هي حلال لك فلماذا تحرّمها؟ هناك اهتمام استثنائيّ، من الله شخصيّا، بحياة النبيّ الزوجيّة وبما أنّ النبيّ كان قد حلف لحفصة ألاّ يلمس ماريّة فنزلت آية أخرى بالحلّ: **(قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم)** فكفرّ رسول الله عن يمينه [321] وبالتالي استطاع أن يدخل بماريّة متى شاء، بل أنّه لن يفارقها لفترة زمنيّة، وتروي عائشة: **ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية ذلك أنها كانت جميلة جعدة وأعجب بها النبي وكان عامة النهار والليل عندها حتى فزعنا لها** [322] [أي أنّه كان لا يفارقها وتقول: حتّى فزعنا لها، وربّما هناك تصحيف والصحيح: حتّى فرغنا لها، وفي الحالتين إن فزعت عائشة ومن معها من زوجات النبيّ لماريّة أو تفرّغن لها فالمعنى واحد وهو أن يجعلنها لا تهنأ بالنبيّ] وستكون هناك أيضا مشكلة أخرى بسبب ماريّة، حيث أنجبت للنبيّ ولدا سمّاه إبراهيم، لكن بعض الناس بدؤوا يتكلّمون فيما بينهم همسا ويقولون أنّ ابراهيم ليس ابن محمّد، وأنّ ماريّة قد تكون حبلت من ابن عمّها الذي يزورها بين الحين والحين، وجاء في صحيح مسلم: **أنّ رجلا كان يُتّهم بأمّ ولد رسول الله فقال رسول الله لعليّ : اذهب فاضرب عنقه فأتاه عليّ فإذا هو في ركي يتبرّد فيها، فقال له عليّ: اخرجْ، فناوله يده، فأخرجه، فإذا هو مجبوب ليس له ذكر فكف عليّ عنه، ثم أتى النبي فقال: يا رسول الله إنه لمجبوب، ماله ذكَر** [323] [أيّ أنّ هذا الرجل مخصيّ ولا يستطيع ممارسة الجنس وبالتالي لم يضرب عليّ عنقه]

---

[319] ابن سعد/الطبقات الكبرى/ج8/ص168

[320] المصدر السابق، وهذا الحديث جاء بطرق عديدة مع اختلاف في اللفظ لكن المعنى نفسه، فرواه أبو داود عن قتادة، والنسائي والحاكم عن أنس، والدارقطني عن عمر، والبيهقي من طريقه الخ

[321] المصدر السابق، و راجع تفسير ابن كثير/سورة التحريم، و راجع تفسير مقاتل و يشير إلى أنّ النبيّ أعتق رقبة

[322] ابن حجر العسقلاني/الإصابة /ج8/ص112

[323] صحيح مسلم/كتاب التفسير

والنبيّ أمر بضرب عنقه دون أن يتأكّد بأربعة شهود كما يقول القرآن، ربّما هي حمية الشرف فللقتل على الشبهة، ويبدو أنّ عائشة فرحت بما يتهامس به القوم حيث تروي قائلة: **لمّا وُلد إبراهيم جاء به رسول الله إليّ فقال انظري إلى شبهه بي، فقلت: ما أرى شبها** [324] [!]

نعود إلى رسائل النبيّ:

وأرسل إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، وأسلمْ تسلمْ الخ..، وهنا أطلق كتبة السيرة العنان لخيالهم وبدؤوا يرسمون لنا لوحة سرياليّة بأتمّ معنى الكلمة، وزعموا أنّ هرقل أسلم سرّا. وقد نحتاج هنا لبعض المؤرّخين من غير العرب لنرى ماذا قال مثلا مؤرّخو هرقل وكسرى عن هذه الرسائل [حيث أنّنا إلى حدّ الآن نتابع كلام الإخباريّين العرب بوصف الأحداث شؤونا داخليّة ومن المستبعد أن يسمع بها مؤرّخون أو رجال دين في بلدان أخرى أمّا وقد بدأ الاحتكاك مع الحضارات المجاورة فإنّه من المنطقيّ أن نعود إلى ما قالوه أيضا] ولكن لم يقع ذكر هذه الرسائل في أيّ مصدر أجنبيّ، لا عند مؤرّخي بيزنطة ولا فارس ولا غيرهم.

ومن خيال الإخباريين أيضا إجابة ملك الحبشة على رسالة النبيّ: **بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشي الأصحم بن أبجر. سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذي لا إله إلا هو، الذي هداني إلى الإسلام. أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروقاً، إنه كما قلت، وقد عرفت ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله.** [325] في الحقيقة كم تبدو هذه الرسالة مزوّرة وكأنّ كاتبها يريد أن يؤكّد أنّ النجاشيّ مسلم ولاحظوا كم مرّة يقول ''يا رسول الله'' فالغرض منها واضح، وربّما حدث أن ترك النجاشيّ المهاجرين إليه يعيشون في الحبشة وعاملهم بلطف كلاجئين [وإن كنتُ أستبعد مجيء قريش لطلبهم أثناء هجرتهم الأولى ولاحظوا أنّ الذي ذهب في طلبهم حسب السيرة عمرو بن العاص بوصفه صديق النجاشيّ ولكنّ النبيّ لم يرسله في هذه الرسالة بل أرسل شخصا آخر، فإن كانت القصّة حقيقيّة أنّ عمرو بن العاص صديقه لكان من الأجدر أن يرسله النبيّ] فتأسطرت القصّة وجعلوا النجاشيّ مسلما بل ويقترح أن يجيء بنفسه.

أمّا تاريخيّا فيوجد ملك في الحبشة اسمه ''إلاّ جاباز'' [ربّما هو أبجر] وآخر أسمه ''إلاّ صاحام'' [ربّما هو أصحم] وآخر اسمه ''رهام'' [ربّما هو أرها] لكن لا نملك تواريخ تحدّد لنا زمن هؤلاء الملوك وحتّى العملة الحبشيّة ليس فيها تواريخ ممّا يشكّل عائقا كبيرا أمام وضع الملوك الحبشيّين في ترتيب تاريخيّ.

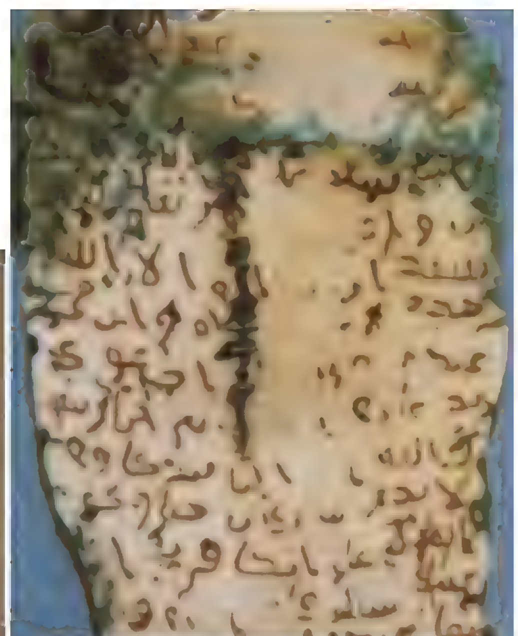
قلنا إذن لا نستبعد أن يرسل النبيّ هذه الرسائل ولكنّ ردود الملوك غير معقولة ولا أدري لماذا لم يجعلوا كسرى يؤمن سرّا أيضا حين وصلته الرسالة؟ ولكن ربّما هذه الحادثة لإضفاء الشرعيّة على ما يكتبون حتّى لا يتساءل القارئ: كيف آمنوا جميعا؟ وبالتالي اختاروا كسرى

---

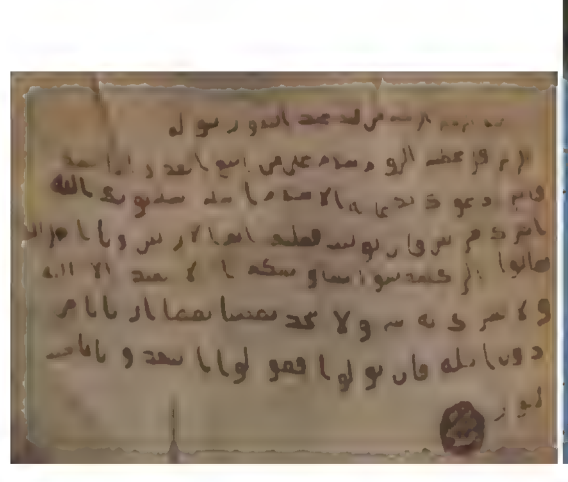
[324] ابن سعد/الطبقات الكبرى/ج1/ص137

[325] تاريخ الطبري/ج2/ص131

ليكون هو الذي لم يؤمن أو بالأحرى قاموا برواية ما حدث معه فعلا، كما أنّهم لو ذكروا أنّ جميع الملوك لم تؤمن فقد يتساءل القارئ ‘‘المسلم‘‘ أيضا: لماذا لم يسلموا أليس رسول الله؟ و هكذا قاموا بقسمة عادلة.



رسالة النبيّ إلى كسرى [مشكوك في أصالتها]



رسالة النبيّ إلى هرقل [مشكوك في أصالتها]

تزعم السيرة أنّ هرقل ملك الإمبراطورية البيزنطيّة أسلم سرّا و لكي نعطي القارئ مثالا ليمكنه المقارنة و يفهم هذه المبالغات السرياليّة نضرب مثلا بأن يعلن شخص ما مجهول أنّه نبيّ ثمّ يرسل رسالة إلى رئيس أمريكا يدعوه إلى الإسلام فيسلم.

غزوة مؤتة

قام النبيّ بإرسال جيش يتكوّن من ثلاثة آلاف شخص إلى مؤتة وهي تقع قريبا من البحر الميّت وأسفل فلسطين أي [أدنى الأرض التي باركنا حولها كما في القرآن] وسبب هذه الحرب: **أنّ رسول الله بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطا ثم قدمه فضرب عنقه فاشتد ذلك على النبيّ حين بلغه الخبر فبعث البعوث واستعمل عليهم زيد بن حارثة.** [326] الذي قتل رسول محمّد هو أحد الأمراء الغساسنة التابعين لبيزنطة واسمه شرحبيل بن عمرو، لكنّ السيرة ستجعل المعركة مباشرة بين محمّد وهرقل بل وتقول: **ثمّ مضوا حتى نزلوا معاناً من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليه من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألف منهم، عليهم رجل من بلي.** [327] يعني أنّ هرقل جاء في مائة ألف في جنده وكذلك العرب المسيحيون انضمّوا إليه في مائة ألف أيضا، فالمجموع مائتا ألف بينما المسلمون ثلاثة آلاف.

هذه أرقام خياليّة ومبالغ فيها كثيرا، والراجح أنّهم هوّلوا في الرقم ليبرّروا سبب هزيمة المسلمين، وإن كانوا رغم ذلك لم يعتبروها هزيمة بل اعتبروها انتصارا.

لا أعتقد أنّ هرقل خرج أصلا إليهم، كما أنّ الغساسنة من المستبعد أن يكونوا بمثل هذا العدد والأرجح أنّ المسلمين التقوا فقط مع الغساسنة [وربّما كانوا في ثلاثين ألف مقاتل] وهو عدد مهول أيضا بالنسبة إلى ثلاثة آلاف شخص. وعلى كلّ حال ومهما كان عدد المحاربين فلنستمع لما ترويه السيرة: **فانطلقوا حتى إذا لقوا ابن أبي سبرة الغساني بمؤتة، وبها جموع من نصارى العرب والروم، بها تنوخ وبهراء، فأغلق ابن أبي سبرة دون المسلمين الحصن ثلاثة أيام، ثم التقوا على زرع أحمر، فاقتتلوا قتالاً شديداً. فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقتل، ثم أخذه جعفر فقتل، ثم أخذه عبد الله بن رواحة فقتل، ثم اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله على خالد بن الوليد، فهزم الله العدو وأظهر المسلمين** [328] والمقصود بقوله (هزم الله العدوّ) هو أنّ المسلمين استطاعوا الفرار وتراجع خالد بن الوليد بالجيش إلى المدينة.

هذه بصفة عامّة أحداث غزوة مؤتة من الجانب الإسلاميّ [دون أن نذكر المواقف البطوليّة التي ترك الإخباريّون العنان لخيالهم فيها كجعفر بن أبي طالب الذي تلقّى أكثر من تسعين طعنة ورغم ذلك لم يسقط إلاّ في الأخير و غير ذلك من الأساطير] وبما أنّها احتكاك مع الروم فلننظر ماذا يقول الجانب غير الإسلاميّ كي نكوّن رؤية أكثر موضوعيّة ونعود هنا إلى تاريخ تيوفانس باليونانيّة [عاش بين 140 و 190 هجري]:

[326] ابن قيّم الجوزيّة/زاد المعاد في هدى خير العباد/ج3/ص381
[327] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص277
[328] المصدر السابق

AM 6123 [توافق سنة 632 ميلادي]

محمّد [MOUAMED] **الذي مات من قبل، كان قد اختار** [قبل موته] **أربعة أمراء** [AMERAIOUS] **لكي يحاربوا العرب الذين يتّبعون المسيحيّة** [أي العرب الغساسنة] **وذهبوا أمام مدينة اسمها موكيا حيث يوجد النائب** [النائب=BIKARIOS وهو المكلّف بالماليّة عادة لكن يمكنه أن يقود الجيش إن اقتضى الأمر ذلك[329]] **النائب تيودورس، وكانوا ينوون** [أي المسلمون] **مهاجمة العرب في اليوم الذي يقدّمون فيه القرابين لآلهتهم** [حرفيّا التضحية للآلهة eidolothusias ومن الممكن أن يكون العرب المسيحيّون الغساسنة حافظوا على بعض العادات الوثنيّة] **وقد علم النائب بهذا الأمر** [أي بمخطّط المسلمين] **من شخص قرشيّ** [حرفيّا Korasinos] **اسمه Koutabas** [سنعود لهذا الاسم] **وكان تابعا له، فجمع** [أي تيودورس] **كلّ الجنود الذين يحرسون الصحراء، وإذ كان يعلم بدقّة مخطّطهم** [أي مخطّط المسلمين] **بفضل العربيّ الذي أخبره، هاجمهم بنفسه في مكان اسمه مؤتة Mothous وقتل ثلاثة من أمرائهم والكثير من جيشهم، لكنّ أميرا اسمه خالد،** [Chaledos] **ويسمّى بسيف الله، استطاع الهروب.**[330]

نقاط الالتقاء بين النصّين، العربي و اليوناني:

1-المكان: مؤتة

2-خروج أربعة أمراء يقودون الجيش ومقتل ثلاثة منهم [أربعة أمراء بما فيهم خالد]

3-مهاجمة الغساسنة الموالين للروم

4-تراجع جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد

نقاط الاختلاف:

1- تاريخ المعركة: فالسيرة تشير إلى سنة 629 ميلادي في حياة محمّد بينما تيوفانس إلى السنة العالميّة 6123 وهو ما يوافق سنة 632 ميلادي ويشير إلى أنّ محمّدا كان قد توفّي ولكن هو من جهّز الجيش.

2- وجود شخص قرشيّ اسمه Koutabas أخبر تيودورس بالخطّة.

3- عدم مشاركة هرقل في المعركة.

قبل المواصلة علينا أن نعرف من هو Koutabas هذا الذي من قريش ونعود إلى السيرة: **قال ابن إسحاق: ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم، والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف، ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة. فالتقى الناس عندها، فتعبأ لهم المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة يقال له قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عباية بن مالك.**[331]

---

[329] Premare/ fondations de l'islam/p405-406, note 28

[330] Patrologia Graeca/108 ; Premare/ fondations de l'islam/p405-406

[331] ابن كثير/البداية و النهاية/ج4/ص278

في السيرة يوجد شخص اسمه قطبة بن قتادة كان على ميمنة الجيش. ولنا أن نتساءل هل هو نفسه الذي أخبر تيودورس بخطّة المسلمين؟ إنّنا نجد الاسم يتكرّر في النصّين [العربي واليوناني] فهو من ناحية قائد الميمنة [بالنسبة للسيرة العربيّة] ومن ناحية هو الذي قام بالخيانة [بالنسبة للنصّ اليوناني] فمن نصدّق؟
نستطيع التوفيق بين الروايتين حيث يمكن أن يكون خائنا ويكون قائدا على ميمنة الجيش في الوقت نفسه. وبالنسبة إلى فعل الخيانة في حدّ ذاته فهو أمر ليس مستبعدا بل وارد دائما ولنا أن نضرب مثالين:

المثال الأوّل:
حين قرّر الرسول الذهاب إلى فتح مكّة وأمر المسلمين بالتجهّز، قام أحد المسلمين واسمه حاطب بن بلتعة بإرسال كتاب مع امرأة إلى قريش ليخبرهم بخطّة النبيّ، أي قام بالخيانة، لكنّ محمّدا علم بالأمر وأرسل عليّا الذي قبض على المرأة في الطريق إلى مكّة، **فدعا رسول الله حاطباً فقال: يا حاطب ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيّرت ولا بدّلت، ولكنّي كنت امرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق** [332] **فقال رسول الله: وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم** [333] و حاطب بن بلتعة هذا هو نفسه الذي أرسله محمّد إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام

المثال الثاني:
أرسل النبيّ عبد الله بن علقمة ومعه عمرو بن أميّة إلى أبي سفيان ببعض المال وفي الطريق أراد عمرو بن أميّة الاستيلاء على المال وربّما قتل صاحبه الذي معه، وعمرو بن أميّة هذا الذي أراد خيانة صاحبه هو الذي أرسله النبيّ إلى النجاشيّ يدعوه إلى الإسلام، قال عبد الله بن علقمة: **بعثني النبي بمال إلى أبي سفيان يفرّقه في فقراء قريش وهم مشركون يتألفهم** [طبعا يجب أن يقال أنّ النبيّ أرسل المال إلى فقراء قريش حتى لا نفهم شيئا آخر، وكأنّنا لا نعرف كم أخذ أبو سفيان وغيره من الغنائم وسنورد ذلك في حينه] **فقال لي التمس صاحبا، فلقيت عمرو بن أمية الضمري فقال أنا أخرج معك، فذكرت ذلك للنبي فقال لي دونه يا علقمة إذا بلغت بني ضمرة فكن من أخيك على حذر فإني قد سمعت قول القائل أخوك البكري ولا تأمنه، فخرجنا حتى إذا جئنا الأبواء، وهي بلاد بني ضمرة، قال عمرو بن أمية إني أريد أن آتي بعض قومي ها هنا لحاجة لي، قلت لا عليك، فلمّا ولّى ضربت بعيري وذكرت ما أوصاني به النبي فلإذا هو والله قد طلع بنفر منهم معه، معهم القسي والنبل، فلمّا رأيتهم ضربت بعيري، فلمّا رآني قد فُتّ القوم أدركني فقال: جئت قومي وكانت لي إليهم حاجة، فقلت أجل، فلمّا قدمت مكة دفعت المال إلى أبي سفيان** [334]

---

[332] دائما ما يجعل الإخباريّون عمر بن الخطّاب يتدخّل في هذه المواقف لقطع العنق، فكلّ شخص له دور محدّد عندهم.
[333] سيرة ابن هشام/ص736
[334] الحافظ الذهبي/سير أعلام النبلاء/ج3/ص180

إذن ليس من المستبعد أن يقوم أحد المسلمين بالخيانة، والتفسير المنطقي هو أنّه من الممكن أن يكون قطبة هذا [وهو أيضا قائد الميمنة] قد أخبر تيودورس لكن لم يعلم المسلمون بالأمر ولا حتّى كتبة السيرة فيما بعد، فمصادر تيوفانس مخطوطات سريانيّة ويونانيّة لم تصلنا وكذلك المصادر العربيّة.
عندنا مشكلة أخرى: وهي تاريخ المعركة.هل حدثت أثناء حياة محمّد كما قالت السيرة أم بعد وفاته كما قال تيوفانس؟ نستطيع أيضا الربط بين نصّ تيوفانس الذي ذكرناه أعلاه وبين النصّ الإسلاميّ في السيرة. فتيوفانس يذكر أنّ غزوة مؤتة جهّزها محمّد ولكنّه توفّي وخرجت بعده. بينما السيرة تذكر أنّ الغزوة حدثت في حياة محمّد وقبل وفاته بسنتين أو ثلاث. فهل تذكر لنا السيرة غزوة ما جهّزها محمّد ثمّ توفّي وخرجت بعده؟ نعم، بل وتوجّه الجيش أيضا إلى مؤتة.

فغزوة مؤتة الأولى التي ذكرناها [وحسب السيرة] كانت بقيادة زيد بن حارثة وفيها انهزم المسلمون وتراجع خالد بن الوليد، وغزوة مؤتة الثانية [وحسب السيرة] كانت بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة وفيها انتصر المسلمون. وتذكر السيرة أنّ عدد المسلمين كان ثلاثة آلاف شخص في الغزوتين.

غزوة أسامة بن زيد مؤتة: [الغزوة الثانية حسب السيرة]
فلما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة أمر رسول الله الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، وأمرهم بالانكماش في غزوهم (...) وركب أسامة إلى معسكره وصاح في الناس أصحابه باللحوق بالعسكر فانتهى إلى معسكره ونزل وأمر الناس بالرحيل وقد متع النهار . فبينا أسامة يريد أن يركب من الجرف أتاه رسول أم أيمن - وهي أمه - تخبره أن رسول الله يموت فأقبل أسامة إلى المدينة معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح ، فانتهوا إلى رسول الله وهو يموت فتوفي رسول الله حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول [335] بعد وفاة النبيّ خرج أسامة بن زيد بالجيش .
من الممكن أنّ تيوفانس جمع بين الروايتين وجعلها في غزوة واحدة فقط أثناء وفاة محمّد، ومن الممكن أن تكون غزوة واحدة [كما ذكرها تيوفانس] و قسّمها الإخباريّون إلى غزوتين.
و هنا نتساءل:
- لماذا جمع تيوفانس بين الروايتين؟
أو
- لماذا قسّم الإخباريون الرواية إلى غزوتين؟
بالنسبة لتيوفانس فلا يوجد عنده دافع [بالنسبة لهذه الأخبار] إلى إخفاء رواية وإظهار أخرى إلاّ إذا كان قد أخطأ في فهم الروايتين أو اعتبرهما قصّتين لغزوة واحدة.
بالنسبة للإخباريّين فهم يملكون دافعا معنويّا وهو إن كان المسلمون قد خسروا في غزة مؤتة الأولى فهاهم قد انتصروا في الثانية، وربّما اختلطت الأخبار عليهم خاصّة أنّها شفويّة فاعتبروها غزوتين. لا نستطيع أن نرجّح رأيا بصورة قاطعة في هذا الأمر وإن كنّا نميل أكثر إلى كلام تيوفانس و ذلك لهذه الأسباب:

[335] مغازي الواقدي/ج3/ص1120

1- يورد التاريخ بدقّة وهو يوافق تاريخ غزوة مؤتة الثانية في السيرة.
2- يذكر معلومات تاريخيّة موثّقة من طرق أخرى كذكره اسم تيودورس المكلّف بالماليّة في المنطقة.
3- يذكر تقديم القرابين إلى الأصنام من طرف بعض العرب المسيحيّين وهذا قد أشارت إليه مصادر مسيحيّة أخرى قديمة [راجع مثلا كتاب Le culte لمؤلّفه Lemmonyer وخاصّة الصفحات 93 وما بعدها]
4- يذكر معلومات جديدة عن قيام قطبة [وهو اسم مذكور في السيرة] بإبلاغ الغساسنة والروم بتحرّك المسلمين.

قد يتساءل القارئ عن أسباب استفاضتي في الحديث عن غزوة مؤتة و قد يقول قائل: إن كانت الغزوة أثناء وفاة محمّد أو قبلها بسنتين ما المشكل هنا؟ فالمهمّ أنّه جهّز جيشا وأرسله لمهاجمة الروم، وليس أوّل مرّة يخطئ فيها الإخباريّون في تاريخ الأحداث.
السبب في هذه الاستفاضة هو أنّنا كنّا ومنذ بداية هذا البحث لا نملك إلاّ المصادر الإسلاميّة للحصول على المعلومات [وإن كنّا قد حاولنا فرزها والوصول إلى نتائج بدت لنا منطقيّة] ولكن ما أن احتكّ المسلمون بالحضارات المجاورة حتّى بدأت المعلومات تصلنا أيضا من مصادر أخرى معاصرة لها ممّا يفتح أمامنا مجالا أكبر للتحرّك ضمن الروايات وقدرة على فرزها بأكثر دقّة [إن جاز التعبير] وهو ما حاولنا فعله مثلا بمقارنة رواية تيوفانس مع رواية السيرة.

و أشير إلى هذا الأمر لأخلص بالقارئ إلى أنّ الإخباريّين حين بدؤوا التدوين بعد مائة وخمسين سنة من وفاة النبيّ [أي تدوين السيرة] واعتمادا على قناة شفويّة في الذاكرة تختلط فيها الأحداث وتتحرّف وضعوا فيها كلّ ما وصلهم [مفرّقا في بطون الكتب] و غم ذلك فقد اعتمدوا روايات ورفضوا أخرى [إمّا بتضعيفها أو جرح رجالها وغير ذلك حتّى تتناسب الأخبار مع الرؤية الدينيّة الرسميّة] ولكنّنا هنا نقبل بعض الروايات ونرفض أخرى اعتمادا على مقارنة الروايات الإسلاميّة ببعضها ووضعها على محكّ المنطق والعقل [وهذا أضعف الإيمان إذ ليس لنا معلومات غيرها] كما فعلنا في بداية هذا البحث، لكن ما أن بدأ العرب في الهجوم على الإمبراطوريتين الرومانيّة والفارسيّة حتّى لفتوا إليهم الأنظار وبالتالي من المنطقيّ أن نبحث عمّا قالوه ولا نقتصر على قراءة الأحداث من وجهة نظر واحدة كالسيرة والتي لها أسبابها الدينيّة والسياسيّة في رواية بعض الوقائع وإخفاء أخرى.
وأودّ أن أشير إلى أنّنا لا نقدّم النصوص غير الإسلاميّة [اليونانيّة أو السريانيّة مثلا وغيرها] على نصوص السيرة، فقد تخطئ هذه النصوص أيضا إمّا عن تزوير متعمّد لأسباب دينيّة أو سياسيّة وإمّا عن سهو أو خطأ [مثلا هيرودوت والمسمّى بأبي التاريخ بالغ في عدد جيوش الفرس أثناء مهاجمتهم لإسبرطة وقال كان عددهم مليون شخص لكنّ الباحثين اليوم يشكّكون في كلامه ويعتقدون أنّ العدد لا يتجاوز 250 ألف شخص، و الخ..]
وإن كان المؤرّخ أو الإخباريّ أخطأ أو بالغ أو زوّر أو التبس عليه الأمر في تقييم أو تقديم معلومة ما، فهذا لا يعني أنّ كلّ معلوماته الأخرى خاطئة، والسيرة توجد فيها الكثير من

المبالغات وخلط الروايات لكن أيضا توجد فيها حقائق يمكننا تلمّسها وسأفتح قوسا لأعطي القارئ مثالا، لنأخذ مثلا تاريخ ولادة النبيّ:

وصلتنا عن تاريخ ولادة النبيّ حزمة من الأخبار المختلفة عن تاريخ ولادته، ومن ضمن هذه المعلومات التي دوّنها لنا الإخباريّون بغثّها وغثيثها:

1- عن سويد بن غفلة أنه قال: أنا لدّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولدت عام الفيل.

2- عن أبي جعفر الباقر: كان قدوم الفيل للنصف من المحرم، ومولد رسول الله بعده بخمس وخمسين ليلة.

3- والمقصود أن رسول الله ولد عام الفيل على قول الجمهور، فقيل: بعده بشهر، وقيل: بأربعين يوماً، وقيل: بخمسين يوماً - وهو أشهر -.

هذا التاريخ هو الذي اتّفقت عليه الرواية الرسميّة، ونحن نعرف جميعا اليوم أنّ النبيّ ولد عام الفيل، ونحدّده حوالي 570 ميلادي، وصار هذا الأمر حقيقة مسلّمة، ولكن كما قلنا فالإخباريّون ألقوا إلينا بحزمة من المعلومات:

4- وقيل: قبل الفيل بثلاث وعشرين سنة

5- وقال أبو زكريا العجلاني: بعد الفيل بأربعين عاماً. رواه ابن عساكر.

6- عن ابن عباس قال: ولد رسول الله قبل الفيل بخمس عشرة سنة.

7- وقيل: بعد الفيل بثلاثين سنة. قاله موسى بن عقبة عن الزهري.

أوّلا فإنّ الذي اتّفق عليه الجمهور وهو أنّ النبيّ ولد عام الفيل سنة 570 ميلادي هو كلام غير صحيح، فلم يكن لديهم التقنيات العلميّة اللازمة للتأكّد من الأخبار أركيولوجيا وإنّما اعتمادا على فلان ثقة وفلان غير ثقة، ولكن توجد فعلا روايتان صحيحتان في هذه السلّة من المعلومات وهما الروايتان رقم 4 أو رقم 7. فالرواية رقم 4 يذكرها ابن كثير بلا سند و يقول: "قيل" أنّ عام الفيل كان قبل مولد النبيّ ب 23 سنة والرواية رقم 7 يذكرها موسى بن عقبة عن الزهريّ و يقول: عام الفيل كان قبل المولد بـ 30 سنة.

و النقوش الأركيولوجيّة [وهي أصحّ من التاريخ المكتوب] وكذلك الأبحاث تشير إلى أنّ أبرهة قام بمهاجمة عرب جنوب الحجاز بين سنوات 540 و 552 ميلادي تقريبا أي 23 أو 30 سنة قبل مولد النبيّ لذلك فرواية موسى بن عقبة صحيحة [وبالمناسبة تُعتبر مغازي موسى بن عقبة أصحّ المغازي على حدّ قول أنس ولكن لم تصلنا كاملة] وتاريخ ولادة النبيّ لا علاقة له بسورة الفيل [إن اعتمدنا بعض سور القرآن كوثائق تاريخيّة أيضا] حيث يقول: **ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل** الخ... وهذا لا يعني أنّ النبيّ مولود عام الفيل، وذلك كما يقول: "ألم تر كيف فعل ربّك بعاد" فهذا لا يعني أنّ النبيّ مولود في زمن عاد، وإنّما القرآن يروي حادثة وقعت في مكان ما لأصحاب الفيل، كما أنّه غنيّ عن الإشارة أنّ سورة الفيل لا تذكر أبرهة ولا مكّة ولا مهاجمة الكعبة. أي أنّ القرآن لا يوثّق أيضا هذه الحادثة ولا يربطها بولادة النبيّ، وأبرهة لم يصل إلى مكّة ولم يهاجمها وإنّما توقّفتْ حملته في جنوب الحجاز وعادتْ، وقد تكون القصّة أصبحت أسطورة ودخلت في الموروث الشعبيّ بعد مائتيْ سنة ثمّ ربطها الإخباريّون بوقت

ولادة محمّد لإضفاء بعض المعجزات عليه وعلى الكعبة قبل ولادته وربطها بسورة الفيل في القرآن.

وقد تتبّعت جذور هذه القصّة فوجدت أنّ مصدرها ابن اسحاق في السيرة والذي نقل عنه الجميع فيما بعد وصارت القصّة مسلّمة بد يهيّة. ولحسن الحظّ فقد وصلنا تفسير مقاتل بن سليمان [المتوفّي حوالي سنة مائة وخمسين للهجرة [336]] وهو معاصر لابن اسحاق، لكنّ تفسير مقاتل لسورة الفيل يختلف تماما عن قصّة ابن اسحاق، ممّا يشير إلى أنّ القصّة لم تكن أخذت صورتها النهائيّة التي نعرفها اليوم، ولنستمع ماذا يقول مقاتل: **ألم تر (ألم تعلم يا محمد) كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) [آية : 1] يعني أبرهة بن الأشرم اليماني وأصحابه، وذلك أنه كان بعث أبا يكسوم بن أبرهة اليماني الحبشي، وهو ابنه، في جيش كثيف إلى مكة، ومعهم الفيل ليخرب البيت الحرام، ويجعل الفيل مكان البيت بمكة، ليعظم ويعبد كتعظيم الكعبة، وأمره أن يقتل من حال بينه وبين ذلك، فسار أبو يكسوم بمن معه حتى نزل بالمعمس، وهو واد دون الحرم بشيء يسير، فلما أرادوا أن يسوقوا الفيل إلى مكة لم يدخل الفيل الحرم، وبرك، فأمر أبو يكسوم أن يسقوه الخمر، فسقوه الخمر ويردونه في سياقه، فلما أرادوا أن يسوقوه برك الثانية، ولم يقم وكلما خلوا سبيله ولّ ى راجعاً إلى الوجه الذي جاء منه يهرول، ففزعوا من ذلك، وانصرفوا عامهم ذلك.**

فمقاتل يتحدّث عن ابن أبرهة وليس أبرهة نفسه بل ويؤكّد قائلا : (وهو ابنه) كما أنّ الفيل لم يفعل شيئا وعاد في ذلك العام، والقصّة طويلة حيث سيخرج بعد سنتين بعض تجّار قريش إلى الساحل وسيشعلون بعض النار لشواء بعض الأطعمة ثمّ يذهبون وينسون النار مشتعلة، فهبّت ريح وحملت بعض اللهب إلى كنيسة في ذلك المكان فاحترقت هذه الكنيسة فغضب النجاشيّ وأعاد إرسال بعثة أخرى لكنّ الله أرسل عليهم طيرا أبابيل وقضى عليهم، ثمّ لنستمع إلى ما يقول مقاتل في الأخير: **وكان أصحاب الفيل قبل مولد النبي بأربعين سنة، وهلكوا عند أدنى الحرم، ولم يدخلوه قط.** [337] فعند مقاتل مولد النبيّ كان أربعين سنة قبل الفيل. وكما عدنا إلى أقدم تفسير للقرآن [وليس الطبري كما هو شائع] نعود أيضا إلى أقدم كتاب حديث وهو مصنّف عبد الرازق المتوفّي سنة مائتين وإحدى عشرة للهجرة [338] ونقرأ هذه الرواية عن الزهريّ: **إنّ أوّل ما ذكر من عبد المطلب جد رسول الله أنّ قريشا خرجت من الحرم فارة من أصحاب الفيل وهو غلام شاب (...) فرجعت قريش، وقد عظم فيهم بصبره وتعظيمه محارم الله، فبينا هو على ذلك ولد له أكبر بنيه، فأدرك، وهو الحارث بن عبد المطلب** [339] فالفيل في هذه القصّة كان قبل ولادة ابن عبد المطّلب الأكبر، بينما عبد الله أبو محمّد هو أصغر أبناء عبد المطّلب، حسب السيرة. وعلى كلّ حال فأركيولوجيّا أبرهة لم يهاجم مكّة وإنّما توقّف في جنوب الحجاز على مسافة أربعمائة كيلومتر عن مكّة ونحن نعرف نقوش أبرهة وهي ثلاثة نقوش، الأوّل تحت الرمز CIH 541 وهو نقش بتاريخ 549 ميلادي، والثاني تحت الرمز RY 506 بتاريخ 552 ميلادي، والثالث تحت الرمز Ja 544-547 بتاريخ 558 ميلادي، وعلى الأغلب فإنّ أبرهة توفّي قبل سنة 560 ميلادي، والنقش الذي يهمّنا هنا هو نقش بئر المريغين RY506 المؤرّخ بسنة 552 ميلادي[340] ويشير النقش إلى أنّها الحملة الرابعة لتأديب القبائل العربيّة

---

[336] ابن خلكان/وفيات الأعيان/باب مقاتل

[337] تفسير مقاتل بن سليمان/تحقيق أحمد فريد/دار الكتب العلميّة/لبنان/2003

[338] الحافظ الذهبي/سير أعلام النبلاء/ج9/ص563

[339] مصنّف عبد الرزاق/ج5/ص313

[340] انظر صورة النقش في صفحة 21.

الثائرة وكان ذلك في شهر أفريل إثر ثورة بني عامر، ويذكر الأماكن التي خر جت لأجلها هذه الحملة وهذا هو نصّ النقش:
بقوة الرحمن ومسيحه الملك أبرهة زيبمان ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وقبائلهم (في) الجبال والسواحل ، سطر هذا النقش عندما غزا [قبيلة] معد [في] غزوة الربيع في شهر "ذو الثابة" (ابريل) عندما ثاروا كل [قبائل] بنى عامر، وعيّن الملك [القائد] "أبا جبر" مع [قبيلة] علي [علا؟ علي؟] [والقائد] "بشر بن حصن" مع [قبيلة] سعد [وقبيلة] مراد، وحضروا أمام الجيش ـ ضد بنى عامر [وقد وجّهت] كندة وعلي في وادي "ذو مرخ" ومراد وسعد في واد على طريق تربن وذبحوا وأسروا وغنموا بوفرة وحارب الملك في حلبن واقترب كظل معد (وأخذ) أسرى وبعد ذلك فوّضوا [قبيلة معد] عمرو بن المنذر [في الصلح] فضمنهم ابنه (عروة) (عن أبرهة) [فعيّنه حاكماً على] معد ورجع (أبرهة) من حلبن بقوة الرحمن في شهر ‹‹ذو علان›› في السنة الثانية والستين وستمائة [552 ميلادي] [341] ودون أن نتوسّع كثيرا في تحليل هذا النقش يمكن أن أشير إلى قوله (في واد على طريق تربن) وهو أنّ (تربن) من الممكن أن تكون مكانا يقع على بعد 190 كيلومترا شرق مكّة [342] لكن تظلّ في كلّ الحالات مكّة بعيدة عن حملة أبرهة أركيولوجيّا وقرآنيّا أيضا، كما أنّ أبرهة عاد منتصرا.
أمّا إن اعتمدنا على الرواية الرسميّة مع الأركيولوجيا في الوقت نفسه وجعلنا النبيّ مولودا عام الفيل فعلا أي على أقصى تقدير سنة 552 ميلادي فإنّنا قد نواجه بعض المصاعب التاريخيّة العديدة ويكون النبيّ قد توفّي عن سنّ تناهز ثمانين عاما وبالتالي فإنّنا نقنع (حاليّا) بوجود رواية أو روايتين صحيحتين في الأخبار يوافقان الإطار العام الذي وضعه لنا كتبة السيرة.
أغلق القوس.

وبما أنّنا تحدّثنا عن غزوة مؤتة وعن الغساسنة فإنّي سأذكر حادثة طريفة، وسأذكرها بلغتنا المعاصرة نقلا عن ابن سعد في الطبقات: [343]
كان عمر بن الخطّاب وجاره [وهو شخص من الأنصار] يتناوبان على الحراسة في المدينة حيث يعتقد المسلمون أنّ الغساسنة بدؤوا يجمعون الجيوش لغزوهم في يثرب. وفي إحدى الليالي، وقد كانت نوبة هذا الشخص في الحراسة بينما كان عمر نائما في بيته، إذ جاء هذا الجار وطرق باب عمر طرقا شديدا، فنهض عمر مفزوعا واقترب من الباب قائلا:
عمر: من الطارق؟
جار عمر: أنائم أنت؟
ففتح عمر الباب وقال: ماذا حدث؟
جار عمر: لقد حدث هذا اليوم حادث عظيم.
عمر: ما هو؟ هل هجمت علينا الغساسنة؟
جار عمر: بل أمر أعظم من هذا وأشدّ!
عمر: فماذا حدث؟
جار عمر: لقد طلّق النبيّ نساءه!

---
[341] Journal Asiatique/A.L.Premare/V.288/T2/2000/p261-367
[342] Ibid.
[343] ابن سعد/الطبقات الكبرى/ج8/ص183، صحيح مسلم/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج1/ص32

يبدو أنّ طلاق النبيّ أعظم من هجوم الغساسنة أصلا، ولا أدري إن كان ناقل هذا الخبر يتهكّم أم يعتقد فعلا فيما يقول.

والنبيّ واجه مشكلة كبيرة بسبب دخوله بماريّة في بيت حفصة [كما أوردنا أعلاه] حيث اتّحدت ضدّه حفصة وعائشة ممّا جعله يعتزل النساء [طبعا في لحظة غضب فقط فهو يحبّ الطّيب والنساء] وبالتالي فقد تدخّل القرآن كالعادة ولنستمع لهذه المشاكل العائليّة، والتي لا دخل لنا بها ولا تعنينا، وللأسف يصلّي بها المسلمون ويردّدونها في صلواتهم [ربّما سيقول البعض لأنّه قدوة وأسوة، وهذا كلام جميل ولكنّه موجّه إلى من يريد أن ينفي شخصيّته ويعيش في جلباب شخص آخر]

سورة التحريم من الآية رقم 3 إلى 5: **وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثا** [حين طلب من حفصة ألاّ تخبر أحدا بدخوله بماريّة في بيتها] **فلما نبّأت به** [لمّا أخبرت به عائشة ولم تكتمه] **وأظهره الله عليه** [أي أنّ الله شخصيّا أخبر النبيّ بأنّ حفصة لم تكتم خبر دخوله بماريّة] **عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** [يقصد حفصة وعائشة ويأمرهما بالتوبة] **وإن تظاهرا عليه** [وإن تتّحدا ضدّه يا حفصة ويا عائشة وتوجعان دماغه بغيرتكما] **فإنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير** [فالله يتولاّه عنكما ومعه جبريل والملائكة] **عسى ربّه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن** [تهديد بالطلاق] **مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا** [وثيّبات وأبكارا أيضا كحفصة وعائشة] راجع تفسير الطبري والقرطبي والجلالين أمّا ابن كثير فيجعل الحكاية في البداية تتحدّث عن العسل ثمّ يضطرّ إلى ذكر القصّة حين يواصل مع الآيات.

عملة نقديّة باسم مسيلمة

يشير السيرة إلى أنّ النبيّ خرج لفتح مكّة في عشرة آلاف مقاتل، وبعدها بسنة جاءته وفود العرب إلى المدينة لتعلن إسلامها وسمّيت تلك السنة بعام الوفود وربّما كان منطقيّا أن يجعلوا عام الوفود قبل فتح مكّة حيث لنا أن نتساءل كيف جمع النبيّ عشرة آلاف مقاتل والحال أنّ أكبر جيش استطاع النبيّ تجهيزه هو الذي انطلق إلى غزوة مؤتة في ثلاثة آلاف مقاتل، فكيف أصبح بعد عدّة شهور يتجاوز الثلاثة أضعاف؟

نفهم من كلام الإخباريّين أنّ العديد من العرب دخلت الإسلام بين صلح الحديبيّة وفتح مكّة، ممّا يجعلنا نستنتج أنّ هذا الاتفاق مع قريش قد أثمر [ربّما هو اتّفاق قديم كما أشرنا وأُعيد إحياؤه] فهل كان لقريش دور حاسم في دعوة العرب للإسلام؟

الجواب الذي يقفز إلى الذهن هو: لا، فقريش أخرجت النبيّ وحاربته و لم تسلم إلاّ بعد فتح مكّة فكيف تكون ساعدته قبل إسلامها؟

و لكنّنا نمتلك العديد من الدلائل و الاستقراءات التي تشير إلى أنّ الأمر معقّد أكثر من ذلك.فهو خليط من سياسة ودين. أو بالأحرى صراع من أجل حكم العرب، قريش من ناحية بما فيهم محمّد ونبوّته، وبعض القبائل الأخرى و أنبيائهم.[344]

و سنعتمد على أصحّ و أوثق المصادر لقراءة التاريخ، وهذا المصدر هو العملة. و سأقدّم في البداية طريقة نقش العملة في تلك الفترة وكيفيّة قراءتها، ونأخذ مثلا دينارا ذهبيّا يعود إلى العهد الأمويّ في إفريقيّة :[345]

نجد فيه هذه السطور اللاتينيّة:

SLDFRTINAFRKANXCV

SMILS

INNDNINDSNISISNDS

الجملة الأولى:

SLDFRTINAFRKANXCV وتعني:

Solidus feritus in Africa anno 95

الترجمة:

ضرب هذا [الدينار] الذهبيّ بإفريقيّة سنة 95 [للهجرة]

الجملة الثانية:

SMILS

و تعني:

Similis

الترجمة:

---

[344] راجع صفحة 117.

[345] Catalogues des monnaies musulmanes de la BN/Khalifes orientaux/Henri Lavoix/ p79/Paris/1887

مشابه [أي له كلّ خصائص العملة البيزنطيّة ومُعترف به]

الجملة الثالثة:

INNDNINDSNISISNDS

و تعني:

in nomine domini non deus nisi solus non Deo socius

الترجمة:

باسم الله، لا إله إلاّ هو وحده لا شريك له



نسخة طبق الأصل لدينار ذهبيّ مضروب بإفريقيّة سنة 97 للهجرة ونرى بداية دخول الأحرف العربيّة في وسط العملة، فنقرأ في الوجه (لا إله إلاّ الله) وفي الظهر (محمد رسول الله) بينما الكتابة الدائريّة لا تزال باللاتينيّة وهي مثل المثال السابق تقريبا الذي يسبقها بسنتين.[346]

هذا في إفريقيّة أمّا في المشرق وكما نعلم وقبل تعريب العملة تماما من طرف عبد الملك بن مروان وانتشارها فيما بعد كان المسلمون يستعملون العملات البيزنطيّة كما هي وفيها صورة هرقل وأبنائه وقد يضيفون عليها بعض الكلمات العربيّة ويمحون صورة الصليب منها، وكذلك يستعملون العملات الساسنيّة.

و بعد هذا التقديم السريع للقارئ وطرح كيفيّة قراءة العملة من طرف المختصّين، نمرّ الآن إلى القطعة النقديّة الذهبيّة التي تهمّنا هنا وهي طبعا أقدم من المثال الذي أوردناه: [347]

التاريخ: بلا تاريخ

المعدن:عملة ذهبيّة

الحجم:20 مليمترا

الوزن:3.52 غرام

واجهة العملة:

صورة هرقل و على يساره ابنه و يلبسان تاجين عليهما صليبان

و كتابة دائريّة من اليسار إلى اليمين:

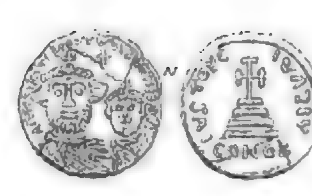
IABUEHMOUCILATCDNIDUXCDNTIU

[346] Recherche des Antiquités dans le nord de l'Afrique/Conseils aux archéologues et aux voyageurs/Paris/1890/p215, Figure 308

[347] Revue Belge de numismatique/ Philippe de Saxe Cobourg/Volume 47/ Bruxelles/1891/p311-312

<u>خلفيّة العملة:</u>
صورة الصليب فوق مدرّج بأربع درجات
و كلمتان موجودتان في الأطراف:
IUSTPoC

AICUAIZ
و تحت المدرّج الذي عليه الصليب كلمة واحدة:
CONOB
قراءة النقوش، النصّ:
IABUEHMOUCILATCDNIDUXCDNTIU
و تعني:
Iussit abutomameh mouceilime apostoluc domini dux credentium
الترجمة:
بأمر أبي ثمامة مسيلمة، رسول الله، أمير المؤمنين
النصّ:
IUSTPoC
و تعني:
Iustus
الترجمة:
صحيح [المقصود هنا وزن العملة]
النصّ:
AICUAIZ
و تعني:
Aequalis
الترجمة:
موافق
النصّ الذي يهمّنا هو:
<u>بأمر أبي ثمامة مسيلمة، رسول الله، أمير المؤمنين</u>


صورة طبق الأصل من عملة مسيلمة

I AbVƎd MoVCII. ALC ∂NI ΔVX C∂NLIV
et déchiffrée comme il suit :
Iussit AbVtomâmƎh MoVCelLimo AposToluC ∂omiNI
ΔVX Cre∂eNTIVm.

النقش المكتوب على العملة بأكثر وضوح

يشير هذا النصّ إلى أنّ مسيلمة [الكذّاب] ضرب عملة باسمه، فمن هو مسيلمة؟
اسمه وكنيته: **هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب يكنّى أبا ثمامة وقيل أبا هارون** [348]
وهو، قال ابن هشام : **مسيلمة بن ثمامة ويكنى أبا ثمامة** [349]
أرضه وقبيلته: **في بني حنيفة بطون متعددة أكثرهم بنو الدول بن حنيفة فيهم البيت والعدد ومواطنهم باليمامة وهي من أوطان الحجاز كما هي نجران من اليمن (...) وطول اليمامة عشرون مرحلة وهي على أربعة أيام من مكة بلاد نخل وزرع وقاعدتها حجر بالفتح وبها بلد اسمه اليمامة ويسمى أيضاً جو باسم الزرقا. وكانت مقراً للملوك قبل بني حنيفة. واتخذ بنو حنيفة بعدها بلد حجر وبقي كذلك في الإسلام** [350]
مسكنه: مسيلمة [وهذا هو اسمه الحقيقيّ وليس تصغيرا لاسم مسلمة، كقولنا عبيدة وسهيل الخ] كان يسكن قصرا في اليمامة وهو أمير ولنستمع للراوي أثناء دخول المسلمين اليمامة في حروب الردّة: **وانتهوا إلى قصر مسيلمة وهو واقف خارجه عند جدار كأنَّه جمل أورق، أي من سمرته، فابتدره وحشيّ بن حرب الأسود - قاتل حمزة - بحربته، وأبو دجانة سماك بن حرشة الأنصاريّ فسبقه وحشيّ فأرسل الحربة عليه من بعد فأنفذها منه وجاء إليه أبو دجانة فعلاه بسيفه فقتله، لكن صرخت جارية من فوق القصر: وا أميراه، قتله العبد الأسود** [351]
قيمته في قومه: قال رجل من بني حنيفة يرثيه حين قتله المسلمون:

لهفي عليك أبا ثمامه لهفي على ركني شمامه**

كم آية لــــــك فيهمُ **كالشمس تطلع من غمامه [352]

وأرسل مسيلمة رسالة مع شخصين إلى محمّد فلُواد النبيّ دعوتهما إلى الإسلام إذ **جاء ابن النَّوَّاحَة، وابن أُثَال، رسولا مسيلمة إلى النبي، فقال لهما: أتشهدان أني رسول الله؟ فقالا: نشهد أنّ مسيلمة رسول الله. فقال النبي: آمنت بالله ورسوله، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما** [353]
ارتداد البعض عن محمّد والرجوع إلى مسيلمة: **عفوة واسمه نهار بن عنفوة وكان قد هاجر وقرأ القرآن ثم سار إلى مسيلمة مرتداً وأخبره أنه سمع رسول الله يشركه في الرسالة فكان أعظم فتنة على بني حنيفة** [354] وارتداد شخص اسمه الرجال: **أقام الرجال عند رسول الله حتى قرأ سورة البقرة وغيرها وتفقّه وعاد إلى اليمامة فارتد وشهد أن رسول الله أشرك مسيلمة معه فكانت فتنته أشد من فتنة مسيلمة** [355]
لم يتردّد الإخباريّون في التقليل من شأن مسيلمة والتهكّم عليه تقويله قرآنا مضحكا مثل: **الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب طويل ومشفر وثيل وإن ذلك من خلق ربنا النبيل. ولمّا سمع سورة الكوثر قال: قد أنزل عليّ مثلها وهي: إنّا أعطيناك الجواهر فصلّ لربك وهاجر إنّ**

---

[348] السهيلي/الروض الأنف/ج7/ص468
[349] المصدر السابق، البلاذري/فتوح البلدان/ج1/ص109
[350] تاريخ ابن خلدون/ج2/ص302
[351] ابن كثير/البداية و النهاية/ج6/ص300
[352] ابن سيّد الناس/عيون الأثر/ج2/ص284
[353] ابن قيّم الجوزيّة/زاد المعاد/ج3/ص611
[354] ابن عبد البر/الاستيعاب في معرفة الصحاب/ج2/ص550
[355] ابن الأثير/الكامل في التاريخ/ج2/ص98

شانئك هو الكافر، ويضيف الراوي قائلا: **فسبحان من أظهر إعجاز القرآن فلو كان من عند غير الله لكان مثل هذا** [356]

و طبعا فالغرض واضح وهو تقديم صورة كاريكاتوريّة لتقزيم شأن مسيلمة والرفع من قدر القرآن، كأنّهم يتناسون أنّ مسيلمة رجل جاهليّ رضع العربيّة مع الحليب ويتناسون أنّ الذين اتّبعوه تجاوزوا عشرات الآلاف ومن غير المعقول أن يكون كلامه بهذه الطريقة، كما أنّ اختيار سورة الكوثر من طرف الراوي يبدو متعمّدا لأنّها أقصر سورة في القرآن وك أنّه دليل على أنّ القرآن لا يمكن الإتيان بمثله، وهذا غير صحيح، فاللغة بوصفها اختراعا إنسانيا لا يوجد فيها إعجاز وهي تتطوّر وتندثر وتحكمها عوامل أنثروبولوجيّة عديدة، وسورة الكوثر مثلا لا ترقى إلى أن تكون من روائع التعبير فهي مبنيّة على : (**إنّا أعطيناك كذا، فلفعلْ كذا وكذا، إنّ شانئك هو كذا**) فما وجه الإعجاز هنا؟ لكن لا ينفي هذا وجود آيات مبدعة (وليس معجزة) في القرآن وقد رفض العديد من المفكّرين العرب القدامى أسطورة إعجاز القرآن لغةً ونظما كابن الراوندي الذي ذكر في كتابه ''الزمرّذ'': (**إنّ فصاحة أكثم بن صيفيّ تفوق فصاحة القرآن (...) وحتّى لو سلّمنا بأنّ معرفة النبيّ للغة العربيّة تفوق معرفة جميع العرب فهل تقوم دعوى الإعجاز البيانيّ حجّة على من ليس بعرب ؟**) [357] أو كما قال ابراهيم النظّام: (**إنّ نظم القرآن وتأليفه ليس بحجّة للنبيّ**) [358] أو كما قال الرازي : (**قد والله تعجّبنا من قولكم إنّ القرآن هو معجز، وهو مملوء من التناقض، وهو أساطير الأوّلين، وهي خرافات**) [359] أو من المحْدثين كالشاعر معروف الرصافي إذ يقول: (**إنّ الذين كتبوا في إعجاز القرآن لم يتكلّموا عن تدبّر وتفكير، ولم يكونوا أحرارا في أفكارهم، وإنّما تكلّموا عن إيمان واعتقاد**) [360] الخ من الأمثلة التي يضيق المقام عن ذكرها هنا.

ولم تخلو الأخبار من بعض ''الفلاشات'' السريعة التي نفهم منها أنّ مسيلمة كان له شأن كبير بل و ضرب العملة باسمه، ومن المستحيل أن يكون قرآنه بهذه الطريقة الصبيانيّة التي يزعمها الإخباريون. ويذكر ابن كثير أنّ مسيلمة قال: (سمع الله لمن سمعْ، وأطمعه بالخير إذا طمعْ، ولا يزال أمره في كل ما يسَّر مجتمعْ، رآكم ربُّكم فحيَّاكم، ومن وحشته أخلاكم، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم، علينا من صلوات معشر أبرار لا أشقياء ولا فجّار، يقومون اللَّيل ويصومون النَّهار، لربِّكم الكبَّار، ربِّ الغيوم والأمطار) و يقول أيضا: (لمَّا رأيت وجوههم حسنت، وأبشارهم صفت، وأيديهم طفلت، قلت لهم: لا النساء تأتون، ولا الخمر تشربون، ولكنَّكم معشر أبرار تصومون، فسبحان الله إذا جاءت الحياة كيف تحيون، وإلى ملك السَّماء كيف ترقون، فلو أنها حبة خردلة لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور، ولأكثر الناس فيها الثبور.) [361] ورغم الشكّ في نسبة هذا الكلام إلى مسيلمة، فهو أحسن على الأقلّ من قوله، أو تقويله : (ضفدعي يا

---

356 القزويني/آثار الهلاد وأخبار العباد/6-31/المكتبة الشاملة

357 عبد الرحمن بدوي/تاريخ الإلحاد في الإسلام/دار سينا للنشر/مصر/1993/ ص144

358 المصدر السابق

359 المصدر السابق/ص 205

360 معروف الرصافي/الشخصيّة المحمّديّة/دار الجمل/ألمانيا/2002/ص 601

361 ابن كثير/البداية و النهاية/ج6/ص353

ضفدعين نقّي ما تنقّين الخ..) ناهيك عن العرب الذين اتّبعوه والذين يعرفون العربيّة، ويفسّر البعض عدد الذين اتّبعوه بالعصبيّة القبليّة ولا أدري لماذا لا نفسّر أيضا عدد الذين اتّبعوا محمّدا بالعصبيّة القبليّة أيضا وحبّ الغنائم خاصّة أنّ قريشا، قومه، تواصل حكمها من الخلفاء الراشدين إلى مئات السنين بعدهم فإن لم تكن هذه الدعوة في صالح قريش لأجل المُلْك ففي صالح من إذن؟

عدد الذين اتّبعوا مسيلمة: **وانحاز إلى مسيلمة الكذّاب بنو حنيفة وخلق كثير باليمامة (...) وفي أيّام الصّديق حين بعث خالد بن الوليد لقتال مسيلمة وبني حنيفة، وكانوا في قريب من مائة ألف أو يزيدون، وكان المسلمون بضعة عشر ألفاً** [362] وإن كنت أشكّ في هذا العدد المهول (مائة ألف) فإنّ المعنى هو أنّ الذين اتّبعوه كانوا خلقا كثيرا، ولنستمع إلى الراوي: **وأردف** [أبو بكر] **الصّديق خالدا** [بن الوليد] **بسرية لتكون ردءاً له من وراءه، وقد كان بعث قبله إلى مسيلمة عكرمة ابن أبي جهل، وشرحبيل بن حسنة فلم يقاوما بني حنيفة لأنّهم في نحو أربعين ألفاً من المقاتلة،**[لم يستطع عكرمة و لا شرحبيل مقاومة مسيلمة] **فعجّل عكرمة ابن أبي جهل مجيء صاحبه شرحبيل فناجزهم فنكب فانتظر خالداً، فلمّا سمع مسيلمة بقدوم خالد عسكر بمكان يقال له: عقربا في طرف اليمامة والريف وراء ظهورهم، وندب النّاس وحثّهم فحشد له أهل اليمامة، فلمّا تواجه الجيشان قال مسيلمة لقومه: اليوم يوم الغيرة اليوم إن هُزمتم تستنكح النّساء سبيّات وينكحن غير حظيات فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم** [أي قال مسيلمة: إن انتصر عليكم المسلمون فسيقومون بسبي نسائكم و اغتصابهنّ, فقاتلوا اليوم عن أعراضكم] [363] **وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله** [364] **فاصطدم المسلمون والكفّار فكانت جولة وانهزمت الأعراب حتّى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد وهمّوا بقتل أم تميم** [أمّ تميم هي زوجة خالد] **حتى أجارها مجاعة** [مجاعة من قوم مسيلمة ورغم ذلك أجار زوجة خالد] **وقد ميّز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وكلّ بني أب على رايتهم يقاتلون تحتها حتى يعرف النّاس من أين يؤتون، وصبرت الصّحابة في هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله ولم يزالوا يتقدّمون إلى نحور عدوّهم حتى فتح الله عليهم، وولّى الكفّار الأدبار، واتّبعوهم يقتلون في أقفائهم ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاءوا، حتى خلصوا إلى مسيلمة - لعنه الله - وإذا هو واقف في ثلمة جدار كأنّه جمل أورق، وهو يريد يتساند لا يعقل من الغيظ، وكان إذا اعتراه شيطانه** [أي الوحي]**أزبد حتى يخرج الزّبد من شدقيه** [لاحظوا أنّ هذه الحالة تحدث لمحمّد أيضا] **فتقدّم إليه وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم قاتل حمزة فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دجانة سماك بن خرشة فضربه بالسّيف فسقط، فنادت امرأة من القصر: وا أمير الوضاءة، قتله العبد الأسود.** [365]

نلاحظ أنّ هذه المعارك و خاصّة في حروب الردّة، رغم أنّ بعضها ليس ردّة، أنّها معارك فرض قوّة - وإن كانت طبعا تحت غطاء الدين- إنّها معركة الحصول على الأرض وتوحيد

---

[362] المصدر السابق/ص342
[363] المصدر السابق/ص356
[364] المصدر السابق
[365] المصدر السابق

العرب تحت راية المنتصر، فكانت قريش هي المنتصرة، والمعارك لا تقتصر فقط في هذا الجانب، بل كأنّ الجزيرة العربيّة كلّها تشهد انتفاضة لم يسبق لها مثيل، وكلّ مدينة أو قرية صارت مهدّدة، كأنّه تسابق نحو الملك و السلطان في إطار حرب أهليّة، **وعظم الخطب واشتدَّت الحال، ونفذ الصِّديق جيش أسامة فقلَّ الجند عند الصِّديق فطمعت كثير من الأعراب في المدينة وراموا أن يهجموا عليه فجعل الصِّدِّيق على أنقاب المدينة حراساً يبيتون بالجيوش حولها، فمن أمراء الحرس عليٌّ ابن أبي طالب، والزُّبير بن العوَّام، وطلحة بن عبد الله، وسعد ابن أبي وقَّاص، وعبد الرَّحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود.** [366] [لا نعجب إن كان الحرّاس من مكّة البطحاء والظواهر] أمّا الذين لا زالوا يوافقون على حكم قريش فقد وضعوا شروطهم وهي عدم دفع الزكاة [لاحظوا أنّ الزكاة ليست كالصدقة بل ما نسمّيه اليوم في عصرنا: الضرائب] **وجعلت وفود العرب تقدم المدينة يقرُّون بالصَّلاة، ويمتنعون من أداء الزَّكاة، ومنهم من امتنع من دفعها إلى الصِّديق، وذكر أنَّ منهم من احتج بقوله تعالى: ((خذ من أموالهم صدقة تطهِّرهم وتزكِّيهم بها وصلِّ عليهم إنَّ صلاتك سكن لهم)). قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا، وأنشد بعضهم: أَطَعْنَا رَسُولَ اللهِ إِذْ كانَ بيننَا * فَواعجَباً ما بالُ مُلْكِ أَبي بَكْر** [367]

لكنّ البقاء للأقوى:

استدعى خالد مالك بن نويرة **فأنَّبه على ما صدر منه من متابعة سجاح، وعلى منعه الزَّكاة وقال: ألم تعلم أنها قرينة الصَّلاة ؟ فقال مالك: إنَّ صاحبكم كان يزعم ذلك. فقال: أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟ يا ضرار اضرب عنقه، فضربتْ عنقه، وأمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثَّلاثة قدرا فأكل منها خالد تلك اللَّيلة ليرهب بذلك الأعراب من المرتدَّة وغيرهم** [368] [أي أنّ خالد بن الوليد قتل هذا الرجل ثمّ قطع رأسه و جعلها مع حجرين و طبخ فوقها] ولم يتوقّف الأمر على هذا بل سبى خالد أيضا امرأة هذا الرجل **وهي أم تميم ابنة المنهال وكانت جملية، فلمَّا حلّت بنى بها وقد تكلَّم أبو قتادة مع خالد فيما صنع وتقاولا في ذلك حتى ذهب أبو قتادة فشكاه إلى الصِّديق، وتكلَّم عمر مع أبي قتادة في خالد وقال للصِّديق: اعزله فإنَّ في سيفه رهقاً.** [طلب عمر من أبي بكر عزل خالد بسبب وحشيّته] **فقال أبو بكر : لا أشيم سيفا سلّه الله على الكفَّار.**[369] [أبو بكر كان يدرك خطورة الموقف و أنّ قريشا هي الآن في معركة حياة أو موت، إنّه الطريق نحو السُلطة المعبّد دائما بالجماجم و الدماء] وكما قالت الأنصار : **بسيوفنا دان الناس لهذا الدين** فبعدما فاتها الملك، فبسيوف قريش دانت الناس لهذا الدين، وضاعت الآية القائلة: **ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** [النحل، آية 125] وحلّ محلّها: **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين** [التوبة، آية 14] ولكلّ مقام مقال.

---

[366] المصدر السابق

[367] المصدر السابق/ص342

[368] المصدر السابق/ص354

[369] المصدر السابق

ربّما لو كان مسيلمة منتصرا في هاته الحرب لكنّا اليوم نقول: مسيلمة صلّى الله عليه وسلّم ونقول :محمّد الكذّاب بل وربّما نذكره باسمه ونقول: قثم [370] الكذّاب ولكان يوجد حديث متواتر يقول: (الأئمّة من بني حنيفة) ولكن الدين للمنتصر الذي يفرض شرائعه وقوانينه فكان الحديث المتواتر الذي يقول: (الأئمّة من قريش) أو كما جاء في البخاري: (إن هذا الأمر [أي الحكم] في قريش لا يعاديهم أحدٌ إلا كبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين.) ولربّما أيضا لو انتصر مسيلمة لكان مسيلمة خير بني حنيفة، وبنو حنيفة خير بني رب يعة، وبنو ربيعة خير عدنان الخ، وهذا يذكّرني بكلام طه حسين متعجّبا : **لأمر ما اقتنع الناس بأنّ النبيّ يجب أن يكون صفوة بني هاشم، وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة قريش، وقريش صفوة مضر، ومضر صفوة عدنان، وعدنان صفوة العرب، والعرب ص فوة الإنسانيّة كلّها. وأخذ القصّاص يجتهدون في تثبيت هذا النوع من التصفية والتنقية وما يتّصل منه بأسرة النبيّ خاصّة، فيضيفون إلى عبد الله وعبد المطّلب وهاشم وعبد مناف وقصيّ من الأخبار ما يرفع من شأنهم ويعلي مكانتهم ويثبت تفوّقهم على قومهم خاصّة وعلى العرب عامّة. وأنت تعلم أنّ طبيعة القصص عند العرب تستتبع الشعر، ولا سيّما إذا كانت العامة هي التي تراد بهذه القصص** [371] نعم يا أستاذي طه حسين، ولو كان مسيلمة منتصرا لرأينا مثل ما رأينا مع تغيير الأسماء فقط.

ودين محمّد لا يختلف كثيرا عن دين مسيلمة -كما يبدو لنا- حيث يذكر البخاري في تاريخه وابن سعد في طبقاته هذه الرواية عن إيّاس بن ضبيح الحنفي الذي كان من رجال مسيلمة، وإيّاس كان قد قتل زيد بن الخطّاب [أخا عمر لأبيه] في معركة اليمامة ثمّ أسلم إيّاس هذا وصار قاضيا في البصرة: **أنّ عمر بن الخطاب دخل مربدا له ثم خرج فجعل يقرأ القرآن فقال له أبو مريم يا أمير المؤمنين إنك خرجت من الخلاء فقال أمسيلمة أفتاك بهذا؟** [372]

ورواية أخرى: عن أبي مريم إياس بن ضبيح الحنفي قال **كنت عند عمر فقضى حاجته ثم قرأ آيات فقلت: أليس قد أحدثت؟ فقال: مسيلمة أفتاك ذاك؟** [373] ونلاحظ في هذه الرواية أنّ عمرا ذهب لقضاء حاجته [أي ذهب إلى الحمّام] ثمّ حين خرج أخذ يقرأ بعض الآيات ولم يغتسل فنبّهه إيّاس الحنفيّ إلى هذا الأمر فسأله عمر: هل أخبرك مسيلمة بضرورة الاغتسال قبل قراءة القرآن؟ أي أنّ مسيلمة كان يأمر بالوضوء أيضا. ومسيلمة ادّعى النبوّة قبل النبيّ محمّد وكانت قريش تعرفه وتسمّيه رحمان اليمامة وقد أشارت إلى ذلك حين قرأ النبيّ قائلا: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال قائل من قريش: إنّما أخذ علمه من رحمان اليمامة، وفي رواية أخرى: دقّ فوك إنّما تذكر رحمان اليمامة [374] ومن المؤكّد أن يكون لمسيلمة بيت أو كعبة أيضا يعبدون الرحمن فيه أو يطوفون حولها، وإذ تذكر لنا المصادر التاريخيّة ‘‘كعبة اليمامة’’ فإنّها ترجعها إلى بيت ‘‘ذي الخلصة’’ وهو كعبة أيضا حيث لم تكن كعبة مكّة هي الوحيدة في جزيرة العرب: **وذُو الخَلَصَةِ (...): بَيْتٌ كان يُدْعَى الكَعْبَةَ اليَمَانِيَّة، ويُقالُ لهُ: الكعْبَةُ الشّامِيَّةُ أَيْضاً، لِجَعْلِهِم بَابَه**

---

[370] راجع كتاب ‘‘تاريخيّة الدعوة المحمّديّة’’ لهشام جعيّط، حيث أشار إلى أنّ اسم النبيّ قبل البعثة كان ‘‘قثم’’

[371] طه حسين/في الأدب الجاهلي/مطبعة فاروق/1933/ ص138

[372] ابن سعد/الطبقات الكبرى/ج7/ص91

[373] البخاري/التاريخ الكبير/ج1/ص437

[374] راجع صفحة 21.

مُقابِل الشَّام،(...). قُلْتُ: وفي بَعْضِ الأُصُولِ: كانَ يُدْعَى كعْبَةَ اليَمامَةِ، وهُوَ الَّذِي في أُصُولِ الصّحاحِ[375] ومهما كان تفسير ذي الخلصة ربطه بكعبة اليمامة فإنّ المنطقيّ أن يكون لمسيلمة بيت للعبادة له ولأتباعه. وقد أشار الرحّالة والجغرافيّون اليونان إلى كعبات منتشرة في الجزيرة العربيّة ونذكر مثلا ''ديودورس الصقلّي'' في القرن الأوّل قبل الميلاد واصفا بعض المناطق في الجزيرة العربيّة حيث يقول: **بعد أن وصفنا هذا المكان من بلاد الجبال، سنصف المنطقة الأخرى من السواحل التي في جزيرة العرب بادئين من العمق، الذين يسكنون في هذه المناطق يسمّون "BNIZOMENES" ويعيشون على الصيد، ونجد في هذه البلاد معبدا تقدّسه جميع العرب** [376] والمعبد الذي يصفه ديودورس بأنّه مقدّس من جميع العرب يضعه في منطقة Bnizomenes وأترجمها إلى العربيّة: (بني زُمّان) وبنو زمّان، هؤلاء، يسكن بعضهم اليمامة ومنهم الشاعر الفند الزمّانيّ المتوفّي سنة 90 قبل الهجرة تقريبا وكان في اليمامة حيث يقول أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني: **لمّا كان يوم قضة وتجمعت إليهم بكر، جاء إليهم الفند الزماني أحد بني زمان بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن وائل من اليمامة** [377] لكن لا أستطيع الربط بين كلام ديودورس وبين بني زمّان بسبب البعد الزمانيّ بينهم، وربّما ذهب البعض إلى أنّ المعبد المذكور عند ديودورس هو نفسه الكعبة المكيّة لكن هذا ليس صحيحا فالمكان الذي يصفه ديودورس هو أقرب إلى اليمامة من مكّة حيث ينطلق من الخليج الفارسيّ أو ربّما كما قال جواد عليّ في المفصّل: **أمّا ما ذهب إليه بعض الباحثين من أنّ المعبد الشهير الذي ذكره تيودورس الصقلّي في أرض قبيلة عربيّة دعاها Bnizomeni وقال إنّه مكان مقدّس له حرمة وشهرة عند جميع العرب، هو مكّة، فهو رأي لا يستند إلى دليل معقول ومقبول فالموضع الذي يقع المعبد فيه يبعد عن مكّة بعدا كبيرا وهو يقع في حسمى في المكان المسمّى روافة، أو غوافة على رأي ''موسل'' وقد كان في هذه المنطقة والمحلاّت المجاورة لها معابد أخرى كثيرة أشار إليها الكتبة اليونان والرومان، ولا تزال آثارها باقية.** [378] وعلى كلّ حال، ومهما كانت التفسيرات، فمن المنطقيّ أن يكون لمسيلمة معبد له ولأتباعه.

قلنا إذن أنّ أحداث الردّة تشير إلى التسابق نحو الملك والسلطان، وهذا التسابق من أجل السلطة يلزمه طبعا رجال وقوّة بل ووحشيّة أيضا ولنا أمثلة عديدة ويكفي أن نذكر ما قام به خالد بن الوليد بجمع رجال من إحدى القبائل في مكان مغلق وأحرقهم بالنار [379] وليس بالضرورة أن يكون هؤلاء المحاربون في الجيش الإسلامي يعرفون شيئا عن الإسلام بل منهم من لا يعرف آية واحدة من القرآن، ومطمعهم في ذلك الغنائم فليس له إلاّ أن يقول الشهادتين ليصبح مسلما ويشارك في السبي والنهب الخ، ولنا أن نورد خبرا طريفا - نفهم منه كيف يفكّر بعض هؤلاء الجنود في الجيش الإسلامي- يذكره الأصفهاني في كتاب الأغاني وابن عبد ربّه في العقد الفريد: **لمّا كان يوم القادسية أصاب المسلمون أسلحة وتيجاناً ومناطق ورقابا فبلغت مالا عظيماً، فعزل سعد الخمس ثم فضّ البقية، فأصاب الفارس ستة آلاف، والرجل ألفين، فبقي مال كثير .**

---

[375] الزبيدي/تاج العروس من جواهر القاموس/ج17/ص561

[376] Diodore de Sicile/Histoire Universelle/III/ch. XXI/ Tr. Terasson, de l'Académie Française

[377] أبو الفرج الأصفهاني/الأغاني/ج1/ص496

[378] جواد عليّ/المفصّل في تاريخ العرب/ج 2 / ص 388

[379] ابن سعد/الطبقات الكبرى/ج7/ص396

فكتب إلى عمر رضي الله عنه بما فعل، فكتب إليه أن ردّ على المسلمين الخمس، وأعط من لحق بك ممّن لم يشهد الواقعة. ففعل فأجراهم مجرى من شهد [ورغم ذلك بقي أيضا مال كثير] **وكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه أن فضّ ما بقي على حملة القرآن** [أي فرّق بقيّة المال على من يحفظ القرآن] **فأتاه عمرو بن معدي يكرب فقال له سعد: ما معك من كتاب الله تعالى؟ فقال: إني أسلمت باليمن، ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن. قال:مالك في هذا المال نصيب** [أي أنّ الرجل لا يحفظ كلمة واحدة من القرآن] **قال: وأتاه بشر بن ربيعة الخثعمي، فقال: ما معك من كتاب الله ؟ قال: بسم الله الرحمن الرحيم**. [أي لا يحفظ إلاّ هذه الجملة] **فضحك القوم منه ولم يعطه شيئاً، فكتب سعد إلى عمر رضي الله تعالى عنه بما قال لهما وما ردا عليه، وبالقصيدتين، فكتب أن أعطهما على بلائهما**.[أي لأنّهما حاربا جيّدا] **فأعطى كل واحد منهما ألفي درهم** [380] وطبعا هم يحاربون من أجل الغنيمة أوّلا ومن أجل رفع راية قريش والإسلام ثانيا ولنستمع لبيتين من هاتين القصيدتين لعمرو بن معد يكرب:

إذا قـُتـلـنـا و لا يبكي لنـــا أحدٌ ... قالت قريش ألا تلك المقادير
نـُعطى السوية من طعن له نفذ... ولا سوية إذ تُـعطَى الدنــــانيرُ

[380] أبو الفرج الأصفهاني/الأغاني/ج4/ص205

عملة عليّ بن أبي طالب

درجت العادة والاعتقاد على أنّ أوّل ذكر لمحمّد في العملة كان في عصر عبد الملك بن مروان أو في عصر قريب منه حيث أنّ أقدم عملة جاء فيها ذكر محمّد تعود إلى سنة ستّ وستّين هجري، ضربها العامل عبد الملك بن عبد الله [381] و هو ما يوافق سنة 688 ميلادي. ورغم أنّ البلاذري يذكر في فتوح البلدان أنّ هناك من الخلفاء الراشدين من نقش ‘‘محمّد رسول الله‘‘ على العملة الكسرويّة أو البيزنطيّة، أو المقريزي يذكر في شذر العقود [وهو كتاب قيّم في ذكر العملة] فيقول: **فلمّا كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة (...)ضرب حينئذ عمر رضي الله عنه الدراهم على نقش الكسرويّة و شكلها بأعيانها** [أي حافظ على الرسوم والأشكال الموجودة في درهم كسرى] **غير أنّه زاد في بعضها ‘‘الحمد لله‘‘ وفي بعضها ‘‘محمّد رسول الله‘‘ وفي بعضها لا إله إلاّ الله وحده (...) فلمّا بويع أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه ضرب في خلافته دراهم نقشها الله أكبر** [382] ولكن لم تصلنا هذه العملة التي أشار إليها المقريزي، كما أنّه ذكر - هو والبلاذري- أنّ أوّل من ضرب الدينار العربيّ[أي دينارا عربيّا صرفا، حيث كانوا قبله يستعملون العملات الكسرويّة والبيزنطيّة ويضيفون عليها بعض الكلمات العربيّة] قلنا أوّل من ضرب الدينار العربيّ هو عبد الملك بن مروان سنة 74 أو 76 للهجرة. وقد وصلنا هذا الدينار وتوجد منه نسخ كثيرة مذكورة في كتب العملة، والنصّ الذي جاء فيه هو:

(لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له

محمّد رسول الله أرسله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدين كلّه

الله أحد الله الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوًا أحد)

وعليه فقد ذهب أغلب الباحثين إلى أنّ عبد الملك بن مروان هو أوّل من عرّب العملة تماما.

و لكنّي لا أتّفق معهم فيما ذهبوا إليه، فالصحيح هو أنّ عبد الملك بن مروان أوّل من ضرب الدينار العربيّ وهذا القول تؤيّده العملة والنصوص.

أمّا الخطأ فليس هو أوّل من عرّب العملة، حيث أنّه بين أيدينا صورة لدرهم عربيّ أيضا.[383]

العملة:

التاريخ:40 هجري

المكان:البصرة

الوزن:3.35 غرام

---

[381] D.Nevo/Crossroads to Islam/Prometheus Books/2003/USA/p251
The earliest dates on coins mentioning the prophet Muhammad are 66 (a coin of the governor Abd al Malik bin Abd Allah)

[382] المقريزي/شذور العقود بذكر النقود/صفحة 2 و ما بعدها

[383] Catalogue des Monnaies Musulmanes de la BN/Khalifes orientaux/Henri Lavoix/p58
ويقول في المقدّمة عن أصالة هذه العملة:
J’ai soumis à mon tour la pièce à des juges excellents :à Roger ;à M.de Longperier ; à M.Sauvaire ; à M.Waddington ; elle n’a pas rencontré de contradicteur.je la tiens donc comme parfaitement bonne. Préface, p XXXI

النصّ:

بسم الله ضرب هذا الدرهم بالبصرة سنة أربعين

لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له

محمّد رسول الله أرسله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدين كلّه [و] لو [كره] المشركون

الله أحد الله الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفؤا أحد

وعليه فإنّ أوّل من ضرب الدرهم العربيّ هو عليّ بن أبي طالب سنة أربعين من الهجرة. وأوّل من ضرب الدينار العربيّ هو عبد الملك بن مروان.

هذا الدرهم جعل بعض الباحثين لا يفهمون لماذا تراجع لمدّة ستّ وثلاثين سنة، حيث نرى الخلفاء بعد هذا التاريخ ظلّوا يعتمدون على الدينار البيزنطيّ والدرهم الكسرويّ، ثمّ عاد ليطفو هذا النقش من جديد في دينار عبد الملك. كما أنّه لا يوجد ذكر لاسم محمّد في أيّ نقش أركيولوجيّ قبل خلافة عبد الملك بن مروان أمّا في العملة و حسب النسخ التي وصلتنا فإنّ اسم محمّد يختفي بعد وفاته ليظهر في عملة عليّ بن أبي طالب بعد ثلاثين سنة ثمّ يختفي مرّة أخرى ليعود إلى الظهور بعد ثلاثين سنة في عملة عبد الملك ثمّ يظلّ موجودا، وهذا أمر يستحقّ الدراسة و البحث وإن كان المستشرقون لم يتأخّروا في تحليل هذا الأمر والوصول إلى نتيجة أنّ عبد الملك بن مروان هو الذي أعلن الإسلام كديانة رسميّة وأنّ محمّدا ليس بالصورة التي قدّمها لنا الإخباريون ونحن نتّفق معهم في العديد من النقاط مع الإشارة أيضا إلى أنّ الأوضاع الاقتصادية لم تكن تسمح بضرب عملة عربيّة صرفة بسبب الحروب الأهليّة المتواصلة ولم تبدأ في الاستقرار نسبيّا إلاّ مع عبدالملك بعد تغلّبه على ابن الزبير.

وكما نلاحظ فإنّ نقش عبد الملك هو نفسه نقش عليّ بن أبي طالب ممّا يجعلنا نرجّح أنّ عبد الملك استعمل هذا المثال ليضرب ديناره، كما أنّ الأخبار تذكر لنا واقعة تؤيّد ما نذهب إليه وسألخّص القصّة لأنّها طويلة [384] وهي أنّ عبد الملك حين أراد تعريب العملة اتّصل بمحمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب [الذي يروي الرواية الكسائي عن هارون الرشيد وقد يكون عبد الملك اتّصل بعليّ زين العابدين وليس بمحمّد الباقر] وهو الذي أشار عليه بكتابة هذه النصوص، ومحمّد بن عليّ هو حفيد عليّ بن أبي طالب، والراجح أنّه اقترح عليه كتابة هذا النصّ كما كتبه جدّه سنة أربعين هجري على العملة، وبالتالي نفهم سبب تشابه النصّين في العملتين.

---

[384] البيهقي/المحاسن و المساوئ/ج1/ص200

مكّة هل كانت موجودة؟

اليوم، يكاد يكون متّفقا عليه أنّ مكّة لم تُذكر في أيّ مصدر تاريخيّ خارج السيرة العربيّة، ممّا حدا بالبعض إلى نفي وجودها أصلا قبل الإسلام وأنّها صناعة إسلاميّة متأخّرة، وخاصّة الكعبة.
و هناك عامل مهمّ لهذا الرأي:
1- كيف تكون مكّة ملتقى القوافل التجاريّة وفيها بيت إبراهيم الذي تحجّ إليه العرب من كلّ مكان، ورغم ذلك لا نجد لها ولو ذكرا يتيما عابرا في أيّ مصدر خارج السيرة العربيّة؟ لا عند الرحالة اليونان ولا السريان ولا الرومان ولا غيرهم؟ بينما نجدهم يذكرون كعبات أخرى في الجزيرة العربيّة.
وفي الحقيقة لستُ أحمل هذا الرأي ''المتطرّف'' وسأتناول الأمر من زاوية أخرى.
أوّلا ماذا عن الكعبة في السيرة العربيّة؟
تاريخ بنائها: [385]
1-المرّة الأولى بنتها الملائكة.
2-المرّة الثانية بناها آدم.
3-المرّة الثالثة بناها أولاد آدم
4-المرّة الرابعة بناها ابراهيم و ابنه اسماعيل
5-المرّة الخامسة بناها العماليق الذين استوطنوا مكّة.
و تحديدا من هنا سندخل في التاريخ المعقول:
6-المرّة السادسة بنتها جرهم بسبب تهدّم أحد الجدران إثر السيول
7-المرّة السابعة بناها قصيّ جدّ النبيّ
8-المرّة الثامنة بنتها قريش وشاركهم النبيّ في بنائها
9-المرّة التاسعة بناها الزبير بن العوّام حيث قام بهدمها تماما ثمّ أعاد بناءها مضيفا فيها قليلا في الطول والارتفاع.
وكان يوجد في جزيرة العرب أكثر من كعبة كما أشرنا في هذا البحث، أي أنّ الكعبة -إن وجدت- في الجاهليّة فهي لا تختلف عن غيرها من الكعبات. ويشير الإخباريّون إلى أنّها كانت بلا سقف وعلوّها- قبل إعادة بنائها- كان تسعة أذرع [386] والذراع يساوي ثمانية وأربعين سنتيمترا تقريبا أي ما يساوي حوالي أربعة أمتار. وإذ توجد العديد من الكعبات في الجزيرة العربيّة - وفق المصادر اليونانيّة واللاتينيّة- فما الذي يمنع أيضا وجودها في مكّة؟ وهنا نتساءل هل كانت مكّة مأهولة قبل الإسلام؟
كان قد أشار الجغرافيّ الشهير ''بطليموس'' في القرن الثاني للميلاد إلى مدينة اسمها ''مكورابا'' في تلك المنطقة وجرت العادة على اعتبار مكورابا التي ذكرها بطليموس هي نفسها مكّة. لكنّ هذه الفكرة بدأت في التراجع حاليّا خاصّة مع طرح ''باتريسية كرون'' ونفيها أن تكون مكورابا هي نفسها مكّة حيث تقول: **وذكرها بطليموس تحت اسم مكورابا وهو الاسم**

---

[385] السيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصليّة/مهدي رزق الله أحمد/مركز الملك فيصل للبحوث/1992/ص51-55
[386] الأزرقي/أخبار مكّة/ج1/ص197

الذي ينطبق على مدينة جدّة (...) فالحقيقة الواضحة أنّ اسم مكورابا ليس له أيّ ارتباط بمكّة. [387] وهذا الكلام متعسّف قليلا وهو تحت وطأة مبالغات الإخباريّين العرب وتضخيمهم لمكّة، إذ جعلوها ملتقى القوافل التجاريّة وتحجّ إليها العرب من كلّ مكان وبالتالي كنّا ننتظر أن يقع ذكرها في المصادر الخارجيّة، ولكن هناك فجوة زمنيّة لا يجب أن نقفز فوقها. وهي أنّ قريش بدأت في التجارة بعد قصيّ أي حوالي مائتي سنة بعد بطليموس، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم تكن مكّة بالصورة التي قدّمها لنا الإخباريّون بل مجرّد قرية صغيرة فيها معبد صغير - كما هو موجود في كلّ الجزيرة العربيّة- وبدأت تتوسّع قبل الإسلام بقليل ويشارك أهلها في التجارة، ومن ناحية ثالثة لم تكن تجارة عالميّة بالصورة التي قدّمها الإخباريّون أيضا. فبدل أن ننفي وجود مكّة لأنّها كان ينبغي أن تُذكر في مصدر خارجيّ بسبب شهرتها الكبيرة، فإنّه علينا أن ننفي بالأحرى مبالغات الإخباريين ونعتبر مكّة قبل الإسلام مجرّد مدينة صغيرة غير معروفة.

وأختلف مع "كرون" في جعلها مكورابا تعني جدّة، فلا علاقة بينهما، حيث أنّ بطليموس يذكرها في خطّ الطول الغربيّ ليثرب، وسأذكر الإحداثيّات التي وضعها مع خريطة موضّحة.



خريطة بطليموس للجزيرة العربيّة في القرن الثاني ميلادي

خارطة بطليموس هي كالتالي:

من 31 إلى 20 = من الشمال إلى الجنوب، خطوط العرض

من 67 إلى 100= من الغرب إلى الشرق، خطوط الطول

---

[387] تجارة مكّة و ظهور الإسلام/باتريشيا كرون/ص 235-236/ترجمة آمال الروبي/المجلس الأعلى للثقافة/ 2005 والكتاب الأصلي صدر سنة 1987 بعنوان Meccan Trade and the Rise of Islam

الإحداثيّات و الأماكن التي يذكرها:[388]
و سأبدأ من مدينة يثرب:

LATHRIPPA 71/23
CARNA.......73/15
BIAVANNA......76/23
GEORATHA.....77/23
CATARA.......79/23
BACBA.........71/22
MACORABA......73/22
THOMATA......73/21
AGDAMUM.......73/20

وغنيّ عن الإشارة أنّ جدّة لا علاقة لها إطلاقا بمكورابا حتّى وإن افترضنا نسبة الخطأ، ثمّ لو افترضنا أنّ بطليموس قد أخطأ فيحقّ لنا أيضا أن نقول أنّه يقصد مكّة وأخطأ في خطوط العرض. ولكن الدلائل تشير إلى أنّ "مكورابا " في منطقة قريبة من مكّة، وأقصد بقولي "قريبة" فارقا بثلاثمائة كيلومتر ناحية الشمال من مكّة الحاليّة ولا أعتقد أنّ بطليموس سيخطئ في مثل هذه المسافة، كما أنّه يضع مكورابا في جنوب شرق يثرب، بينما مكّة موجودة في جنوب غرب مكّة. ولو درسنا الأسماء الأخرى الواردة في المنطقة نجد مثلا أنّ بطليموس يذكر جبل: Cassanitae و يعطيه هذه الإحداثيّات: 73/20
أي أنّه في خطّ طول مكورابا نفسه و لكنّه في الجنوب منها بمرحلتين. أي بحوالي ثلاثمائة وخمسين كيلومترا جنوبا ونستطيع معرفة هذا الجبل الذي ذكره استنادا على وصف الجغرافيّين الآخرين له، فنقرأ في معجم الجغرافيّين اليونان والرومان:[389]

Cassanitae, an Arab tribe, mentioned by Diodorus Siculus, identical with the Cassanitae of Ptolemy, and the Cassandreis of Agatharchides. Diodorus places them, with the Alibaei, next to the Debae, on the south, in agreement with Ptolemy, who finds them south of the Cinaedocolpitae, his name for the Debae, and gives Badeo as the name of their capital . Diodorus and Agatharchides agree in remarking on the difference of the climate of this part of Arabia from that of the other parts. This country, says Diodorus, is not scorched as are the neighbouring regions, but is often covered with soft and thick clouds, from which distil snows and refreshing showers, which render even the

[388] Ptolemee/ Geographia/ tr: Edward Luther Stevenson/ Liv 6/ Arabia Felix/1991
[389] Smith's Dictionary of Greek and Roman Geography/site internet:artflx.uchicago.edu

summer temperate (....)An identity both of climate and name enables us to fix the Gasandes immediately to the south and south-east of Mecca, in Mount Gazuan, the country of Zohran

إذن فهذا الجبل هو جبل غزوان، ويصف الرحّالة اليونان برودته ويقول الإدريسي عنه: **والطائف منازل ثقيف وهي مدينة صغيرة متحضرة مياهها عذبة وهواؤها معتدل وفواكهها كثيرة وضياعها متصلة وبها العنب كثير جداً وزبيبها معروف يتجهز به إلى جميع الجهات وأكثر فواكه مكة تصدر عنها(...) والطائف على ظهر جبل غزوان وعلى ظهر جبل غزوان ديار بني سعد المضروب بهم المثل في كثرة العدد وبه جملة من قبائل هذيل وليس في بلاد الحجاز بأسرها جبل أبرد من رأس هذا الجبل وربما جمد به الماء في الصيف لشدة برده.** [390]
هذه نقطة أولى قد تميل لصالح أنّ مكورابا هي مكّة وليست جدّة لكن تظلّ المسافة بعيدة جدّا.
والنقطة الثانية الأهمّ هو ذكره لـ ZAARAM REGIA في خطّ العرض نفسه لمكورابا.
فما هي منطقة ZAARAM؟
منطقة ZAARAM هي منطقة جرهم: [391]

Thus we very plainly recover the Jorham and Jorhamites of the Mahometan writers, and of far more ancient national tradition, in the Charmaei of Pliny, on the one hand, and in the Zaaram reg. of Ptolemy, on the other, or Djar, on the Hedjaz coast : while the testimony universally and immemorially borne, by the Arabs themselves, to the identity of their Jorham with Jerah the son of Joktan, is, at this locality, ,signally illustrated, and historically confirmed

وهذا يتّفق مع ما يشير إليه الإخباريّون من استيطان جرهم لتلك المنطقة واللافت في الأمر أنّ التاريخ الذي يورده الإخباريّون عن مدّة بقاء خزاعة يكاد يكون دقيقا حيث لو بقيت خزاعة ثلاثمائة سنة ثمّ جاء قصيّ من قريش وأخذ مكّة، فإنّه في زمن بطليموس ستكون مكّة تحت جرهم وهو ما ذكره عن سكّان تلك المنطقة. وبغضّ النظر عن ذكر بطليموس لجرهم فلا أرى داعيا أن يقوم كتبة السيرة باختلاق هذا الأمر حيث أنّ لهم أسبابهم الدينيّة في صنع الروايات التي تتحدّث عن الكعبة و جعلها من بناء الملائكة وغير ذلك لكن لا أرى لهم سببا في اختلاق قبيلة جرهم.
و النقطة الثالثة هي ذكر بطليموس لـ MALICHAE ويضعها تحت مكورابا مباشرة، وأقرأ MALICHAE مالك أي بني مالك وهم يستوطنون فعلا تلك المنطقة على بعد مائة وخمسين كيلومترا تقريبا جنوب الطائف، وبعضهم موجود قرب جبال السراة وبعضهم في تهامة، وقد يقول قائل ليس بالضرورة أن يكون بنو مالك في عصر بطليموس يسكنون المنطقة نفسها في

---

[390] الإدريسي/ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق/ج1/ص44
[391] The Historical Geography of Arabia/Forester/Vol1/London/1840/p124

الجاهليّة قبل الإسلام فربّما تراجعوا إلى الجنوب أي إلى أماكنهم الحاليّة، وهذا اعتراض ممكن طبعا، ولكنّنا نتجاوزه حين نرى أنّ بطليموس ذكر أيضا thumala في جنوب مكورابا، وهي جبال ثمالة وحافظت على هذا الاسم إلى الآن وهي قرب مدينة بيشة، ولا أحسب أنّ الجبال هاجرت أيضا إلى الجنوب.
ولفظة ‘‘مكورابا‘‘ هي لفظة يمنيّة [وجرهم من اليمن] وتعني ‘‘مكرب‘‘ أي ‘‘المقرب‘‘ وهو المكان الذي نتقرّب به [إلى الأصنام أو إلى الله] و‘‘كرون‘‘ترى أنّ لا علاقة بين ‘‘مكرب‘‘ ومكان العبادة وذهبت تبحث في جذر الكلمة. ولا أتّفق معها لأنّ الباء في هذه الحالات تحلّ مكان الميم، كقولنا ‘‘محراب‘‘ والمقصود ‘‘محرام‘‘ ولا نُرجع ‘‘محراب‘‘ إلى جذر ‘‘حرب‘‘ بل إلى ‘‘حرم‘‘ وهذا بسبب اختلاف اللهجات بين القبائل الجنوبيّة والشماليّة، أو كقولنا ‘‘جبل حوريب‘‘ والأصل هو ‘‘جبل حوريم‘‘ أي هو جبل حرام وليس جبل حرب، بل نستطيع -قياسا بين اللهجتين كفذلكة لغويّة- إرجاع مكورابا إلى مكوراما، ومكوراما بمعنى المكرّمة أي مكّة المكرّمة، ولكن لا نملك دليلا على أنّ مكّة قديما كانت تسمّى بهذا الصفة. وتغيّر اللهجة من قحطانيّة [أي يمنيّة] إلى عدنانيّة [أي شماليّة] في مكّة فيما بعد هو أمر مفهوم ومعقول خاصّة أنّ السيرة تشير إلى استيلاء قصيّ على مكّة وجمعه قريشا، وقصيّ كان في الشمال أي في الشام [كما تذكر السيرة] وهو الذي جمع قريشا وهو رجل دين كما يبدو في السيرة [أرجّح أنّ تسمية قريش بدأت معه وليس قبله، فقريش تعني التجمّع] وتوجد نقوش في شمال الجزيرة العربيّة في الشام مكتوبة [بالقلم الصفويّ [392]] يُذكر فيها اسم ‘‘قصيو بن كلبو‘‘ أيّ قصيّ بن كلاب، ويُذكر أنّه رجل دين [393] ولا يعني بالضرورة أنّ قصيّ بن كلاب هو نفسه المذكور في هذا النقش حيث يمكن أن يكون هناك فارق زمنيّ بينهما لكن نستشفّ منه وجود عائلة دينيّة عربيّة تتوارث الدين - مثل عائلة هارون مثلا في الديانة اليهوديّة- وتتوارث كذلك الأسماء مثل جميع القبائل العربيّة حيث نجد أسماء بعينها تتكرّر في القبيلة الواحدة على مرّ الأجيال.
ورغم كلّ ما تقدّم فلا نستطيع الجزم بأنّ ‘‘مكورابا‘‘ التي ذكرها بطليموس هي نفسها مكّة، فقد يكون أيضا معبدا بناه جرهم هناك أي فوق مكّة الحاليّة ناحية الشمال، ثمّ ولأسباب لا نعرفها تمّ بناء معبد آخر أي الكعبة الحاليّة، وربّما خزاعة حين طردوا جرهم قاموا ببناء الكعبة الحاليّة واندثر المعبد الآخر، وهذه كلّها مجرّد فرضيّات، والثابت- وكما أوضحنا- فإنّ المعطيات التي تجعل مكورابا هي مكّة تساوي المعطيات التي تنفيها، ولا نستطيع الحكم بالنفي أو الإيجاب. ولا نملك - خارج السيرة - دليلا حقيقيّا على وجود مكّة قبل الإسلام ناهيك عن الكعبة.

---

[392] أقتبس كلام إسرائيل ولفنسون، بالنسبة إلى القلم الصفويّ أي المكتوب بالأبجديّة الصفويّة: **ليس يوجد بين العرب قبائل تسمّى القبائل الصفويّة كما يوهم بذلك تقسيم المستشرقين للخطوط العربيّة و لكنّهم اصطلحوا على إطلاق هذا الاسم على الخطوط التي وجدت في ناحية الصفاة من بلدان الشام و هي تشتمل على كتابات قريبة من كتابات لحيان وثمود (...) وقد اتّضح للأستاذ ليتمان أنّ الخطوط الصفويّة مركّبة من 28 حرفا كما هي بالأبجديّة العربيّة لذلك قال الأستاذ ليتمان إنّ أصحاب كتابات منطقة الصفاة كانوا من العرب ليس بينهم و بين قبائل العرب في الجزيرة فروق كبيرة و قد وجد في كتاباتهم ألفاظ تدلّ على حياتهم الصحراويّة ففيها ذكر للغنائم [غنم أو مطي] و الغزو [قتل أو خرص]**، إسرائيل ولفنسون/اللغات السامية/ صفحة 175-183

[393] جواد عليّ/ المفصّل في تاريخ العرب/ج1/ص309

عودة على بدء

الفتح

اعتدى بعض أحلاف قريش على أحلاف محمّد، بسبب ثأر قديم بينهما، فجاءوا إلى النبيّ وطلبوا نصرته عليهم، فرأى النبيّ أنّ قريشا نقضت العهد [أي صلح الحديبيّة] وبالتالي قرّر أن يذهب لغزوهم وفتح مكّة، قائلا: **لا نصرتُ إن لم أنصر بني كعب** [394] ثمّ أرسل النبيّ إلى القبائل المنتشرة خارج المدينة قائلا: **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسولا في كل ناحية حتى قدموا على رسول الله، أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع. وبعث إلى بني سليم فأما بنو سليم فلقيته بقديد وأما سائر العرب فخرجوا من المدينة.** [395]

يرى سليمان بشير أنّ قصّة فتح مكّة تكرّرت مرّة ثانية مع ‘‘النفس الزكيّة‘‘ في عهد العبّاسيّين حيث أنّ اسمه أيضا:‘‘محمّد بن عبد الله‘‘ وخرجت معه جهينة ومزينة وأهل المدينة، كما أنّ ‘‘النفس الزكيّة‘‘ شقّ خندقا في المدينة حين بعث المنصور لفتحها [396] وربّما هناك خلط في الروايات بين شخصيّة محمّد النبيّ ومحمّد ‘‘النفس الزكيّة‘‘ وأيضا محمّد بن الحنفيّة. لكنّ هذه الأحداث مع النفس الزكيّة متأخّرة قليلا، وتدوين السيرة كان قد بدأ ولا أرى دليلا متينا يجعل ابن اسحاق مثلا يتحدّث عن أحداث عصره ‘‘المعروفة للجميع‘‘ وينسبها إلى النبيّ، وإن كنّا طبعا نضع هذا الاحتمال الذي أشار إليه سليمان بشير، أمّا عن حفر الخندق في المدينة من طرف النفس الزكيّة فإنّي أرجّح أنّه لو كان هناك خلط في الروايات فليس في هذه الحادثة بل في معركة ‘‘الحرّة‘‘، لقدمها أوّلا ولتشابه الشخصيّات ثانيا حيث قامت الأنصار بحفر خندق حول المدينة وكان قائد الموالي ‘‘يزيد الفارسي‘‘ وفي زمن النبيّ فإنّ الذي اقترح الخندق هو ‘‘سلمان الفارسيّ‘‘ إذ **أنّ يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين للهجرة بلغه أنّ أهل المدينة خرجوا عليه وخلعوه فأرسل إليهم جيشاً كثيفاً وأمرهم بقتالهم ثم المسير إلى مكة لقتال ابن الزبير فجاءوا وكانت وقعة الحرة على باب طيبة وما أدراك ما وقعة الحرة** [397] وكان على الأنصار قائد وعلى المهاجرين قائد **وعلى الموالي يزيد بن هرمز** [398] ويقول ابن سعد في الطبقات: **يزيد بن هرمز الفارسي، مولى الدوسيين وكان أمير الموالي يوم الحرة** [399]

و قد ربط Premare نقلا عن Levi Della Vida في EI صفحة 120ب، الذي بدوره استشهد بأبحاث J.Horovitz قائلا: **لنا أن نتساءل إن كانت غزوة الخندق الحقيقيّة كانت سنة 683 ميلادي في معركة الحرّة أو أنّهم أسقطوا شخصيّة يزيد بن هرمز الفارسي على شخصيّة أسطوريّة في عهد النبيّ [سلمان الفارسي] وأقدم رواية تتحدّث عن غزوة الخندق في عهد النبيّ لا تذكر سلمان** [400] لا يشير Premare إلى هذه الرواية القديمة التي لا تذكر سلمان ولا

[394] مغازي الواقدي/ج2/ص791
[395] المصدر السابق/ص799
[396] سليمان بشير/مقدّمة في التاريخ الآخر/القدس/1984/ص166
[397] الطبري/تاريخ الخلفاء/ج1/ص85/ المكتبة الشاملة
[398] البلاذري/أنساب الأشراف/ج5/ص482
[399] ابن سعد/الطبقات الكبرى/ج7/ص220

[400] Premare/ les fondations de l'islam/p331--24

إلى من رواها، ولكن تظلّ هذه المقاربة لها قيمتها، كمقاربة سلمان بشير أيضا وقائع النبيّ بمحمّد بن الحنفيّة.

نعود إلى الموضوع:
وقد قام النبيّ بإرسال بعثة صغيرة في ثمانية أشخاص إلى ‘‘بطن أضم‘‘ [مكان بين مكّة واليمامة، راجع ياقوت الحموي/معجم البلدان] وذلك للتمويه حتّى لا تعرف قريش أنّه متّجه نحوها، وتجدر الإشارة إلى ما حدث في هذه البعثة الصغيرة حيث اعترضهم شخص اسمه ‘‘عامر بن الأضبط الأشجعي‘‘ **فألقى عليهم تحيّة الإسلام** [أي أنّه مسلم] **ولكن حمل عليه محكِم بن جثامة فقتله وسلبه بعيرا له ومتاعا ووطبا من لبن كان معه** [أي قتله و قام بسلبه رغم أنّه مسلم] **وعند وصولهم إلى المحل رجعوا** [رجعوا إلى المدينة] **فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فمالوا إليه حتى لقوه، فقال رسول الله لمحكم: أقتلته بعد ما قال آمنت بالله؟ قال: يا رسول الله إنما قالها متعوّذا، قال: أفلا شققت عن قلبه؟ قال: لِمَ يا رسول الله؟ قال: لتعلم أصادق هو أم كاذب (...)فقال: استغفر لي يا رسول الله، فقال: لا غفر الله لك.** [401] ونزل القرآن في هذه الحادثة: **يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا.**[سورة النساء،94]
ولا نستبعد أنّ النبيّ استطاع جمع عدد كبير من المقاتلين للذهاب إلى فتح مكّة [وإن كان رقم عشرة آلاف يبدو مبالغا فيه] قلنا لا نستغرب حيث أنّ العديد منهم خرجوا للحصول على الغنائم خاصّة بعد ما رأوه من سقوط خيبر وعدم مشاركتهم فيها ولم يكن لهم نصيب في الغنائم وبالتالي ما أن أرسل النبيّ إلى القبائل المجاورة طالبا مساندته في الغزو حتّى أجابوه مباشرة ولنا أن نستمع إلى ما يقوله أحدهم وهم داخلون إلى مكّة، قال ابن إسحاق: **فزعم بعض أهل العلم أنّ سعداً حين وجه داخلاً، قال: اليوم يوم الملحمه، اليوم تستحل الحرَمه، فسمعها رجل من المهاجرين - قال ابن هشام : هو عمر بن الخطاب - فقال: يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله لعلي بن أبي طالب: أدركه، فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها.** [402] فسعد بن عبادة هذا كان فرحا بغزو مكّة حيث سيستولي على الأموال والسبايا لكنّ النبيّ لا يريد - ولم يُرِد في كامل السيرة- أن يغزو قريشا قومه واستحلال دمائهم في مكّة، فأخذ الراية من سعد وأعطاها لعليّ القرشيّ مثله.

---

[401] مغازي الواقدي/ج2/ص797، و يرويها ابن حزم في ‘‘المحلّي‘‘ /ج11/ ص94 : **وغشي محلم بن جثامة الليثي عامر بن الأضبط الأشجعي , فلما لحقه , قال عامر : أشهد أن لا إله إلا الله , فلم ينته عنه لكلمته حتى قتله , فذكر لرسول الله فأرسل إلى محلم فقال : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله فقال : يا رسول الله إن كان قالها فإنما تعوذ بها وهو كافر , فقال رسول الله فهلا ثقبت عن قلبه وأقبل عيينة بن بدر في قومه حمية وغضبا لقيس فقال : يا رسول الله قتل صاحبنا وهو مؤمن , فأقدنا، فقال رسول الله: تحلفون بالله خمسين يمينا على خمسين رجلا منكم أن كان صاحبكم قتل وهو مؤمن قد سمع إيمانه ففعلوا** [النبيّ يريد أن يتخلّص من دفع الديّة فطلب أن يقسموا أنّه مات مؤمنا] **فلما حلفوا قال رسول الله اعفوا عنه واقبلوا الدية ، فقال عيينة بن حصن: إنا نستحي أن تسمع العرب أنا أكلنا ثمن صاحبنا** [أي أنّهم لا يريدون الديّة و إنّما يريدون قتل من قتل رجلهم] **وواثبه الأقرع بن حابس التميمي في قومه غضبا وحمية لخندف فقال لعيينة بن حصن : بماذا استطلتم دم هذا الرجل فقال : أقسم منا خمسون رجلا : أن صاحبنا قتل وهو مؤمن , فقال الأقرع : فسألكم رسول الله أن تعفوا عن قتله وتقبلوا الدية فأبيتم, فأقسم بالله لتقبلن من رسول الله الذي دعاكم إليه , أو لآتينّ بمائة من بني تميم فيقسمون بالله لقد قتل صاحبكم وهو كافر** [يعني إن كنتم أقسمتم أنّه مات مؤمنا فسآتي بضعفكم يقسمون أنّه كافر, وهكذا فهم يقسمون بالله مثلما شاءوا و حسب ما تقتضيه الظروف] **فقالوا عند ذلك : على رسلك , بل نقبل ما دعانا إليه رسول الله فرجعوا إلى رسول الله وقالوا : يا رسول الله نقبل الذي دعوتنا إليه من الدية , فدية أبيك عبد الله بن عبد المطلب** [أي مائة ناقة] **فوداه رسول الله من الإبل.**

[402] سيرة ابن هشام/ص730

وستكون بعض الصدامات بعد وفاة النبيّ بين سعد وأبي بكر حيث أنّه رفض بيعة أبي بكر [وكان سعد شريفا في الأنصار] ورفض بيعة عمر أيضا حيث أنّ الصدّيق بعث إلى سعد بن عبادة قائلا: **أقبِلْ فبايعْ فقد بايع الناس، فقال: لا والله، لا أبايعكم حتى أقاتلكم بمن معي (...) فتركه أبو بكر فلمّا ولي عمر لقيه فقال: إيه يا سعد، فقال: إيه يا عمر، فقال عمر: أنت صاحب ما أنت صاحبه. قال: نعم، وقد أفضى إليك هذا الأمر وكان صاحبك والله أحبّ إلينا منك وقد أصبحت كارها لجوارك** [أيّ أنّ سعدا كاره أن يكون في البلدة نفسها مع عمر] **قال: من كره ذلك تحوّل عنه، فلم يلبث إلا قليلا حتى انتقل إلى الشام فمات بحوران.** [403] ويبدو أنّ سعدا هذا قد تمّ اغتياله بسبب معارضته حكم قريش، وزعموا أنّ الجنّ قتله.
لقد جعلت سطرا تحت قوله: ‘‘هذا الأمر‘‘ لأنّه الأمر نفسه الذي أشرت إليه من قبل، وهو مُلك العرب والحصول على السلطان والذي بدأه محمّد كما رأينا في ردّ بني عامر[404] حيث قالوا للنبيّ : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، فقال له: أفتُهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.
وفعلا، هذا ما حدث مع الأنصار حيث كان الأمر لقريش بعد أن ساندت الأنصار محمّدا في البداية، وبالتالي فردّة فعل سعد بن عبادة برفضه بيعة أبي بكر وعمر هي ردّة فعل مفهومة وهذا الاختلاف لن يخمد إلاّ بعد وقت طويل إذ سيبدأ في حياة النبيّ نفسه، كما سنرى في فتح مكّة وسيتواصل عشرات السنين بعده، فهي معركة بين الأنصار الذين يعتبرون أنّهم أحقّ بالخلافة وأنّهم هم الذين ساندوا النبيّ، و بين قريش الذين - ربّما- كانوا متّفقين على المُلك منذ البداية مع محمّد ويرفضون رفضا قاطعا أن يخرج الأمر من أيديهم، ويشير طه حسين قائلا: **يزيد كان صورة صادقة لجدّه أبي سفيان، يؤثر العصبيّة على كلّ شيء، وأنت لا تنكر أنّ يزيد صاحب وقعة الحرّة التي انتهكت فيها حرمات الأنصار في المدينة، والتي انتقمت فيها قريش من الذين انتصروا عليها في بدر، والتي لم تقم بعدها للأنصار قائمة (...) ولست في حاجة أن أقصّ عليك القصّة الأخرى التي تمثّل لنا عمرو بن العاص وقد ضاق ذرعا بالأنصار حتّى كره اسمهم هذا وطلب إلى معاوية أن يمحوه (...) ومع أنّنا نعلم أنّ الأنصار حين أخطأهم الحكم فاضطغنوا على قريش، مالوا بطبيعة موقفهم السياسيّ إلى تأييد الحزب المناوئ لبني أميّة فانضمّوا إلى عليّ، فلسنا نشكّ في أنّ النعمان بن بشير لم يكن هاشميّ المذهب ولا علويّ الرأي، إنّما كان أمويّا أو بعبارة أصحّ، سفيانيّا. فلمّا انتقل الحكم من آل أبي سفيان إلى مروان بن الحكم، تحوّل عن الأمويّين إلى ابن الزبير وقُتل في ذلك.** [405]
ولنا أن نلاحظ ما كتبه كاتب فارسيّ اسمه حمزة الأصفهانيّ حيث وضع فصلا سمّاه: **في سياقة تواريخ قريش ملوك عرب الإسلام** [406] حيث يعتبر محمّدا أوّل ملوك قريش ثمّ يعرض البقيّة بتواريخ خلافتهم. ولا يخفى علينا الحديث القائل: ‘‘الأئمّة من قريش‘‘ ورائحة السياسة الفاضحة التي تفوح منه، بل هو ليس فقط حديثا صحيحا، بل ومتواتر أيضا.

---

[403] الحافظ الذهبي/سير أعلام النبلاء/ج1/ص277
[404] راجع صفحة 27.
[405] طه حسين/في الأدب الجاهلي/ ص124
[406] حمزة الأصفهاني/في تواريخ ملوك و سنيّ الأرض و الأنبياء/الفصل الخامس/ص142/ت.972م

وكان ابن خلدون لخّص بطريقة أخرى هذه الفكرة في المقدّمة/صفحة194 قائلا: **بخلاف ما إذا كان الأمر في قريش، لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراد منهم، فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة، لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها. فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب (...) ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر، من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم. وقد ذكر ذلك ابن إسحق في كتاب السير وغيره.**

ويبدو أنّ كتاب ابن اسحاق كان موجودا في عصر ابن خلدون حيث يشير إلى أنّه نقل عنه ولكن و كما نعرف لم تصلنا سيرة ابن اسحاق و إنّما سيرة ابن هشام.
نعود مرّة أخرى إلى الموضوع:
يرى الهادي العلوي في كتابه تاريخ الإسلام السياسي قائلا : **يمكن أن نقول أنّ معاهدة الحديبيّة من أخطر الاتّفاقات التي عقدها محمّد، فقد أحدثت في بدايتها تحوّلا سريعا في مركز القوّة في الجزيرة العربيّة لصالح الإسلام، ثمّ أصبحت بعد ذلك عائقا يمنع هذا التحوّل من الوصول إلى مداه المطلوب، ولهذا السبب نجد محمّدا يتحمّس للمعاهدة رغم المعارضة التي جوبه بها من بعض رفاقه الذين اعتبروها تنازلا مشينا للمشركين، ثمّ يعود للتخلّص منها بعد أن استنفدت أغراضها، ويدلّ استغلاله للحادث المشار إليه** [حادث اعتداء أحلاف قريش على أحلافه] **يدلّ على نواياه بشكل قاطع.**(...) **ليس واضحا ما إذا كان حادث الاعتداء على خزاعة عفويّا أو كان وراءه تدبير ما.** [407]
قد يكون فعلا أنّ محمّدا استغلّ هذه الحادثة أو ''فبركها'' ليستطيع غزو مكّة [ويتخلّص من العهد الذي بينه وبين قريش] وإنّما أودّ أن أضيف نقطة وهي أنّ النبيّ كان يستطيع غزو مكّة دون افتعال الحادثة وذلك لسبب بسيط، فللمعاهدة تقول: (**هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو**) حيث رفض سهيل أن يكتب النبيّ: (**هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو.**) فمحمّد كتب المعاهدة باسمه الشخصيّ [وهذا اختيار في صفّه في الحقيقة] حيث لم يكتبها بصفته كنبيّ، وبالتالي، وفي أيّ وقت، يكفي أن ينزّل النبيّ آية من القرآن تأمره بالذهاب إلى مكّة ليفعل، فهذا الصلح هو مع محمّد كشخص وليس مع محمّد الرسول، وذمّة الله خالية من هذه المعاهدة لذلك إن نزل القرآن يأمره بغزو مكّة فمن واجبه أن يطيع الرسالة و يذهب. [408]
وعلى كلّ حال فإنّ الأحداث كانت سانحة للنبيّ فأخلى أيضا مسؤوليّته.

---
[407] الهادي العلوي/فصول من تاريخ الإسلام السياسي/ص38-39
[408] انتبه لهذا الأمر René Marchand في Mahomet ص 393

هوامش من فتح مكّة

بعض المناوشات:

ونهى رسول الله عن القتال، ولما ظهر على ثنيّة أذاخر [أي عبر من مكان اسمه أذاخر] **نظر إلى البارقة** [البارقة هي لمع السيوف من بعيد تحت ضوء الشمس] **فقال: "ما هذه البارقة. ألم أنه عن القتال؟". قيل: يا رسول الله خالد بن الوليد قوتل ولو لم يقاتل ما قاتل، فقال رسول الله : قضى الله خيرا** [409] **ومَرّ رسول الله يوماً بامرأة مقتولة يوم فتْح مكة، فقال لحنظلة: الحق خالداً وقل له: لا تقتلن ذُرْية ولا عَسِيفا.** [410]

إهدار دم أحد عشر شخصا:

وأمر بقتل ستة نفر وأربع نسوة حتّى ولو كانوا متعلّقين بأستار الكعبة:

- عكرمة بن أبي جهل [لم يُقتل حيث تشفّعت فيه زوجته فسامحه النبيّ]
- صفوان بن أميّة [هرب إلى ميناء الشعيبة القريب من مكّة فتشفّع له عمير بن وهب فسامحه النبيّ]
- وهبار بن الأسود [حلف النبيّ حين كان في المدينة أن يحرقه بالنار، ثمّ تراجع وقال لا يحرق بالنار إلاّ ربّ النار، وطلب ممّن يجده أن يقطع يديه ورجليه ثمّ يقتله، والسبب في كره النبيّ له هو أنّه ضرب زينب بنت النبيّ أثناء خروجها من مكّة وأسقط جنينها (راجع صفحة 62) ولم يستطيعوا أن يجدوه في مكّة ثمّ ذهب إلى المدينة بعد الفتح وأسلم فقبل منه النبيّ]
- ومقيس بن صبابة الليثي [فاصطبح الخمر يوم الفتح في ندامى له (أي شربوا الخمر حتّى الصباح) فأتى نميلة بن عبد الله الليثي، وعلم بمكانه فدعاه فخرج إليه وهو ثمل فضربه بالسيف حتى برده]
- والحويرث بن نقيذ [ذهب عليّ إلى منزله وأخبر الحويرث من خلف الباب أنّ المسلمين يبحثون عنه، ثمّ كمن عليّ في مكان قريب، فخرج الحويرث يريد أن يهرب من بيت إلى بيت آخر فتلقاه عليّ فضرب عنقه]
- وعبد الله بن هلال بن خطل الأدرمي [خرج حتى دخل بين أستار الكعبة، فلحقه أحد المسلمين وضرب عنقه]
- وهند بنت عتبة بن ربيعة [سامحها النبيّ]
- وسارة مولاة عمرو بن هاشم [قُتلت يومئذ]
- وقينتين لأبي خطل قرينا وقريبة ويقال: فرتنا وأرنبة [قُتلت إحداهما، أرنبة، وأمّا فرتنا فاستؤمن لها حتى آمنت وعاشت حتى كسر ضلع من أضلاعها زمن عثمان بن عفان فماتت منه]
- وعبد الله بن سعد بن أبي سرح [تدخّل له عثمان، وعفا عنه النبيّ (كارها) ولنستمع إلى الواقعة: أخذ عثمان بن عفّان بيده و أقبل به على النبي فقال: يا رسول الله إن أمّه كانت تحملني

---

[409] مغازي الواقدي/جزء 2/ صفحة 826، وتشير بعض الروايات إلى سبعين قتيلا في هذه المناوشة، انظرْ رواية الطبراني ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية/ج4/ص330

[410] ابن عبد ربّه/العقد الفريد/ج2/ص36

وتمشيه وترضعني وتقطعه وكانت تلطفني وتتركه فهبه لي. فأعرض عنه رسول الله وجعل عثمان كلما أعرض عنه النبي بوجهه استقبله فيعيد عليه هذا الكلام وأكبّ عثمان على رسول الله يقبّل رأسه وهو يقول يا رسول الله تبايعه فداك أبي وأمي، فقال رسول الله : "نعم".[وحين ذهب عثمان مع الرجل بعد أن تشفّع له عند محمّد] التفت النبيّ إلى أصحابه فقال: "ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلى هذا الكلب فيقتله ؟" أو قال: " الفاسق ". (يقصد ابن أبي السرح) فقال عباد بن بشر: ألا أومأت إليّ يا رسول الله ؟ فو الذي بعثك بالحق إني لأتبع طرفك من كل ناحية رجاء أن تشير إليّ فأضرب عنقه. فقال رسول الله : "إني لا أقتل بالإشارة [411]]

ولا ننسى وحشيّ:[رغم أنّ وحشيّا قتل حمزة في حرب ولا يقوم عليه الثأر] وهرب وحشي إلى الطائف، فلم يزل به مقيما حتى قدم في وفد الطائف على رسول الله فدخل عليه فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. فقال: "وحشي؟" قال: نعم. قال: "اجلس حدثني كيف قتلت حمزة" . فأخبره، فقال رسول الله : "غيّب عنّي وجهك". قال: فكنت إذا رأيته تواريت عنه[412]

سرقة طوق أخت أبي بكر:

ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته، فقال : أنشد بالله والإسلام طوق أختي [أي من أخذ طوق أختي؟] فوالله ما جاء به أحد، ثم قال الثانية : أنشد بالله والإسلام طوق أختي، فما جاء به أحد، فقال : يا أخيّة، احتسبي طوقك، فوالله إنّ الأمانة في الناس لقليل [413]

بلال يؤذّن و البعض يتغامز: [414]

حين جاء وقت الظهر أمر محمّد بلالا أن يصعد على ظهر الكعبة ويؤذّن، فلمّا أذّن بلال ورفع صوته كأشد ما يكون فلما بلغ " أشهد أن محمدا رسول الله "، تقول جويرية بنت أبي جهل: قد لعمري رفع لك ذكرك أما الصلاة فسنصلي، والله لا نحبّ من قتل الأحبة أبدا، ولقد كان جاء أبي الذي جاء محمدا من النبوة فردّها ولم يرد خلاف قومه. [هل ادّعى أبو جهل النبوّة؟]

وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم.

وقال الحارث بن هشام: واثكلاه، ليتني متّ قبل هذا اليوم، أسمع بلالا ينهق فوق الكعبة.

وقال الحكم بن أبي العاص: هذا والله الحدث العظيم أن يصيح عبد بني جمح على بنية أبي طلحة.

وقال سهيل بن عمرو: إن كان هذا سخط الله فسيغيّره وإن كان رضاء الله فسيقرّه.

وقال أبو سفيان: أمّا أنا فلا أقول شيئا، لو قلت شيئا لأخبرته هذه الحصباء [يبدو أنّ أبا سفيان فهم اللعبة تماما هو و سهيل بن عمرو]

النبيّ ليس له منزل في مكّة:

قيل للنبيّ: ألا تنزل منزلك من الشعب ؟ قال: "فهل ترك لنا عقيل منزلا ؟" كان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة. فقيل لرسول الله فانزل

---

[411] مغازي الواقدي/ج2/ص 856، ورواه أبو داود والبيهقي بلفظ قريب.

[412] المصدر السابق، الحافظ الذهبي/سير أعلام النبلاء/ج1/ص176

[413] سيرة ابن هشام/ص740، والروض الأنف/160/4

[414] مغازي الواقدي/ج2/ص 846، وروى بعضه البيهقي في الدلائل/78/5، وابن سعد في الطبقات/334/3 برجال ثقات.

في بعض بيوت مكة في غير منازلك فأبى رسول الله وقال: "لا أدخل البيوت". فلم يزل مضطربا بالحجون لم يدخل بيتا، وكان يأتي إلى المسجد من الحجون. [415]

خالد بن الوليد يقتل المسلمين:

بقي النبيّ في مكّة خمسة عشر يوما بعد فتحها، فأرسل في تلك الفترة خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فذهب خالد ومعه ثلاثمائة وخمسون رجلا وحين وصلوا إلى هناك حمل بنو جذيمة أسلحتهم، ولنستمع إلى الحادثة وهذا المشهد الدراميّ المؤثّر، وقدرة الإخباريّين على السيناريو والحوار والمشاهد العاطفيّة:

قال لهم خالد:أسلموا

قالوا: نحن مسلمون

قال: فما بال السلاح عليكم؟

قالوا: إنّ بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم، فأخذنا السلاح لأن ندفع عن أنفسنا من خالف دين الإسلام.

قال: فضعوا السلاح

فقال لهم رجل منهم اسمه جحدم: يا بني جذيمة إنّه خالد بن الوليد وإذ طلب منكم وضع أسلحتكم فلأنّه ينوي قتلكم.

قالوا:نذكرك الله تسومنا. [أي توقّف عن البحث عن المشاكل]

فرفض أن يلقي سيفه حتى كلّموه جميعا فألقى سيفه وقالوا: إنّا مسلمون والناس قد أسلموا، وفتح محمد مكة ، فما نخاف من خالد ؟

قال:أما والله ليأخذنكم بما تعلمون من الأحقاد القديمة. [أي سيثأر لما كان بيننا في الجاهليّة]

فوضع القوم السلاح.

ثم قال لهم خالد: استأسروا

فقال جحدم: يا قوم، ما يريد من قوم مسلمين يستأسرون؟ إنما يريد ما يريد فقد خالفتموني وعصيتم أمري، وهو والله السيف.

فاستأسر القوم فأمر بعضهم يكتّف بعضا، فلما كتّفوا دفع إلى كل رجل من المسلمين الرجل والرجلين وباتوا في وثاق فكانوا إذا جاء وقت الصلاة يكلّمون المسلمين فيصلّون ثم يعيدون ربطهم.

فلما كان في السحر نادى خالد بن الوليد: من كان معه أسير فليذافه (والمذافة الإجهاز عليه بالسيف.)

فأما بنو سليم فقتلوا كل من كان في أيديهم. وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم ولم يقتلوهم فغضب خالد على من أرسل من الأنصار، فكلمه يومئذ أبو أسيد الساعدي وقال: اتق الله يا خالد والله ما كنا لنقتل قوما مسلمين قال: وما يدريك؟ قال: إنّهم يقرّون بالإسلام وهذه المساجد بساحتهم.

---

[415] المصدر السابق، ورواه البخاري في صحيحه في قوله :**وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور.**

و كان بعض الفتيان الذي ضربوا عنقه ملقيّا على الأرض، فجاءت امرأة [يبدو أنّها حبيبته] ثم وضعت فمها على فمه فلم تزل تقبّله حتى ماتت.
ثمّ عاد خالد بن الوليد إلى النبي فعاب عبد الرحمن بن عوف على خالد ما صنع قال: يا خالد أخذت بأمر الجاهلية قتلتهم بثأر عمك الفاكه قاتلك الله، وأعانه عمر بن الخطاب على خالد.
فقال خالد: أخذتهم بقتل أبيك.
فقال عبد الرحمن: كذبت والله لقد قتلت قاتل أبي بيدي وأشهدت على قتله عثمان بن عفان. ثم التفت إلى عثمان فقال: أنشدك الله هل علمت أني قتلت قاتل أبي ؟ فقال عثمان: اللهم نعم.
ثم قال عبد الرحمن: ويحك يا خالد ولو لم أقتل قاتل أبي كنت تقتل قوما مسلمين بأبي في الجاهلية ؟
قال خالد: ومن أخبرك أنهم أسلموا ؟
فقال: أهل السرية كلهم يخبروننا أنك وجدتهم قد بنوا المساجد وأقروا بالإسلام ثم حملتهم على السيف.
فلمّا بلغ رسول الله ما صنع خالد بن الوليد رفع يديه حتى رئي بياض إبطيه ويقول" اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد" [416]
ثمّ اقترض النبيّ مالا بمكة [أحد الذين أقرضوه هو صفوان بن أميّة الذي أهدر النبيّ دمه ثمّ سامحه] ودعا عليّا فأعطاه مالا، فقال: انطلق إلى بني جذيمة واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، ادفع لهم ديّة ما أصاب خالد بن الوليد. فخرج عليّ بذلك المال حتى جاءهم فودى لهم ما أصاب خالد. [417]

<u>وفي تلك السنة أي سنة فتح مكّة:</u>
- توفّيت زينب بنت النبيّ. [418]
- مليكة بنت داود الليثية تستعيذ من محمّد وترفض الزواج منه و يروي أبو أسيد قائلا: **خرجنا مع النبي حتى انطلقنا إلى حائط (...) فجلسنا بينهما فقال النبي: اجلسوا ها هنا ودخل وقد أتي بالجونية (...) فلما دخل عليها النبي قال: هبي نفسك لي، قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة؟ قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: قد عذت بمعاذ ثم خرج علينا، فقال: يا أبا أسيد اكسها رازقتين والحقها بأهلها.** [419] و روى نحو هذه الرواية البخاري في كتاب الطلاق، وابن ماجة والنسائي وغيرهم.

<u>صورة ابراهيم ومريم داخل الكعبة:</u>
دخل النبي البيت فوجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم فقال: أمّا هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة، هذا إبراهيم مصور فما له يستقسم؟ وفي رواية أخرى للبخاري أيضا: **لمّا قدم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل**

---
[416] المصدر السابق/بتصرّف
[417] المصدر السابق/بتصرّف
[418] الحافظ الذهبي/سير أعلام النبلاء/ج2/ص250
[419] الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ج2/ص162، وراجع البخاري وغيره.

في أيديهما الأزلام فقال رسول الله: قاتلهم الله، أما والله قد علموا أنهما لم يستقسما بهما قط. فدخل البيت فكبّر في نواحيه ولم يصلّ فيه. [420] ما يلفت الانتباه في هذين الروايتين هو أنّ النبيّ يبدو متعجّبا من وجود تمثاليْ ابراهيم وابنه يستسقمان، وكأنّه لم يكن يعرف ماذا يوجد داخل الكعبة إلاّ يوم الفتح.

<u>الرفع من شأن قريش:</u>

وبعد فتح مكّة أعلى النبيّ من شأن قريش [وهذا أمر متوقّع] قائلا: **لا يقتل قرشيٌّ صبراً بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة.** [421]

[420] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج2/ص60

[421] صحيح مسلم/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج3/ص376

غزوة حنين

لمّا فتح النبيّ مكة مشت أشراف هوازن بعضها إلى بعض وثقيف بعضها إلى بعض وحشدوا له الجيوش واتّحدوا لمقاتلته، وربّما لنا أن نتساءل: لماذا اجتمعوا لقتاله؟ لماذا لم يتّجهوا إليه من قبل إلى المدينة؟

تقول السيرة: اعتقدوا أنّ النبيّ حين خرج من المدينة كان متوجّها إليهم لذلك تجهّزوا للقتال وحين رأوا أنّه اتّجه إلى مكّة و فتحها قالوا: **والله ما لاقى محمد قوما يحسنون القتال فأجمعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم** [422]

لكن لنا رأي آخر: وهو أنّ ثقيفا وهوازن لاحظا اجتماع قريش واتّحادها مع النبيّ، واستشرفا أنّ قريشا تنوي حكم العرب وتوحيدها تحت رايتها، فجمعا الجيوش لمواجهة هذا المدّ القرشيّ فالمعركة ليست معركة دين بقدر ما هي معركة تسابق نحو السلطة والمُلْك. ونلاحظ أنّ النبيّ حين خرج لمواجهتهم في اثني عشر ألف مقاتل ترك على مكّة عتاب بن أسيد بن أبي العيص يصلّي بهم ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه [423]

عتاب بن أسيد هذا، أسلم يوم الفتح، والرسول بقي خمسة عشر يوما في مكّة ثمّ خرج إلى حنين لمواجهة ثقيف وهوازن، فلا أدري كيف سيصلّي عتاب بن أسيد بالناس؟ ولم يسلم إلاّ منذ أسبوعين. وماذا سيقرأ من القرآن في صلاته؟ هذه من القرارات الإستراتيجية للنبيّ، أو بالأحرى ما تحتّمه الضرورات السياسيّة، فالنبيّ عليه أن يجمع معه أيضا بني أميّة [حتّى لا يذهب في الأذهان أنّه مع بني هاشم ضدّهم] وهذا كلّه لتوحيد قريش تحت حكمه، فعتاب بن أسيد هو: **عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، يكنى أبا عبد الرحمن. وقيل: أبو محمد. أسلم يوم فتح مكة واستعمله النبي على مكة عام الفتح حين خروجه إلى حنين** [424] وهناك من لاحظ هذه المواقع الإستراتيجية التي منحها النبيّ لبني أميّة فيروي أبو حيّان التوحيدي في الإمتاع و المؤانسة، مجيبا الوزير الذي تعجّب كيف صار الحكم إلى بني أميّة بعد النبيّ قائلا: **كيف تطاول هؤلاء القوم** [أي بني أميّة] **إلى هذا الأمر مع بعدهم من رحم رسول الله وقرب بني هاشم منه؟ (...) فقلت: أيها الوزير، إذا حقق النظر واستشف الأصل لم يكن هذا عجيباً، فإنّ أعجاز الأمور تاليةٌ لصدورها، والأسافل تاليةٌ لأعاليها، ولا يزال الأمر خافياً حتى ينكشف سببه فيزول التعجب منه، وإنّما بعُد هذا على كثير من الناس، لأنهم لم يعنوا به وبتعرف أوائله والبحث عن غوامضه، ووضعه في مواضعه، وذهبوا مذهب التعصب.**

(...)لا خلاف بين الرواة وأصحاب التاريخ أن النبي توفيّ وعتاب بن أسيدٍ على مكة، وخالد بن سعيد على صنعاء، وأبو سفيان بن حرب على نجران، وأبان بن سعيد بن العاص على البحرين، وسعيد بن القشب الأزدي حليف بني أمية على جرش ونحوها، والمهاجر بن أبي أمية المخزومي على كندة والصدف، وعمرو بن العاص على عمان، وعثمان بن أبي العاص

---

[422] مغازي الواقدي/ج3/ص885

[423] المصدر السابق، و استعمال عتاب ذكره البخاري في التاريخ الكبير/ج7/ص54، والكشاف للزمخشري ص 694، والإصابة لابن عبد البرّ/ج2/ص451، الخ

[424] ابن عبد البرّ/الاستيعاب/ج3/ص1022

على الطائف. فإذا كان النبي أسّس هذا الأساس، وأظهر أمرهم لجميع الناس، فكيف لا يقوى ظنهم، ولا ينبسط رجاؤهم، ولا يمتد في الولاية أملهم؟ [425]

ويتساءل المقريزي قائلا: **فإنّي كثيرا ما أتعجّب من تطاول بني أميّة إلى الخلافة مع بُعدهم من أصل رسول الله، وقرب بني هاشم، وأقول كيف حدّثتهم أنفسهم بذلك؟ (...) فلعمري لا بُعد أبعد ممّا كان بين بني أميّة وبين هذا الأمر، إذ ليس لبني أميّة سبب إلى الخلافة (...) إلاّ أن يقولوا : إنّا من قريش، فيساوون في هذا الاسم قريش الظواهر، لأنّ قوله (ص) الأئمّة من قريش، واقع على كلّ قرشيّ** [426] ثمّ يذكر بعض ما فعله بنو أميّة قائلا: **ومنهم كهف النفاق** [يقصد أبا سفيان] **ونقروا بالقضيب بين ثنتيّ الحسين، ونبشوا زيدا** [يقصد زيد بن عليّ بن الحسين، الذي ثار على هشام بن عبد الملك، فقُتل وصلب] **وصلبوه وألقوا رأسه في عرصة الدار تطؤه الأقدام وتنقر دماغه الدجاج** [427]

وعلى كلّ حال فإنّ الخلاف والقتل من أجل "هذا الأمر" لا يتوقّف على بني أميّة فقط، فالأنصار يريدون الحكم من جهة، و قريش انقسمت بين بني هاشم وبني أميّة، وبنو هاشم انقسموا فيما بينهم وقتلوا العلويّين حتّى قال الشاعر:

تالله ما فعلتْ أميّة فيهمُ

معشار ما فعلتْ بنو العبّاس

أي أنّ بني العبّاس فعلوا أضعاف أضعاف ما فعله الأمويّون.

لكن، يجب أن نكون حذرين من كلّ هذه المعلومات، وخاصّة التي تذمّ بني أميّة وتظهرهم بهذا المظهر، حيث كما نعلم فكلّ هذا التاريخ وصلنا من الدولة العبّاسيّة التي ثارت على الأمويّين وأخذت الحكم، ولا ننسى ما فعله السفّاح أوّل خلفاء بني العبّاس حين استلم الحكم، إذ أمر بإخراج جثث بني أميّة من قبورها، وضربها بالسوط وصلبها. فإن كان هذا فعله مع الأموات فلا نتعجّب أن يكتبوا تاريخا يُظهرون فيه بني أميّة وحوشا وكفلوّا، ويجعلون كلّ العيوب السبعة فيهم، ولنا مثال عمّا وصلنا في كتب التاريخ عن قرّة بن شريك والي الخليفة عبد الملك بن مروان على مصر، حيث تشير إلى أنّه كان فاسقا ظالما يعذّب الأقباط، وكان شرّ الناس وحين يأتي الليل يقيم الغناء في المسجد، ويشربون الخمر إلى الصباح [راجع مثلا، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة/ابن تغري بردي/ج1] ولكن تمّ اكتشاف مخطوطات برديّة تعود إلى عهده [96 هجري] فيها رسائل أرسلها إلى عمّاله في المحافظات [قام Becker بنشر 22 مخطوطة منها، راجع مثلا Le journal Asiatique /باريس/السلسة الثانية/المجلّد التاسع/ صفحة155 وما بعدها] وفي هذه المخطوطات يؤكّد على عمّاله أن يكونوا عادلين في جمع الضرائب، وأن يكونوا صارمين مع التجّار الذين يحتكرون أو يسرقون أقوات الناس الخ... وذكر المحقّق أنّ قرّة بن شريك كان يحكم بالعدل حسب الشريعة الإسلامية في وقته بعكس ما يصوّره التاريخ فالمخطوطات تعطينا شخصيّة أخرى مخالفة تماما لما ذكره المؤرّخون، وبالتالي فعلينا دائما أن نكون حذرين ممّا ذكره العبّاسيّون عن دولة بني أميّة ولا أستبعد مثلا أنّ الحجّاج لم يقم أبدا

---

[425] أبو حيّان التوحيدي/الإمتاع و المؤانسة/ج1/ص93

[426] المقريزي/النزاع و التخاصم فيما بين بني أميّة و بني هاشم/ص31

[427] المصدر السابق/ص 34

بضرب الكعبة بالمنجنيق، أو الروايات التي تشير إلى بناء عبد الملك لقبّة الصخرة وفرضه الحجّ إليها بدل الكعبة حيث يذكر اليعقوبي قائلا: **ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم، إذا حجوا، بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة، فضج الناس، وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام، وهو فرض من الله علينا! فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها، لما صعد إلى السماء، تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على الصخرة قبة، وعلق عليها ستور الديباج، وأقام لها سدنة، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيام بني أمية.** [428] وهذه مثلا قد تكون مفتعلة أيضا حيث أنّ تاريخ العملة يخبرنا أنّ عبد الملك هو أوّل من ضرب الدينار العربيّ وجعل عليه ‘محمّد رسول الله‘ ممّا نستنتج أنّ له رغبة في تعريب وأسلمة الوضع القائم رسميّا، والكعبة هي رمز للعرب وللإسلام فكيف يحوّلها إلى القدس؟ [وإن كنت لا أستبعد أنّ للسياسة ضروراتها وأحكامها و قد يفعلها عبد الملك لإضعاف موقف ابن الزبير في مكّة] لكن يظلّ الحذر واجبا في التعامل مع الأخبار التي قدّمها لنا العبّاسيّون عن الأمويّين.

نعود إلى الموضوع:
فخرج إذن النبيّ إلى الطائف لملاقاة ثقيف وهوازن وخرج معه في جيشه أيضا ‘الطلقاء‘ [429] وهم المشركون الذين قال لهم :اذهبوا فأنتم الطلقاء، ونزل الجيش بمكان اسمه ‘حنين‘. ولو كانت قريش ضدّ النبيّ لكانت فرصتها حيث تستطيع أيضا مهاجمته من الخلف أثناء التقاء الجيشين كما أنّ جيش هوازن وثقيف بلغ عشرين ألف مقاتل [430] لكنّها حاربت معه، وهو ما أشرنا إليه أعلاه أنّ المعركة معركة سُلطة و حكم.
ويروي أنس بن مالك قائلا: **لمّا انتهينا إلى وادي حنين - وهو واد من أودية تهامة له مضايق وشعاب - فاستقبلنا من هوازن شيء لا والله ما رأيت مثله في ذلك الزمان قطّ من السواد والكثرة (...) فبينا نحن في غلس الصبح إن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادي وشعبه فحملوا حملة واحدة. فانكشف أول الخيل - خيل سليم - مولية فولوا، وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء** [431]
وانهزم المسلمون وفرّوا في كلّ مكان، وبقي النبيّ وحده ومعه شخص واحد فقط وهو: أبو سفيان بن الحارث [432] [أبو سفيان هذا هو ابن عمّ النبيّ وأسلم قبل فتح مكّة بأيّام، حيث ذهب إلى محمّد الذي كان في الطريق إلى مكّة وأراد مقابلته ليعلن إسلامه، لكنّ النبيّ رفض رؤيته في البداية لأنّه كان يهجوه في مكّة ثمّ قبل في الأخير] قلنا إذن أخذ الجميع بالفرار، فانحاز النبيّ

---

[428] تاريخ اليعقوبي/ج1/ص214
[429] البخاري/المغازي/غزوة الطائف، مسلم/باب الزكاة/إعطاء المؤلّفة قلوبهم، الخ
[430] مغازي الواقدي/ج3/ص897
[431] المصدر السابق
[432] فهم من البخاري و مسلم أنّه لم يبق مع النبيّ إلاّ أبو سفيان بن الحارث، بينما رجال المغازي و السير يذكرون أشخاصا آخرين أيضا ظلّوا مع النبيّ, و هناك من يضيف العبّاس أيضا أنّه لم يهرب, [و هذا واضح لأنّه جدّ الدولة العبّاسيّة] و إن كنت أرجّح قول أهل المغازي و السير في هذه الحادثة و أنّ من بقي معه أكثر من شخص واحد، على الأقلّ بدافع العصبيّة العربيّة

إلى اليمين، وصاح: **أين أيّها الناس؟ هلمّوا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله** .[433]
وسمع أخو صفوان بن أميّة كلدة بن الحنبل يصرخ قائلا: **ألا بطل السحر اليوم** [أي انهزم محمد] فقال له صفوان: **اسكت فضّ الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن** [434] [يربني أي يحكمني، فهو يخيّر أن ينتصر محمّد لأنّه من قريش على أن تنتصر هوازن] واجتمعت جيوش المسلمين مرّة أخرى [أو بعضها والروايات تشير إلى أنّ الأنصار أوّل من عاد والتفّ حول النبيّ] فأخذ النبيّ حفنة من تراب وألقاها ناحية جيش هوازن صارخا: **شاهت الوجوه** [435] تماما كما يفعل الكهّان أثناء الحروب، وقد فعل أيضا مثل هذا في معركة بدر. وانهزمت هوازن وفرّت مخلّفة خلفها الكثير من القتلى والأموال، فأمر النبيّ بملاحقتهم وقتلهم حتّى لا يجتمعوا مرّة أخرى [436] وقد كانت غنيمة كبيرة، فوصل السبي من النساء والأطفال: ستّة آلاف نفس، والأموال: أربعة آلاف أوقية من الفضّة، والإبل: أربع وعشرون ألفا، وأكثر من أربعين ألف شاة! [437] [الأرقام مبالغ فيها كثيرا كما يبدو] بينما هربت ثقيف إلى الطائف وتحصّنت هناك.
و يروي أبو قتادة: **فلمّا وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم، قال رسول الله: من قتل قتيلاً فله سلبه** [أي من قتل قتيلا فله أن يأخذ أمواله وكلّ شيء يبتعه] **فقلت: يا رسول الله، والله لقد قتلت قتيلاً ذا سلب، فأجهضني عنه القتال** [أي لم أستطع أن أسلبه لأنّي واصلت القتال] **فما أدري من استلبه؟ فقال رجل من أهل مكة: صدق يا رسول الله، وسلب ذلك القتيل عندي فأرضه عني من سلبه** [طلب الرجل أن يحتفظ بما سلب] **فقال أبو بكر الصديق : لا والله، لا يرضيه منه تعمد إلى أسد من أسود الله، يقاتل عن دين الله، تقاسمه سلبه! اردد عليه سلب قتيله، فقال رسول الله: صدقَ، ارددْ عليه سلبه. فقال أبو قتادة : فأخذته منه، فبعته، فاشتريت بثمنه مخرفاً، فإنه لأوّل مال اعتقدته** [438] [الرواية السابقة تشير إلى مغانم بأرقام مهولة وهذه الرواية تشير إلى شخصين يختلفان حول سلب قتيل] ثمّ بعد ذلك قرّر النبيّ مطاردة البقيّة ومحاصرة الطائف ويذكر لنا الأصفهاني في كتاب الأغاني طرفة سنذكرها هنا: **قال هيت المخنث** [شخص مخنّث اسمه 'هيت'] **لعبد الله بن أبي أمية: إن فتح الله عليكم الطائف فسل النبي بادية بنت غيلان** [بادية هو اسم فتاة] **فإنها هيفاء شموع نجلاء، إن تكلمت تغنت، وإن قامت تثنت، تقبل بأربع وتدبر بثمان، مع ثغر كأنه الأقحوان، وبين رجليها كالإناء المكفوء، كما قال قيس بن الخطيم:**
تغترف الطرف وهي لاهية*كأنــما شف وجهها نـزف**
بين شكول النســاء خلقتهـا ***قصد فلا جبلة ولا قضـف

[433] سيرة ابن هشام/ص764
[434] المصدر السابق
[435] السيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصليّة/ ص 589
[436] المصدر السابق
[437] المصدر السابق
[438] سيرة ابن هشام/ص 768

فقال النبي:" لقد غلغلت النظر يا عدو الله " [أي لقد بالغت في النظر إليها حتّى عرفت كلّ هذا] **ثم جلاه عن المدينة إلى الحمى** [جلاه حين عادوا إلى المدينة] **قال: فلما فتحت الطائف تزوجها عبد الرحمن بن عوف فولدت له بريهة.** [439]

ومن الخلفاء الذين طاردوا 'المخنّثين' مروان بن الحكم، حيث **كان بالمدينة مخنث يقال له النغاشي، فقيل لمروان بن الحكم: إنه لا يقرأ من كتاب الله شيئا** [أي لا يحفظ شيئا من القرآن] **فبعث إليه يومئذ، وهو على المدينة، فاستقرأه أمّ الكتاب** [أي طلب منه قراءة الفاتحة] **فقال: والله ما معي بناتها، أو ما أقرأ البنات فكيف أقرأ أمّهن! فقال: أتهزأ لا أمّ لك! فأمر به فقتل في موضع يقال له بطحان، وقال: من جاءني بمخنث فله عشرة دنانير** [440]

و هذه الروايات تقرّبنا أكثر إلى الحياة الاجتماعيّة وقتها، حيث نجد في المجتمع كلّ الفئات ويتصرّفون من منطلق القيم السائدة في عصرهم، كما أنّ الجنس لم يكن يشكّل مطلقا أيّ مشكلة بل ربّما يجوز لنا القول أنّهم كانوا منفتحين جنسيّا أكثر منّا اليوم فأن يطلّق أحدهم زوجته فيتزوّجها أخوه، فهو أمر عاديّ وبلا إشكال أخلاقيّ، أو يتزوّج أحدهم ز وجة أبيه، هذا دون الحديث عن بيوت البغاء المنظّمة، إمّا البغاء المقدّس ونساؤه تسمّى- ربّما- بنات طارق، وإمّا المنظّم حيث كانت البغيّ تضع راية حمراء على باب الخيمة تُعرف بها وإذا جاءها زائر تسعل أي تحمحم،ليعلم أنّها جاهزة ومنها سمّيت بالقحبة لأنّها تقحب أي ت سعل وتكحّ كحّا خفيفا وإذا حبلت البغيّ بعد نكاح الرهط وهو أن ينكحها العديد فإنّها تختار الأب الذي تريد لابنها ولا يحقّ لأحد الاعتراض كما حدث مع العاص الذي اختارته ليكون أبا لعمرو بن العاص .والإسلام نهى عن أنواع النكاح هذه ولكنّه حافظ على ملكات اليمين والرقّ والتي هي أيضا زنى مقنّن، وكذلك زواج المتعة عند الشيعة

وتختلف العادات اختلافا طفيفا أو كثيرا بين القبائل، حيث يروي عمر بن الخطّاب، حين اتّحدت حفصة وعائشة ضدّ النبيّ [أشرنا إلى القصّة أعلاه] يروي قائلا: **وكنا معشر قريش نغلب النساء** [أي كنّا نتحكّم فيهنّ، وإن كنت أشكّ في كلام عمر حيث استعمل صيغة التعميم ولا ننسى خديجة واستقلاليّتها بنفسها أو هند زوجة أبي سفيان الخ] **فلمّا قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم** [أي حين هاجرنا إلى المدينة وجدنا أنّ نساء الأنصار لهنّ رأيهنّ ويناقشن أزواجهنّ] **فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار** [أي تعلّم نساؤنا القرشيّات منهنّ هذه العادات] **فصحت على امرأتي فراجعتني** [أي جادلتني] **فأنكرتُ أن تراجعني.فقالت ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ليراجعنه وإن إحداهنّ لتهجره اليوم حتى الليل، يقول عمر: فأفزعني ذلك** [441]

---

[439] الأغاني/ج1/ص 253

[440] المصدر السابق

[441] مغازي الواقدي/ج2/ ص 867، صحيح مسلم/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج1/ص31

الطائف

وبعد الانتهاء من معركة حنين توجّه النبيّ إلى الطائف التي هرب إليها بنو ثقيف وتحصّنوا فيها.

الطائف:
تقع على بعد مائة كيلومتر تقريبا في الجنوب الشرقيّ لمكّة على ظهر جبل غزوان، وتربتها خصبة وتشتهر بالأعناب والرمّان والزبيب وغير ذلك من الفواكه، وهي مصدر أساسيّ في تزويد ملكّة بها.
لا نكاد نعرف شيئا كبيرا عن تاريخ الطائف - خارج روايات الإخباريّين- رغم الدلائل التي أشارت إليها الأبحاث الأركيولوجيّة عن قدم هذه المدينة في التاريخ، وتمّ اكتشاف بعض الكتابات الثموديّة والنبطيّة في تلك المنطقة [442] ممّا يشير على أنّ قبائل ثمود استوطنوا تلك المنطقة في فترة ما وكذلك كتابات إسلاميّة متأخّرة نسبيّا عن بدايات الإسلام، ومن أقدم هذه النقوش الإسلاميّة وأشهرها نقش الخليفة معاوية بن أبي سفيان، بالخطّ الكوفي، سنة ثمان وخمسين هجري، جاء فيه:
هذا السدّ لعبد الله معاوية أمير المؤمنين، بناه عبد الله بن صخر بإذن الله سنة ثمان وخمسين. اللهم اغفر لعبد الله معاوية أمير المؤمنين وثبّته وانصره ومتّع أ[مير] المؤمنين به، كتب عمرو بن جناب [443]

صورة منسوخة طبق الأصل من النقش [444]

وبالمناسبة فإنّ أقدم نصّ إسلامي منقوش مؤرّخ بسنة إحدى وثلاثين للهجرة [توجد نقوش أخرى أقدم تعود إلى العشرينيّات من الهجرة ولكن هذا النصّ هو الذي يحمل صبغة إسلامية صرفة وخاصّة البسملة في البداية] وهذا نصّ النقش:

---

[442] جواد علي/المفصّل/ج2/ ص 416
[443] Georges C.Miles/ Early Islamic inscriptions near Ta'if in the Hejaz/ p 236-240
[444] Idem

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا القبر لعبد الرحمن بن خير الحجري [445] اللهمّ اغفر له وادخله في رحمة منك، وآتنا معه. استغفر له إذا قرأ هذا الكتاب وقل آمين، وكتب هذا الكتاب في جمادى الآخر من سنة [446] احدى وثلاثين [447] وكما كنت قد أشرت سابقا فإنّه لا يوجد أيّ نقش أركيولوجيّ يُذكر فيه اسم محمّد قبل خلافة عبد الملك بن مروان.

والطائف [واسمها القديم: وجّ] لها حصن يحيط بها وهي من أمنع المدن العربيّة في عهد النبيّ وفيها معبد اللات الذي تعظّمه العرب وتحجّ إليه، وفيها سوق عكاظ المعروف الذي تمرّ منه القوافل، وفيها رجال أشراف مشهورون بالسؤدد مثل الأخنس بن شريق وعروة بن مسعود ومنهم طبيب العرب المعروف الحارث بن كلدة والشاعر أميّة بن أبي الصلت.

أفتح قوسا صغيرا عن أميّة بن أبي الصلت:
يتماهى الكثير من شعر أميّة مع القرآن، ممّا دفع البعض إلى اعتبار أنّ النبيّ اقتبس بعض الآيات من شعره، ورغم أنّ المحقّقين وجدوا صعوبة كبيرة في غربلة أشعاره وإخراج الصحيح منها [وبالمناسبة فهذا الصحيح لا يتماهى مع القرآن حرفيّا وإنّما يظلّ في الطقس الدينيّ نفسه بما أنّ أميّة من الحنفاء] قلت رغم ذلك فإنّ هذا الصحيح أيضا قد يكون منحولا.
و كما كانت السياسة تلعب دورا كبيرا في روايات الإخباريّين والسيرة والحديث فهي تلعب دورا أكبر في الشعر، وكانت هذه الأشعار المنحولة منتشرة بكثرة عجيبة، ولنا أن نقرأ سيرة ابن هشام لنرى الكمّ المهول من الأشعار المذكورة، فهناك أبيات منسوبة لثمود وعاد وحتّى آدم، بل وحتّى الجنّ قالت شعرا في رثاء عمر بن الخطّاب، و يذكر طه حسين نقلا عن صاحب الأغاني عيّنة من انتحال الشعر فيقول: **عن عبد العزيز بن أبي نهشل قال: قال لي أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام - وجئته أطلب منه مغرما- :يا خال هذه أربعة آلاف درهم وانشد هذه الأبيات الأربعة وقل سمعت حسّانا ينشدها رسول الله، فقلت: أعوذ بالله أن أفتري على الله ورسوله، ولكن إن شئت أن أقول سمعت عائشة تنشدها، فعلتُ، فقال: لا، إلاّ أن تقول سمعت حسّانا ينشدها رسول الله ورسول الله جالس. فأبى عليّ وأبيت عليه، فأقمنا لذلك لا نتكلّم عدّة ليال، فأرسل إليّ فقال: قل أبياتا تمدح بها هشام بن المغيرة، وبني أميّة، فقلتُ: سمّهم لي؟ فسمّاهم، وقال اجعلها في عكاظ واجعلها لأبيك، فقلتُ:**
ألا لله قـــــــــــوم و*لدت أخت بني سهم**
هشـــــــام و أبو عبد*مناف مدرة الخصم**
و ذو الرمحين أشباك*علـــى القوّة والحزم**
الخ...من الأبيات، ثمّ جئتُ فقلتُ: هذه قالها أبي، فقال: لا، و لكن قل: قالها ابن الزبعرى.
قال فهي إلى الآن منسوبة في كتب الناس إلى ابن الزبعرى!
فانظر إلى عبد الرحمن بن الحارث بن هشام كيف أراد صاحبه على أن يكذب وينتحل الشعر على حسّان، ثمّ لا يكفيه هذا الانتحال حتّى يذيع صاحبه أنّه سمع حسّانا ينشد هذا الشعر بين

---

[445] اسرائيل ولفنسون كان اقترح قراءة الاسم : الحجازي و ليس الحجري, تاريخ اللغات السامية/ص 202
[446] كلمة ''سنة'' مكتوبة بتاء مفتوحة: سنت. و هذه ليست أوّل مرّة تُكتب بهذه الطريقة
[447] Robert G.Hoyland/Seeing Islam as others saw it/p689

يدي النبيّ، كلّ ذلك بأربعة آلاف درهم، ولكنّ صاحبنا كره أن يكذب على النبيّ بهذا المقدار واستباح أن يكذب على عائشة، وعبد الرحمن لا يرضيه إلاّ الكذب على النبيّ، فاختصما [448]

وكلّما وُجد شخص حاكم ذو سلطان ونفوذ إلاّ وتكاثرت الأشعار التي تمدح أصله وفصله، ممّا دفع طه حسين إلى إنكار الشعر الجاهلي أصلا واعتبره كلّه منحولا بما فيه أشعار امرئ القيس وطرفة وغيرهما، إلاّ بعض النتف، وطرْح طه حسين جدير بالتفكير حيث قدّم أسبابا وجيهة وعلميّة جيّدة خاصّة عن اختلاف اللهجات بين القبائل.
ولا نتعجّب إن انتُحلت العديد من أشعار أميّة بن أبي الصلت وذلك لأجل التقرّب من الحجّاج فالحجّاج من بني ثقيف، وأميّة كذلك، ولا نستبعد أنّهم أرادوا جعل السابقة لبني ثقيف في الدين ونحلوا أشعارا لأميّة موازية للقرآن.
نغلق القوس.

وقد قام ألساندو دو ماقرا، بتتبّع خطّ القوافل في الجاهليّة، القادمة من اليمن والمتّجهة إلى الشام اعتمادا على وصف الجغرافيّين القدامى كديودورس وبلين وخاصّة بطليموس، وكذلك انتشار الواحات التي قد تتوقّف عندها القوافل. ونبدأ من نجران:
من نجران تنطلق القافلة نحو الشمال، فتعبر قرب وادي حبونة ومنه تدور حول جبل القرّة من الشرق لتصل إلى منطقة بئر حمى، حيث نرى العديد من النقوش الموجودة على جبل قرّة وجبل كوكب والتي تعود للملك ذي نواس، ثمّ تواصل القافلة طريقها لتصل إلى جبل الواجد وهناك تنقسم الطريق إلى دربين، الأولى نحو الشمال الشرقي فتعبر وادي الدواسر والأفلاج واليمامة الخ.. والثانية تتّجه نحو الشمال الغربي في اتّجاه بيشة. وفي هذه الطريق، لا يكون للقافلة خيار آخر إلاّ أن تمشي بالتوازي قرب جبل القهر حتّى آخره، والراجح أنّها تكون قد مرّت قرب بئر المريغان حيث نرى نقشا لأبرهة يعود لسنة 547 ميلادي حين كان يطارد عرب الشمال [449] **ثمّ تعبر القافلة من واحة التثليث [بطليموس يسمّيها Lathatha] ونرى جبل الثمالة القريب الذي نستطيع من خلاله معرفة وصولنا إلى بيشة [بطليموس يسمّيها: Thumala] حتّى هذه النقطة تكون القافلة قد قطعت 435 كيلومترا انطلاقا من نجران، وعلى تسع مراحل، وبعد ثمالة تتوقّف القافلة عند تبالة [بطليموس يسمّيها: Tabala] ثمّ جرب، ثمّ حرّة البقوم وحتّى وادي قرّة، ثمّ وادي تربة ومن هناك تدور القافلة من جهة الشرق حول الجبال المنتشرة في هذه المنطقة من الحجاز، و تصل إلى عكاظ. مكّة توجد على بعد مسيرة ثلاثة أيّام من عكاظ، ومن المستبعد أن تضيف القافلة مرحلة إضافيّة في طريقها وتعبر من مكّة، إلاّ في حالة واحدة وهي أنّ التجّار يقصدون مكّة كنهاية لرحلتهم، فيتركون الطريق الرئيسيّة خلفهم ويعبرون من قرن المنازل نحو مكّة** [450]

---

[448] طه حسين/في الأدب الجاهلي/ص139

[449] التاريخ الصحيح هو: 552 ميلادي.

[450] Alessandro de Maigret/Chroniques yéménite/La route caravanière de l’encens dans l’Arabie préislamique/vol 11/2003/ ch11-12

نلاحظ في هذه الدراسة لخطّ القوافل أنّ عكاظ كانت ملتقى القوافل التجاريّة [وهو ما تذكره الأخبار أيضا] بينما مكّة أقلّ منها شهرة ولا تأتيها إلاّ القوافل القاصدة إليها كمرحلة أخيرة [لكنّ الأخبار قامت بتهويلها] فالطائف إذن هي مدينة غنيّة محصّنة يعبر منها التجّار وتشهد انتعاشة ثقّافيّة ودينيّة، ولها شعائرها ومعبدها الذي تقصده العرب، وهو معبد العزّى.
من الممكن أنّ الإخباريّين أخذوا هذه الأخبار عن الطائف وأسقطوها على مكّة، و لا نستبعد أيضا أن تحاول قريش السيطرة على الطائف [وبعدها كلّ العرب] وتحويل مركز الإشعاع إلى مكّة، وهو ما حدث فعلا.
إذن فقد توجّه النبيّ إلى الطائف وقام بحصارها لكنّه تعرّض إلى ضرب السهام من فوق الحصون وتوفّي بعض المسلمين جرّاء ذلك فتراجع الجيش بعيدا عن مرمى السهام، ثمّ استخدم المسلمون الدبّابة [وهي آلة من الخشب يختفي المقاتلون تحتها ويقتربون من الأسوار لثقبها] فضربتهم ثقيف بقطع الحديد المشتعلة فأحرقت الدبّابة وانكشف المسلمون فرمتهم بالسهام فقتلت منهم رجالا. فاستعمل المسلمون المنجنيق لضرب الحصون، وقام النبيّ بإحراق النخل والأعناب المحيطة: فناشدوه أن يدعها لله و للرحم، فاستجاب لهم [451] [نلاحظ أنّ النبيّ يستعمل كلّ الوسائل في الحروب، والحرب خدعة كما قال]
ورغم كلّ ذلك لم يستطع النبيّ فتح الطائف فأمر بالتراجع وتركها. لنا أن نتساءل كيف استطاع فتح حصون خيبر الثمانية بعُشر هذا الجيش رغم قدرة اليهود العسكريّة وصناعتهم السلاح، ولم يستطع فتح الطائف باثني عشر ألف مقاتل، إلاّ إذا افترضنا أنّ فتح خيبر كان بعد وفاة النبيّ واجتماع العرب تحت أبي بكر وربّما تحت عمر، ثمّ عاد النبيّ إلى الجعرانة حيث ترك غنائم حنين هناك، وجاء وقت تقاسم الغنائم: فأعطى النبيّ المهاجرين، والطلقاء [أي المشركين من قريش الذين معه] وتسعة وعشرين شخصا من المؤلّفة قلوبهم [452] من مشركي قريش ولم يعط الأنصار شيئا، فاحتجّوا وبدأ ميل النبيّ إلى قومه قريش يبدو أكثر فأكثر.

[451] السيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصليّة/ص 595
[452] ابن هشام يذكرهم بأسمائهم, وهم تسعة وعشرون شخصا. و بعض الروايات تقول كانوا سبعة وخمسين.

هوامش من غزوة حنين وأوطاس والطائف

الأعراب تدفع النبيّ حتى يسقط رداؤه:

يروي البخاري ورجال السير أنّه حين بدأ النبيّ بقسمة الغنائم، جاء الأعراب المشاركون في الغزوة وطالبوا بنصيبهم من الغنيمة، حتّى أنّهم قاموا بدفع النبيّ حتّى حاصروه قرب شجرة فعلق رداؤه فيها، فقال النبيّ: **أعطوني ردائي فلو كان عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً.** [453]

الأنصار تحتجّ على عدم إعطائها من الغنائم:

أعطى النبيّ المشركين من قريش ولم يعط الأنصار شيئا، فقال ذو الخويصرة التميمي: **قد رأيتُ ما صنعتَ في هذا اليوم يا محمد، فقال له رسول الله: أجل، فكيف رأيت ؟ قال: لم أرك عدلت. فغضب النبي، وقال: ويحك إن لم يكن العدل مني فعند من يكون؟** [454]

وقالت الأنصار: **والله إن هذا لهو العجب، إنّ سيوفنا لتقطر من دمائهم** [أي من دماء قريش] **والغنائم تقسم فيهم؟** [455]

وبعضهم قال: **لقي والله رسول الله قومه.** [456] [أي عاد النبيّ إلى قريش و فضّلها علينا]

وقال آخر: **أما والله لقد كنت أحدثكم أنه لو استقامت الأمور قد آثر عليكم.** [457] [أي كنت نبّهتكم أنّه حين تستقيم الأمور لمحمّد، بفضل معونتنا له، فسيتركنا ويعود إلى قومه ويؤثرهم علينا]

ولكنّ النبيّ عرف كيف يجعلهم في موقف محرج حيث قال لهم: **أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفسي بيده لو أنّ الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار** [458] [أي قال لهم إن كانت الناس ستذهب بالمال فأنتهم ستعودون برسول الله، ولن يستجيب الله لدعاء النبيّ ولن يرحمهم لا هم ولا أبناءهم ولا أبناء أبنائهم وسيستحلّ يزيد دماءهم ويسبي نساءهم]

النبيّ لا يحبّ من لا يحبّ قريشا:

قاتل عثمان بن عبد الله حتّى قتل وكان من بني ثقيف وحين علم النبيّ بموته قال: **أبعده الله فإنه كان يبغض قريشاً.** [459]

---

[453] ابن كثير/البداية و النهاية/ج 4/ ص 406، صحيح البخاري/باب فرض الخمس

[454] ابن عبد البرّ/الدرر في اختصار المغازي و السير/ج1/ص75، صحيح مسلم/باب الزكاة، أخرجه بلفظ آخر

[455] ابن كثير/البداية و النهاية/ج 4/ ص410، و أخرجه البخاري و مسلم-باب فرض الخمس، باب الزكاة

[456] ابن عبد البرّ/الدرر في اختصار المغازي و السير/ج1/ص75

[457] ابن كثير/البداية و النهاية/ج 4/ ص 412

[458] المصدر السابق

[459] المصدر السابق

العرب كانت تقوم بالختان قبل الإسلام:
ذكر ابن إسحاق، أنه قُتل مع عثمان هذا غلام له نصراني، فجاء رجل من الأنصار ليسلبه، فإذا هو أغرل [أي غير مختون] فصاح بأعلى صوته: **يا معشر العرب إنّ ثقيفاً غرل.** [أي غير مختونين] **فقال المغيرة بن شعبة الثقفي: فأخذت بيده وخشيت أن تذهب عنا في العرب، فقلت: لا تقل كذلك فداك أبي وأمي إنما هو غلام لنا نصراني، ثم جعلت أكشف له القتلى فأقول له: ألا تراهم مختتنين كما ترى؟** [460]

ستتوتّر العلاقة أكثر فأكثر بين النبيّ والأنصار [أو بعضهم] فيما تبقّى من الفترة الأخيرة من حياته، إثر عودته من حصار الطائف، ربّما لأنّهم بدؤوا يشعرون بخروج ‘‘هذا الأمر‘‘ من أيديهم وظهور قريش - رسميّا- في الواجهة. وبدأ هذا الظهور بتمييزهم في قسمة الغنائم وحرمان الأنصار منها و لو بشيء رمزيّ.
وكلام النبيّ - بخصوص الأنصار- لا يتطابق مع أفعاله، فهو يقول: إن سلك الأنصار طريقا وسلك الناس طريقا، فالنبيّ سيسلك طريق الأنصار، هذا كلامه، أو ما قوّلوه، أمّا أفعاله فهي تميل إلى قومه، إلى قريش، ونلاحظ أنّ العشرة المبشّرين بالجنّة مثلا لا يوجد فيهم أنصاريّ واحد: أبو بكر الصديق عبد الله عتيق بن أبي قحافة عثمان بن عامر التَيْمي القرشي. عمر بن الخطاب بن نُفيل العَدَوِي القرشي. عثمان بن عفان بن أبي العاص الأُمَوِي القرشي. علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي. الزبير بن العوام بن خُوَيْلِد الأَسَدِي القرشي. طلحة بن عبيد الله بن عثمان التَيْمِي القرشي. عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف الزُهْرِي القرشي. سعد بن أبي وقاص بن وُهَيْب الزُهري القرشي. أبو عبيدة بن الجراح عامر بن عبد الله بن الجرّاح الحارثي القرشي. سعيد بن زيد بن عمرو العَدَوِي القرشي.
ألا يوجد أنصاريّ واحد يستحقّ التبشير بالجنّة؟ ولا حتّى سعد بن معاذ الذي اهتزّ له العرش؟
كما أنّه ورغم كثرة أزواج النبيّ من قبائل مختلفة، وحتّى من اليهود، لم يتزوّج امرأة أنصاريّة واحدة. وتوجد فقط امرأة أنصاريّة وهبت نفسها له، لكن الزواج لم يتمّ.
ونرى بوادر هذا الشقاق [أو بالأحرى محاولة انقلاب] في قيام بعض الأنصار ببناء مسجد قرب مسجد قباء، ثمّ أرادوا دعوة أبي عامر الراهب للصلاة بهم، وأبو عامر هذا هو من أعداء النبيّ فقد هرب إلى مكة، فكان يقاتل مع المشركين. فلما فتحت مكة، هرب إلى الطائف، فلما أسلموا هرب إلى الشام. فدفع ميراثه إلى كنانة بن عبد يا ليل الثقفي، وكان ممّن هرب أيضا [461] وكان أبو عامر الراهب نصرانيّا [462] فكيف يبني المسلمون [أو المنافقون] مسجدا ويدعون نصرانيّا ليصلّي بهم؟
الحكاية عن أسباب بناء هذا المسجد [الذي يسمّى مسجد الضرار] هي: **كان سعد بن خيثمة بنى مسجد الضرار، وكان موضعه للبة، تربط فيه حمارها. فقال أهل مسجد الشقاق: أنحن نسجد**

---

[460] المصدر السابق
[461] البلاذري/أنساب الأشراف/ج6/ص122
[462] المصدر السابق

في موضع كان يربط فيه حمار لبة ؟ لا، ولكنا نتخذ مسجداً نصلي فيه حتى يجيئنا أبو عامر فيصلي بنا فيه. [463]

وليس فقط يريدون أن يصلّي بهم أحد أعداء النبيّ [السيرة تسمّيهم عادة: المنافقين] بل وذهبوا إلى النبيّ وطلبوا منه المجيء إليهم جنوب المدينة ليصلّي فيه أيضا [يرى البعض أنّ طلبهم ذاك كان لإضفاء الشرعيّة على مسجدهم، فلا يثور الآخرون عليهم] وقد كان النبيّ يتجهّز للخروج إلى غزوة تبوك، فوعدهم بالصلاة فيه حين يعود من سفره، ولكن وبعد أن ذهب إلى تبوك وفي طريق العودة أرسل بعض أشخاص، منهم وحشيّ، لهدم هذا المسجد وإحراقه [يبدو أنّ الأخبار وصلته عمّا يضمره هؤلاء من بنائهم المسجد] ويرى معروف الرصافي في الشخصيّة المحمّديّة كثرة جواسيس النبيّ المنتشرة في كلّ مكان وتعلمه بالتحرّكات ويرى أنّ النبيّ كان يعلم منذ البداية هذا المخطّط ولكنّه سايرهم لأنّه كان يستعدّ للخروج إلى تبوك ويخشى إن فضحهم أن يفعلوا شيئا بعده، لذلك طمأنهم ولكن حين عاد أمر بهدمه، وتجدر الإشارة إلى أنّ من ضمن الأشخاص الذين قاموا ببنائه معتب بن قشير الذي حارب إلى جانب النبيّ في بدر وأحد [464] وثعلبة بن حاطب حارب مع النبيّ في بدر [465] فهؤلاء من أصحاب النبيّ الذين حاربوا معه منذ بداياته ووقفوا إلى جانبه فإذا بهم ينقلبون عليه، ولهم أسبابهم بعد أن رأوا دخول قريش في الصورة ورغبتها في الحكم وخروج هذا الأمر من أيديهم.

ولا يتوقّف الأمر عند محاولة انقلاب، بل سيتعرّض النبيّ نفسه لمحاولة اغتيال في طريقه إلى تبوك.

---

[463] المصدر السابق

[464] الطبقات الكبرى/ج3/ص463

[465] المصدر السابق

غزوة تبوك

قرّر النبيّ مهاجمة الروم فأعلم الناس وأمرهم بالاستعداد، فتراجع الكثير منهم، وذلك بسبب رهبتهم من مواجهة الجيوش البيزنطيّة، فهم مستعدّون للغزوات الداخليّة التي تهجم على بعض القبائل المتفرّقة أمّا مهاجمة جيش منظّم كبير للروم فهذا ما لا قدرة لهم عليه، واستعظموه، هو ما يجعلنا نرجّح [كما أشرنا آنفا] أنّ غزوة مؤتة وقعت بعد وفاة النبيّ، وأنّ غزوة تبوك هي أوّل غزوة لهم مع الروم. أو بالأحرى أوّل محاولة غزو الروم.

وهذه الغزوة غير مذكورة في المصادر البيزنطيّة، لسبب بسيط، وهو أنّه لم تقع معركة أبدا فالنبيّ وصل إلى هناك ثمّ عاد، ولكنْ الإخباريون أطلقوا العنان لخيالهم، فها هو محمّد يرسل كتابا إلى هرقل يخيّره بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، وها هو هرقل يصيبه الخوف ويحاول إقناع شعبه بالإسلام، الخ... وتحت أيدينا نصّ بالأرمينيّة لسبيوس يعود إلى سنة 660 ميلادي [وهذا الرجل معاصر للأحداث وليس كروايات السيرة المتأخّرة بأكثر من قرن ونصف] يذكر شيئا من هذا القبيل [أي غزوة تبوك] سأعود إليه في هذا الفصل، فقد تتوضّح لنا بعض الرؤية.

إذن خرج النبيّ وأمر عليّ بن أبي طالب بالبقاء في المدينة، فقال البعض من الأنصار: **ما خلفه إلا استثقالا له، وتخففاً منه، فلمَّا قالوا ذلك، أخذ عليّ سلاحه، ثمَّ خرج حتَّى لحق برسول الله وهو نازل بالجُرْف، فأخبره بما قالوا.** [466] [أي بلغتنا المعاصرة، ترك النبيّ عليّا في المدينة ولم يخرجه معه لأنّ دمه ثقيل، فتأثّر عليّ من قولهم ولحق بالنبيّ]

فقال له النبيّ: **كذبوا، ولكني خلَّفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا عليّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبيّ بعدي** [467] وقوله: لا نبيّ بعدي، أظنّها أضيفت إلى الرواية فيما بعد، كقطع الطريق أمام العلويّين فلا يستغلّها البعض لإعلان النبوءة والصراع مع بني أميّة الذين هم في صراع معهم أصلا.

أعتقد أنّ النبيّ ترك عليّا لأنّه كان واعيا بالانشقاقات التي بدأت تحدث في المدينة، ويخشى أن يعود فيجدهم قد انقلبوا عليه، فمن يستطيع خلافة محمّد فيهم حتّى يعود إلاّ شخص من أهله ومطيع له؟ فالرجل المناسب في المكان المناسب هو عليّ ولا أحد غيره.

وبعد أن وصلوا إلى هناك مرّوا بالحِجْر حيث كانت مساكن ثمود [أو يعتقدون أنّها مساكن ثمود لكنّها في الحقيقة مساكن الأنباط] فوضع النبيّ رداءه على وجهه وأخذ يمشي مسرعا ونهى عن الشرب من الماء في ذلك المكان، رغم العطش الشديد، وطلب منهم ألاّ يخرجوا إلاّ اثنين اثنين ولا يخرج رجل وحده [لاحظوا خوف محمّد الحقيقيّ ممّا أصاب ثمود من العذاب كما ذكر القرآن، فهو يعتقد تمام الاعتقاد] وأثناء العودة [بلا حرب] قرّر البعض اغتياله، حيث خطّطوا أن يقتربوا منه ويدفعوه في الوادي ليسقط، وقد تسرّب الخبر إلى النبيّ [ويبدو أنّه لم يكن يعلم من يريد فعل ذلك وإنّما فقط علم بالمؤامرة] فقرّر أن يعبر مع شخصين فقط من طريق ويعبر كلّ الناس من طريق آخر، حتّى يتجاوزوا الطريق الضيّقة ويروي ابن كثير الحادثة : **لمّا قفل**

---

[466] البداية و النهاية/ج5/ص11

[467] المصدر السابق

رسول الله من تبوك إلى المدينة، همَّ جماعة من المنافقين بالفتك به، وأن يطرحوه من رأس عقبة في الطَّريق، فأخبر بخبرهم، فأمر النَّاس بالمسير من الوادي، وصعد هو العقبة، وسلكها معه أولئك النَّفر وقد تلثموا، وأمر رسول الله عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه، عمار آخذ بزمام النَّاقة، وحذيفة يسوقها، فبينما هم يسيرون، إذ سمعوا بالقوم قد غشّوهم، فغضب رسول الله، وأبصر حذيفة غضبه، فرجع إليهم ومعه محجن، فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه، فلمَّا رأوا حذيفة ظنّوا أن قد أظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم، فأسرعوا حتَّى خالطوا النَّاس، وأقبل حذيفة حتَّى أدرك رسول الله فأمرهما، فأسرعا حتَّى قطعوا العقبة، ووقفوا ينتظرون النَّاس. [468] ولكن النبيّ، يريد معرفة من هؤلاء القوم فسأل حذيفة: **هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين، ولكنا قد عرفنا الرّكاب. قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟. قلنا: لا. قال: أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة، فيلقوه منها. قلنا: يا رسول الله أولا تبعث إلى عشائرهم حتَّى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟. قال: لا، أكره أن يتحدَّث العرب بينها أنَّ محمَّداً قاتل لقومه، حتَّى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم** [469]

ابن اسحاق يسمّي هؤلاء الرجال، ولكن الأحاديث الأخرى والروايات تنفي معرفة أسمائهم وأرجّح أنّ النبيّ لم يكن يعلم فعلا من هم، فهو إن كان يكرّر أنّه لن يقوم بقتل أصحابه، فلهذا التسامح حدود حيث أنّهم أرادوا قتله والنبيّ لا يتسامح في هذه الأمور خاصّة أنّها محاربة الله ورسوله.

وتجدر الإشارة إلى أنّ النبيّ تأخّر في إحدى الصباحات لقضاء حاجة فبدأ الناس في الصلاة بإمامة عبد الرحمن بن عوف، وحين وصل إليهم النبيّ دخل في الصفّ وصلّى معهم خلف عبد الرحمن.

نعود الآن إلى تاريخيّة هذه الغزوة:

كنت قد أشرت إلى عدم ذكرها في المصادر البيزنطيّة، ولكن هناك نصّ لسبيوس يستحقّ التوقّف عنده. [470]

فبعد أن يذكر محمّدا ويقول: **كان في ذلك الوقت اسماعيلي اسمه محمد [Mhmt] وكان يعمل تاجراً، قدّم لهم نفسه على أنّه مبشّر وطريقه هو الحقيقة وأنّ الله أمره بذلك، وعلّمهم كيف يعرفون إله ابراهيم، لأنه كان مطلعاً على قصة موسى ومتعمّقا فيها. ولأن الأمر جاء من الأعلى فقد توحّدوا كلهم تحت سلطة وشريعة رجل واحد، وعادوا إلى الإله الحي الذي أوحى لأبيهم ابراهيم، بعد أن هجروا عباداتهم الضالّة. حرّم عليهم محمّد أكل الميتة، شرب الخمر والكذب والزنا.**

و بعد أن يذكر سبيوس اتّحاد اليهود مع العرب [لن أتعرّض لتوضيح كيف اتّحد اليهود مع العرب في هذا البحث حيث سأتناوله في كتابي القادم] ويذكر إرسال رسالة إلى هرقل يطالبونه بالأرض [أي بأرض فلسطين] يقول: **لكنّ الإمبراطور رفض وأجابهم: هذه الأرض هي أرضي**

---

[468] المصدر السابق/ج5/ص24

[469] المصدر السابق

[470] Histoire d'Héraclius/l'Evêque Sebeos/tr: Frédéric Macler/ch. 30/Paris/IN/1894

أمّا إرثك فهو الصحراء، اذهب بسلام إلى أرضك. وحشد هرقل الجيوش, ما يقارب سبعين ألف شخص، وأمرهم بالذهاب إلى العربيّة [أنا أترجم النصّ من الفرنسيّة، والمترجم من الأرمينيّة إلى الفرنسيّة لا يوضّح ماذا يقصد النصّ الأصلي بـ ''العربيّة'' Arabie، وأعتقد أنّه يقصد ''العربيّة السعيدة'' كما كان يسمّى كذلك قديما شمال الجزيرة العربيّة، وتبوك على مشارفها] **وأمرهم الإمبراطور بعدم الدخول في معركة** [مع العرب] **وأن يظلّوا فقط في موقع دفاعيّ حتّى يجمع جيوشا أخرى ويرسلها إلى نجدتهم. وصل البيزنطيون إلى الأردن وعبروا منها إلى العربيّة، فتركوا معسكرهم إلى جانب النهر، وتوجّهوا مشيا على الأقدام إلى جيش العدوّ** [أمّا] **الإسماعيليّون** [أي العرب، نسبة إلى إسماعيل] **وضعوا فريقا من جيشهم في كمائن متفرّقة، ثمّ جعلوا خيامهم تحيط بمعسكرهم، ثمّ جعلوا الإبل خلف الخيام تحيط بها وقد ربطوا سيقانها بحبال، هذه هي الطريقة التي حصّنوا بها معسكرهم. أمّا البيزنطيّون الذين كانوا متعبين من المشي، لم يستطيعوا اختراق المعسكر إلاّ بعد جهد وبدؤوا ينقضّون على الاسماعيليّين، لكنّ الآخرين المختفين في الكمائن، خرجوا فجأة وانقضّوا عليهم، فوقع الرعب في جيش البيزنطيّين فأداروا ظهورهم إلى العرب لكي يهربوا، لكنّهم لم يستطيعوا بسبب الرمال الكثيفة، وكانت أرجلهم تغطس فيها إلى الركبة، بينما لاحقهم الاسماعيليون وسقط كلّ الضبّاط وماتوا. عدد القتلى تجاوز ألفي قتيل** [المحقّق يشير إلى مبالغة في الرقم] **إلاّ من قلّة قليلة استطاعت الهرب.**[471]

هذه المعركة يذكرها سبيوس مباشرة بعد إرسال الرسالة التي تطالب بالأرض، وقبل معركة أخرى يرجّح المحقّق أنّها معركة اليمامة، أمّا هذه المعركة فأرجّح أنّها معركة تبوك، ولكن ليس في عهد النبيّ، بل مباشرة بعد وفاته في عهد أبي بكر، بسبب تشابه الأماكن من ناحية، والأحداث من ناحية ثانية، والتاريخ من ناحية ثالثة، وكما هو ديدننا في المقارنة بين الروايات كما فعلنا في غزوة مؤتة بين نصّ إسلاميّ وآخر غير إسلاميّ فسنقارن أيضا هذه الرواية.

يذكر الواقدي [207 هجري] في فتوح الشام [ج1/ص7] تجهيز أبي بكر، أثناء خلافته، لغزوة تبوك، قائلا: وكان أول من دعاه أبو بكر، يزيد بن أبي سفيان، وعقد له راية وأمّره على ألف فارس من سائر الناس ودعا بعده رجلًا من بني عامر بن لؤي يقال له ربيعة بن عامر وكان فارسًا مشهورًا في الحجاز فعقد له راية وأمّره على ألف فارس ثم أقبل أبو بكر على يزيد بن أبي سفيان وقال له: هذا ربيعة بن عامر من ذوي العلى والمفاخر قد علمت صولته وقد ضممته إليك وأمرتك عليه فاجعله في مقدمتك وشاوره في أمرك ولا تخالفه.

سبيوس:[30 هجري]

ثم اجتمعوا كلّهم من حويلة إلى شور التي تجاه مصر [سفر التكوين 18:25] **لقد خرجوا من صحراء فاران مقسّمين إلى اثني عشر سبطاً وفق سلالات آبائهم. وبين قبائلهم الاثنتي عشرة قسّموا الاثني عشر ألف إسرائيلي، ألفا في كلّ قبيلة** [استعنت بترجمة نبيل فيّاض لهذا المقطع في ترجمته للهاجريّين، ولكن النصّ الفرنسي الذي عندي يقول: ألفافي كلّ قبيلة، وهو المنطقيّ بينما فيّاض يترجم ألف ألف في كلّ قبيلة وأرجّح أنّه خطأ مطبعيّ] **وذلك لهدايتهم إلى أرض**

[471] Ibidem

اسرائيل. وانطلقوا، مخيّماً بعد مخيم، وفق نظام آبائهم: نبايوت، قيدار، أدبئيل، مبسام، مشماع، دومة، مسّا، حدار، تيما، يطور، نافيش وقدمة [سفر التكوين 25: 15-18]. **هؤلاء هم أسباط اسماعيل...**

الأسقف سبيوس هنا يقتبس كثيرا من التوراة ويخلط بينها وبين الأحداث، لذلك بعد تنظيفه ليتسنّى لنا مقارنته يصبح النصّ: **لقد خرجوا من صحراء العرب مقسّمين إلى اثني عشر سبطاً وفق قبائلهم. ألففي كلّ قبيلة، وذلك لهدايتهم إلى أرض فلسطين.**

والواقدي يقول في النصّ أعلاه: **وعقد له راية وأمره على ألف فارس من سائر الناس ودعا بعده رجلًا من بني عامر بن لؤي يقال له ربيعة بن عامر (...) فعقد له راية وأمره على ألف فارس** الخ...

نواصل، يقول الواقدي:

واتصل الخبر للملك هرقل من قوم من عرب اليمن المتنصرة كانوا في المدينة فلما صحّ عند الملك ذلك جمع بطارقته في عسكره (...) جرّد منهم ثمانية آلاف من أشجع فرسانهم وأمر عليهم خمسة من بطارقتهم

يقول سبيوس:

وحشد هرقل الجيوش، ما يقارب سبعين ألف شخص، وأمرهم بالذهاب إلى العربيّة [سبيوس يذكر سبعين ألف، وربّما هناك خطأ في الترجمة أو في المخطوط أي هناك تصحيف في القراءة والصحيح هو سبعة آلاف، خاصّة نفهم من السياق أعلاه [راجع النصّ]أنّ هرقل أمرهم بعدم المهاجمة حتّى يرسل إليهم المدد، فلو كانوا سبعين ألفا ما احتاج لإرسال جيش لنجدتهم.]

الواقدي:

بلغني أنّ أوّل من وصل إلى تبوك كان يزيد بن سفيان وربيعة بن عامر ومن معهما من المسلمين قبل وصول الروم بثلاثة أيام فلما كان في اليوم الرابع والمسلمون قد هموا بالرحيل إلى الشام إذ أقبل جيش الروم فلما رآه المسلمون أخذوا على أنفسهم وكمن ربيعة بأصحابه الألف [أي اختفوا في كمائن] **وأقبل يزيد بأصحابه الألف ووعظهم وذكر الله تعالى.**

سبيوس:

[أمّا] **الاسماعيليّون فقد وضعوا فريقا من جيشهم في كمائن متفرّقة**

الواقدي:

ودار القتال بينهم وتكاثرت الروم عليهم وظنوا أنهم في قبضتهم إذ خرج عليهم ربيعة بن عامر رضي الله عنه بالكمين (...) وحملوا على الروم حملة صادقة

سبيوس:

أمّا البيزنطيّون الذين كانوا متعبين من المشي، لم يستطيعوا اختراق المعسكر إلاّ بعد جهد وبدؤوا ينقضّون على الاسماعيليّين، لكنّ الآخرين المختفين في الكمائن، خرجوا فجأة وانقضّوا عليهم

الواقدي:

فلما عاينت الروم من خرج عليهم انكسروا وألقى الله الرعب في قلوبهم فتقهقروا إلى ورائهم

سبيوس:

فوقع الرعب في جيش البيزنطيّين فأداروا ظهورهم للعرب لكي يهربوا، لكنّهم لم يستطيعوا بسبب الرمال الكثيفة، وكانت أرجلهم تغطس فيها إلى الركبة.

الواقدي:

وهزمهم الله تعالى على أيدينا وكان جملة من قتل منهم ألفًا ومائتين ومن قتل من المسلمين مائة وعشرين رجلًا.

سبيوس:

بينما لاحقهم الاسماعيليون وسقط كلّ الضبّاط وماتوا، عدد القتلى تجاوز ألفي قتيل إلاّ من قلّة قليلة استطاعت الهرب.

لقد توسّعت قليلا في هذه المعركة، كما توسّعت قبلها في معركة مؤتة، حيث وكما أشرت نستطيع تحديد بعض الوقائع استنادا على تنوّع النصوص خاصّة إذا كانت من مصادر مختلفة.
و نلاحظ أنّ الغزوتين [في السيرة] تمّ تقديمهما بسنتين ونصف تقريبا عن تاريخهما الذي نرجّحه وهو أنّ مؤتة حدثت أثناء وفاة النبيّ وتبوك بعد وفاته وقسمها الإخباريّون إلى مرّتين وربّما بسبب بعُد العهد عن الأحداث واختلاط الروايات الشفويّة بعضها ببعض فتداخلت بعض الأحداث التي في آخر حياة النبيّ مع الأحداث التي في بداية خلافة أبي بكر، ونلاحظ أنّ الأحداث نفسها تتكرّر مع أبي بكر، فأهمّ الأحداث التي حدثت بين فتح مكّة و وفاة النبيّ هي:
1- عام الوفود، حيث جاءت العديد من القبائل إلى النبيّ تعلن إسلامها، ونقابله بعام الوفود في خلافة أبي بكر حيث جاءت القبائل تعرض إسلامها للمشاركة في الجهاد.
2- غزوة تبوك، في حياة النبيّ، ونقابلها مع غزوة تبوك في خلافة أبي بكر.
3- حجّة الوداع سنة عشر للهجرة ونقابلها بحجّ أبي بكر بعد غزوة تبوك سنة تسع للهجرة ربّما لتقارب الأحداث تمّ خلط الروايات من دون قصد.
فالثلاث سنوات الأخيرة من عمر محمّد يشوبها بعض الغموض وتتشابه مع خلافة أبي بكر، وربّما لم يعش محمّد إلاّ سبع سنوات بعد الهجرة وليس عشرا، خاصّة إذا عدنا إلى بعض المخطوطات السريانيّة التي تشير إلى أنّ حكم النبيّ كان سبع سنوات: [472]
1-تاريخ زقنون (مكتوب قبل سنة 140هجري) [473]
2-تاريخ يعقوب الأديسي (مكتوب قبل 75 هجري) [474]
3-تاريخ قصير (الكاتب مجهول، مكتوب قبل 80 هجري) [475]

[472] Hoyland/Seeing/p395
[473] Ibidem/p409
[474] Ibidem/p160
[475] Ibidem/p393

ولنأخذ مثلا هذا التاريخ القصير، وجاء فيه:

محمّد (مهمت) جاء إلى الأرض سنة 932 لإسكندر بن فيليبس المقدوني (620-621 ميلادي) **وحكم سبع سنوات.**

ثمّ حكم أبو بكر لمدّة سنتين.

ثمّ حكم عمر لمدّة اثنتي عشرة سنة.

ثمّ حكم عثمان لمدّة اثنتي عشرة سنة، وظلّت العرب طوال معركة صفّين (صافا) **بلا أمير لمدّة خمس سنوات ونصف.**

ثمّ حكم معاوية لمدّة عشرين سنة.

ثمّ حكم يزيد (إيزيد) **بن معاوية لمدّة ثلاث سنوات ونصف.**

[ومكتوب في هامش المخطوط: بعد يزيد ظلّت العرب لمدّة سنة بلا أمير]

ثمّ بعدهم حكم عبد الملك لمدّة واحد وعشرين سنة.

ثمّ تسلّم الحكم ابنه الوليد بداية من شهر تشرين للسنة العالميّة 1017 (يوافق شهر أكتوبر 705 ميلادي) [476]

نلاحظ أنّ مدّة خلافة عمر هنا هي اثنتي عشرة سنة والسيرة تشير فقط إلى عشر سنوات.

إذن وللتلخيص فالمخطوطات السريانيّة الثلاث المكتوبة قبل تدوين السيرة تشير إلى أنّ محمّدا لم يحكم إلاّ سبع سنوات، فيكون قد توفّي عن سنّ ستّين سنة - إن صحّ تاريخ مولده - وقد وصلنا هذا الأمر أيضا في الروايات الإسلاميّة:

أخبرنا أنس بن عياض أبو ضمرة الليثي، حدثني ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه سمع أنس بن مالك وهو يقول: توفي رسول الله، وهو ابن ستين سنة.[477]

أخبرنا عبد الله بن عمر وأبو معمر المنقري، أخبرنا عبد الوارث بن سعيد، أخبرنا أبو غالب الباهلي أنه شهد العلاء بن زياد العدوي يسأل أنس بن مالك قال: يا أبا حمزة سن أي الرجال كان رسول الله، يوم توفي؟ قال: تمت له ستون سنة يوم قبضه الله. [478]

أخبرنا الأسود بن عامر والحجاج بن المنهال قالا: أخبرنا حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن عروة قال: بعث النبي، وهو ابن أربعين سنة ومات وهو ابن ستين سنة. [479]

لكن الرواية الرسميّة اختارتْ أن تكون وفاة النبيّ في سنّ 63 سنة، كما اختارتْ أن يكون تاريخ ولادته عام الفيل. لكن تظلّ هذه التواريخ، من الجانبين، الإسلامي والأجنبي، تقريبيّة وغير دقيقة

---

[476] Ibidem/p394

[477] ابن سعد/الطبقات/ج2/ص301

[478] المصدر السابق

[479] المصدر السابق

الوفاة

وبدأ صداع الرأس الذي كان يصيب النبيّ من قبل يشتدّ في الآونة الأخيرة، تقول عائشة: **فمرَّ بي فقال: يا عائشة ما شأنك؟ فقلت: أشتكي رأسي. فقال: أنا وارأساه.**[أي أنا الذي أشكو من الألم أكثر منك] **فذهب فلم يلبث إلا يسيراً حتَّى جيء به محمولاً في كساء، فدخل عليَّ وبعث إلى النساء فقال: إني قد اشتكيت، وإني لا أستطيع أن أدور بينكن، فأذنَّ لي فلأكن عند عائشة، فكنت أمرضه ولم أمرِّض أحداً قبله.** [480] وازدادت الحمّى عليه وأخذت تصيبه أحيانا فترات يفقد فيها الوعي، وتوقّف جيش أسامة الذي كان متّجها إلى غزوة مؤتة بسبب مرض النبيّ، فأصرّ محمّد على خروجه قائلا: **أنفذوا جيش أسامة**. و دام المرض تقريبا ستّة أيّام وفي آخر يوم بدأ يهذي، فمرّة يعتقد أنّ اليهود هم الذين وضعوا له السمّ ويتذكّر قصّة الشاة المسمومة التي مرّ عليها أربع سنوات، ومرّة يأمر بأن يكتب لهم كتابا لا يضلّون بعده، حتّى قال البعض إنّ رسول الله يهجر[481] [أي يهذي] وفقد النطق أحيانا فكان يتمتم بشفتيه وعيناه شاخصتان، يقول أحد الحاضرين وهو محمد بن أسامة بن زيد: **لمّا ثقل رسول الله هبطت وهبط النَّاس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله وقد أصمتَ فلا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء، ثمَّ يصيبها على وجهه، أعرف أنَّه يدعو لي.**[482] وتقول عائشة: **فبينما رأسه ذات يوم على منكبي إذ مال رأسه نحو رأسي، فظننت أنه يريد من رأسي حاجة، فخرجت من فِيه** [أي من فمه] **نقطة باردة، فوقعت على نقرة نحري فاقشعر لها جلدي، فظننت أنه غشي عليه، فسجيته ثوباً، فجاء عمر والمغيرة بن شعبة فاستأذنا، فأذنت لهما، وجذبت إليَّ الحجاب، فنظر عمر إليه فقال: واغشياه، ما أشدَّ غشي رسول الله ثم قاما فلما دنوا من الباب قال المغيرة: يا عمر مات رسول الله** [483]

يقال أنّ الإنسان حين يحتضر يمرّ أمام عينيه شريط حياته، وسنترك العنان لخيالنا قليلا، فها هو رأس النبيّ في حجر عائشة وعيناه شاخصتان، وتمرّ المشاهد أمام عينيه: يلعب في أزقّة مكّة وهو طفل مع أقرانه، يساعد أعمامه في بناء الكعبة وهو شابّ، ها هو جالس مع خديجة وورقة بن نوفل يكتب عقد الزواج، ها هو في غراء حراء والسكون يحيط كلّ شيء حوله، وفجأة يخترق الصمت صوت قلب مجرى حياته رأسا على عقب، ها هو ابنه القاسم الرضيع يموت بعد فترة قليلة من ولادته و يبكيه بحرقة.

يفقد النبيّ الوعي في حجر عائشة، ثمّ يستفيق مرّة أخرى وتتواصل المشاهد: أهل مكّة يسخرون منه ومن إلهه الرحمن، ها هو يذهب إلى الطائف فيطردونه، وها هو يطوف على القبائل أثناء الحجّ يطلب مساندتهم فيرفضون، ها هو في المدينة وأصحابه يتضوّرون جوعا فيبدأ في غزو القوافل، ها هو يسقط أثناء معركة أحد في حفرة صنعها أبو عامر الراهب، تمرّ حروبه أمام عينيه بانتصاراتها وهزائمها، بأفراحها وأحزانها، ها هو جالس مع أصحابه يتابع عقاب بني قريظة، ها هو يدخل مكّة منتصرا فيحني رأسه على ناقته تواضعا لله، ها هي القبائل العربيّة

---

[480] البداية و النهاية/ج5/ص262
[481] صحيح البخاري/الحميدي/الجمع بين الصحيحين/ج2/ص8
[482] البداية و النهاية/ج5/ص262
[483] المصدر السابق

صارت أغلبها تحت إمرته، إمرة رجل واحد، وها هو الآن في حجر عائشة والحمّى تشتدّ عليه فأخذ يقول: **الصلاة وما ملكت أيمانكم، الصلاة وما ملكت أيمانكم، حتّى جعل رسول الله يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه**. [484]
وتوفّي محمّد.
فصرخت عائشة وأخذت تلطم وجهها وصدرها حيث تروي قائلة: قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألدم مع النساء وأضرب وجهي. [485]
وانتشر الخبر في المدينة كالنار في الهشيم، وانقسمت المدينة، فها هي الأنصار تطالب ببيعة سعد بن عبادة، وها هو عليّ بن أبي طالب يطالب بالبيعة له، وها هم أبو بكر وعمر وعبيدة يطالبون بأن تكون لهم. وانطلق الخبر إلى مكّة، وأبو سفيان يطالب بالبيعة لعليّ، **فلمّا اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول: إني لأرى عجاجةً لا يطفئها إلا دم، يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان عليّ والعباس؟ ما بال هذا الأمر في أقل حيّ من قريش؟** [يقصد أبا بكر الصدّيق الذي من بني مرّة] **ثم قال لعليّ: ابسط يدك أبايعكم، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً. فرفض عليّ** [486] [هل حقّا رفض؟] وعليّ وأصحابه رفضوا أن يبايعوا أبا بكر [لم يبايع عليّ إلاّ بعد ستّة شهور] وكادت تحدث معركة حيث أتى عمر بن الخطاب منزل عليّ وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال : **والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة . فخرج عليه الزبير مصلتاً بالسيف ، فعثر فسقط السيف من يده ، فوثبوا عليه فأخذوه** [487] ولم يُدفن النبيّ إلاّ بعد يوم وليلة حتّى انتفخ بطنه وانثنى إصبعه [488]

وستبدأ ملحمة أخرى، حرب أهليّة تدوم لسنوات، وحرب عالميّة (بمقاييس ذلك العصر) تدوم لسنوات، وسيصبح العرب إمبراطورية عظمى من حدود الهند شرقا إلى حدود فرنسا غربا.

الأرض:

لأوّل مرّة في تاريخ الجزيرة العربيّة التي تمتدّ تقريبا على ثلاثة ملايين كيلومتر مربّع، تتوحّد العرب تحت حكم رجل واحد وقيادة واحدة. لكن لم يحدث التوحيد الحقيقيّ إلاّ في عهد أبي بكر ومن بعده (مع اضطرابات) فمحمّد وضع البذرة، وجني ثمارها من خلفه.

الحصيلة الإنسانية:

قام حميد الله [489] بجمع معارك النبيّ من سيرة بن هشام [لم يضف حنين والطائف وبعض الغزوات الأخرى، وسنضيفها] وخلص إلى أنّ عدد القتلى في عشر سنوات [المدّة التي دامت فيها حروب محمّد] كانت:

---

[484] المصدر السابق
[485] المصدر السابق
[486] ابن الأثير/الكامل في التاريخ/ج2/ص188
[487] الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ج4/ص228
[488] ابن سعد/الطبقات/ج2/ص274
[489] معارك الرسول/حميد الله/ص 25 و ما بعدها

- 350 شخصا من المشركين.
-800 شخصا من اليهود.
-250 شخصا من المسلمين.
هذه الأرقام تقريبيّة.

التنظيم العسكري:

كانت غزوات النبيّ منظّمة نسبيّا، حيث يستعملون ‘‘شعارا‘‘ أثناء المعركة لمعرفة بعضهم بعضا، وهناك ‘‘رسل الموقعة‘‘ الذين يتحرّكون بين القيادة والضبّاط لإعلامهم بالأوامر وسير المعركة، لكنّ هذا التنظيم صار أكثر دقّة مع أبي بكر وعمر ومن بعدهما، والصلاة تعكس نوعا ما النظام العسكريّ من حيث تراصّ الصفوف في خطّ مستقيم دون أن يكون هناك فجوات أو خلل في الترتيب، فمحمّد وضع بذرة عسكريّة صارمة ما كانت تستطيع إسقاط إمبراطوريتين كبيرتين كالروم والفرس [حتّى وإن كانتا منهكتين بالحروب] إن لم تكن منظّمة و ناجحة.
ونرى الواقدي مثلا (وهو رجل حرب) يصف جيش عمرو بن العاص والدقّة في النظام متباهيا:
ثم إنه جعل يصفهم ويعبّيهم تعبية الحرب ونظر ‘‘روبيس‘‘ بطريك الروم إلى عسكر المسلمين وقد صفهم عمرو بن العاص لا يخرج سنان عن سنان ولا عنان عن عنان ولا ركاب عن ركاب وهم كأنهم بنيان مرصوص وهم يقرؤون القرآن. والنور يلمع من نواصي خيولهم فشمّ منهم رائحة النصر. [490]

[490] الواقدي/فتوح الشام/ج1/ص19

الخاتمة

هذه هي السيرة أو الملحمة المحمّدية التي نقلها لنا الإخباريّون، وإذ حاولنا في هذا البحث أن نتوخّى سبيل المنطق ونوازن بين المعطيات والمعلومات ونغربل الخبر ونخلّصه من شوائب الزيادات والإضافات الأسطوريّة والدينيّة، فإنّنا لا ندّعي معرفة حقيقة ما حدث فعلا في بدايات القرن السابع ميلادي ولا نتباهى بفرضيّاتنا التي افترضنا ولا بأطروحاتنا التي طرحنا ونعتبرها فقط إضافة متواضعة إلى القراءات التاريخيّة الأخرى المتعدّدة للسيرة النبويّة.
وهناك سؤال لا مناص لنا من مواجهته ولا من طرحه إن توخّينا البحث العلميّ الجادّ والرصين وهذا السؤال هو: ما مدى صحّة ما نقله الإخباريون إلينا حتّى وإن زعمنا الغربلة والمنطَقة؟ ولا أقصد بالصحّة أن نعود إلى رجال الجرح والتعديل فغربلتهم ليست علميّة بل دينيّة بالأساس ولا أقصد بالصحّة أيضا صحيح البخاري ومسلم فهما لم يكونا معاينين للأحداث رغم محاولتهما فرز الروايات ووضع شروط دقيقة في التنقية كما أنّ صحيحيهما يحفلان بالتناقضات والأساطير و الخلفيّات السياسيّة وفي البحث العلمي التاريخيّ يتساوى الصحيح والضعيف والفيصل بينهما هو الأدلّة الأركيولوجيّة والمنطقيّة والتاريخيّة المقارنة وإن كنّا اعتمدنا في بحثنا هذا على الصحيح المعترف به حتّى لا يحاججنا أحد فيما بعد ولكن سنتناول الأمر الآن من وجهة نظر علميّة.
ما صحّة ما نقله إلينا الإخباريّون؟ هذا السؤال لا زال يقضّ مضاجع الباحثين فهم بين مؤيّد وبين معارض، بين من ينفيها إطلاقا ولا يعتمد السيرة والأحاديث مصدرا موثوقا لقراءة تاريخ بدايات الإسلام، وفريق ثان يتعامل معها بشكّ ولكن لا ينفيها، وفريق ثالث يحاول القيام بحفريّات كتابيّة فيها بغربلتها والتوفيق بينها وبين المعطيات العلميّة الأخرى كالأركيولوجيا والعملة والمصادر الخارجيّة وغير ذلك. ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ منهجي في أواخر هذا البحث يدخل في باب الفريق الثالث.

وذلك لسببين:
1- الاعتماد على المعلومات الخارجيّة وحدها أو النقوش أو غيرها قد يصنع لنا بدايات إسلام آخر قد يكون بعيدا عن الحقيقة. وقد يذهب بنا بعيدا في الفرضيّات والنظريّات. كما أنّ الأماكن التي ينبغي استنطاق تربتها، وقراءة أحجارها، وتشمّم روائح تاريخها، ليست في متناول الباحث أو على أكثر تقدير لا يتعامل معها الباحث بحرّيّة حيث تكون تحت سلطة المراقبة والغربلة ونرجّح وكما رأينا في هذا البحث أنّ هذه الأماكن هي: مكّة والمدينة بطبيعة الحال، ولكن وبسبب قدسيّتهما فلنا عوض عنهما، ورضى بأماكن أخرى وهي: الطائف واليمامة وحصون بني قريظة وخيبر. فكيف نستطيع بناء فرضيّات متينة على أركيولوجيا خارج هذه المناطق؟
لا ننكر أنّ الاكتشافات في المناطق الأخرى وجيهة وقيّمة، ولكنّها تؤانسنا في البحث ولا تفرض علينا توجّها بعينه نختاره دون توجّه آخر.
2- الإخباريون الأوائل لم يتدخّلوا كثيرا في الغربلة وإنّما كان هذا حين دعت الحاجة إليه فيما بعد، فنرى الواقدي مثلا يقول في بداية كتابه وبداية كلّ غزوة: هذا ما حدّثني به فلان وفلان وفلان، وكان بعضهم يعرف أكثر من بعض، وأرويها لكم جميعها. هكذا كان منهج الإخباريين

إعطاء كلّ المعلومات المتوفّرة في عصرهم بلا تمحيص أو تدقيق إلاّ نادرا، وهو العمل الذي قام به من بعدهم كما أشرت لكنّ اعتمادا على النظرة الدينيّة وليس التاريخيّة.
ورغم ذلك ما نسبة الشكّ في هذه الروايات؟
الشكّ سيظلّ موجودا بنسب متفاوتة فإن كنّا لا نطمئنّ لروايات الإخباريّين بسبب بعدها الزمنيّ ومرورها عبر قناة شفويّة لأكثر من قرن، فلا شيء يجعلنا نطمئنّ أيضا لو أنّه كان للرسول كاتب يعيش معه ويكتب سيرته أوّلا بأوّل فما أدرانا أنّ الذي كتبه صحيح؟ ودوافع التزوير والتدليس عديدة فيما يتعلّق بالشخصيّات، قد تكون لأسباب دينيّة وتقديم شخصيّة مغايرة للواقع لتقرأها الأجيال القادمة، وقد تكون سياسيّة عصبيّة وقد تكون حتّى عاطفيّة وهي أنّ المؤرّخ يحبّ تلك الشخصيّة فيطلق العنان لخياله ولنا مثلا في رومانس الاسكندر لـ pseudo-callisthene خير دليل.
وبمناسبة ذكر الاسكندر المقدوني، هو شخصيّة تاريخيّة معروفة ولكن متى كُتبت سيرته؟
سيرة الاسكندر كتبها Quintus Curtius Rufus في القرن الأوّل ميلادي اعتمادا على مخطوط كتبه Clitarque [ولكن لم يعتمد عليه وحده وإنّما نوّع مصادره] الذي كان معاصرا للاسكندر وهذا الأخير اعتمد في التأريخ على سؤال الرحّالة والتجّار والعمّال والجنود العائدين فكانت حافلة بالأساطير والروايات الشعبيّة ولم تصلنا من هذا المخطوط سوى بعض النتف التي لا تتحدّث عن الاسكندر والباحثون ينفون تاريخيّة ما كتبه Clitarque ويعتمدون على Curtius Rufus وديودورس الصقلّي و Plutarque و Arrien و Justin وكلّهم بعد الميلاد [491] وقد تأسطرت قصّة الاسكندر وانتشرت في الشرق والغرب وانتقلت إلى السريانيّة عبر يعقوب السروجي في أشعاره والتي يبدو أنّها كانت المصدر القرآنيّ فيما بعد [492] خاصّة أنّ ترتيب قصّة أهل الكهف [493] وقصّة الاسكندر عند يعقوب السروجي هو نفسه الترتيب الموجود في القرآن أيضا.
قلنا إذن قصّة الاسكندر مكتوبة بقرون بعد وفاته [و 90% من المعلومات وصلتنا عبرها] فهل هذا كاف للتشكيك الكامل في صحّتها؟ ولنتطرّف أكثر ونعطي مثالا عن الزرادشتية، وهي الديانة التي ألّفها زرادشت في حدود القرن السابع والسادس قبل الميلاد، لكن الكتاب المقدّس للزرادشتيّة تمّت كتابته في القرن السابع ميلادي تقريبا [494] أي بعد ألف سنة من زرادشت [توجد شكوك حول تاريخيّة هذه الشخصيّة و لكن تُطرح كافتراض و ليس كمبدأ]
لماذا حين يتعلّق الأمر بمحمّد تصبح هذه الفرضيّة حقيقة مسلّمة لا جدال فيها؟ وإذ أقول هذا فليس لأنّي أؤمن بصحّتها - بل بالعكس فأنا مع المشكّكين - وإنّما لا أميل إلى التطرّف المنهجي والانتقائيّة في وضع الفرضيّات من طرف بعض المستشرقين إلاّ إذا كان هناك ما يُسندها بناءً وتحليلا، فمحمّد مذكور في عهد عبد الملك بن مروان ولكن ليس قبل هذا، إذن فالنتيجة هي أنّ محمّدا لم يوجد وهو أسطورة [كإحدى أطروحات برنارد روكان مثلا أو Klimovitch أو

[491] Sciences et avenir/ Sur les traces d'Alexandre/12-2009/p54
[492] François Jourdan/ la tradition de sept dormants/Maisonneuve/1983/p108 et passim
[493] Pseudo-Callisthène/tr. Gilles Bounoure et Blandine Serret/Les Belles Lettres/Paris/2004
[494] Sur les traces d'Alexandre/p61

Morozov] أو أنّ مكّة لم توجد كأطروحات كرون. وهذا -حسب رأيي- تطرّف في الحكم فالأسطورة نفسها لا تنشأ من عدم وإنّما لها دائما جذور في الواقع وهناك الأسطورولجيا وهو علم الأسطورة حيث يقوم بتعريتها ومسح الغبار عنها للوصول إلى حقيقة المعلومة المختفية خلفها.

التاريخ ظنّيّ وليس يقينيّا، فالصورة والصوت والتسجيل موجودون في عصرنا فقط، وكلّما عدنا إلى الوراء كلّما بدأت الصعوبات، فلا يوجد دليل علميّ على وجود سقراط مثلا لكنّنا نعتقد بوجوده، أقول هذا رغم إدراكي بأنّ الأمر يختلف في الدي ن، فوجود أو عدم وجود سقراط لن يغيّر شيئا والمهمّ هو النصّ المنسوب إليه، بينما بالنسبة إلى الدين فوجود أو عدم وجود النبيّ له دور محوريّ لأتباعه.

التاريخ هو مكعّب، وحياة محمّد تاريخ فهي مكعّب ودائما نرى الواجهة التي ننظر إليها، وقد يأتي شخص آخر وينظر من واجهة أخرى بمعطيات أخرى، وهكذا دواليك، ولكنّنا - بسبب الطموح والحماس ربّما - نريد أن نرى المكعّب من جميع جهاته بلا استثناء، و ذا للأسف صعب جدّا -حاليّا- إن لم أقل مستحيل.

وإذ أقول بأنّ التاريخ ظنّيّ فهذا ينطبق على حياة محمّد وعلى القرآن ومن كتبه ومن جمعه، فلا يأتي أحدهم ويرفض الرواية التي تتحدّث عن زواج النبيّ من عائشة ذات التسع سنين، ثمّ يعتبر القرآن موثوقا تاريخيّا، فهذه انتقائيّة، لأنّ النصّ القرآني هو أيضا نصّ تاريخيّ . أو كالقرآنيّين الذين لا يؤمنون بالسنّة ولكن يؤمنون بالقرآن بحجّة أنّ السنّة ظنّيّة، بيد أ نّ القرآن أيضا ظنّيّ لأنّه وصلنا من القناة نفسها التي وصلت منها السنّة، وحجّتهم الوحيدة في رفض هذا والقبول بذاك هي الإيمان، وليس المنطق ولا العلم.

وهناك سبب ثالث مهمّ يجعلني لا أنفي كلّ روايات السيرة ويجعلني أعتبرها بانوراما فيها حقائق تاريخيّة وفيها إضافات وزيادات، وتحتاج إلى القراءة المنطقيّة [كما حاولتُ فعله في هذا البحث وكما فعل من قبلي المعتزلة ولكن في إطار دينيّ] وهذا السبب هو روايات الإخباريّين عن جمع القرآن.

ملحق رقم 1 (القرآن)

من حسن حظّنا أن وصلنا كتاب الفهرست لابن النديم.
ابن النديم: أبو الفرج محمد بن اسحق بن محمد اسحق النديم ، الوفاة: حوالي عام 395 هجري.
ألّف كتابا يسمّى "الفهرست" ويقال هو أوّل من أدخل لفظ "فهرس" إلى العربيّة نقلا عن الفارسيّة. وأهمّيّة الكتاب تكمن في أنّه ذكر لنا كلّ الكتب التي كانت قبله والتي لم يصلنا أغلبها فقد كان عمله توثيقيّا بحتا ويساعد الدارس في التاريخ على معرفة أصحاب الكتب وكذلك عناوينها. ويقال كان يعمل ورّاقا لذلك كتب عن الكتب التي كانت تحت يديه.
يذكر في الفهرست، باب، الكتب المؤلّفة في اختلاف المصاحف:
كتاب اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة عن الكسائيّ (189 هجري)
كتاب اختلاف المصاحف لخلف بن هشام (229 هجري)
كتاب اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف للفراء البغدادي (207 هجري)
كتاب اختلاف المصاحف لابن أبي داود (316 هجري)
كتاب اختلاف المصاحف وجامع القراءات للمدائني (231 هجري)
كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق لابن عامر اليحصبي (118 هجري)
كتاب محمّد الاصبهاني في اختلاف المصاحف والهجاء (253 هجري)
لم تصلنا هذه الكتب إلاّ كتاب واحد - لحسن الحظّ - وهو كتاب ابن أبي داود السجستاني بعنوان ‘‘اختلاف المصاحف‘‘
هذا الكتاب يتحدّث عن المصاحف التي كانت موجودة في بدايات الإسلام وأحرقها -على حسب الرواية المعروفة- عثمان بن عفّان، ومثلا يقول:
مصحف الصحابيّ عبد الله بن مسعود، جاء فيه: سورة 19/3
في مصحفه:" **إنّ الدين عند الله الحنيفيّة"**
والمصحف الحاليّ:‘‘**إنّ الدين عند الله الإسلام"**
سورة 22/39
في مصحفه:"**إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا و تخلقون إفكا إنّما مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ"**
والمصحف الحاليّ:"**إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ "**
و يعطي العشرات من الأمثلة من مصحف ابن مسعود والصحابة الآخرين. فهو كتاب مختصّ في هذه الاختلافات.
هذا الكتاب يعكس الأخبار التي تحدّثت بدورها - متفرّقة- عن المصاحف المختلفة، فهذا ليس قراءة في حرف أو مدّ كما في القراءات العشر، بل هذا بناء آخر للجملة ومعنى مختلف حيث توجد آيات بالعكس تماما، كمصحف بن مسعود :[دائما اعتمادا على السجستاني]

سورة 117/9

مصحف عبد الله بن مسعود:**"من بعد ما زاغت قلوب طائفة"**

المصحف الحاليّ:**من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق.."**

زاغت أم لم تزغ؟

سورة 158/2

مصحف عبد الله بن عبّاس:‘‘**مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لا يَطَّوَّفَ بِهِمَا** ‘‘

المصحف الحاليّ:‘‘**فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**‘‘

من غير المعقول أن تصلنا هكذا أخبار تمسّ القرآن الذي هو أساس الإسلام وأنّه أنزل حرفيّا على النبيّ كما يزعمون، ولكن الذي لاحظته هو أنّ الأخبار جميعها تدور وتدوّن وأهل الحلّ والعقد يقومون بالتضعيف أو التحسين أو صناعة المعلومة المعارضة والتي تكون هي المرجع بدل الأخريات، ليس لأنّها صحيحة في ذاتها بل لأنّها توافق الرؤية الدينيّة الرسميّة، و سأعطي مثلا من البخاري لاحقا عن كيفيّة صنع هذه المعلومات التي تتماشى مع التوجّه الديني وكيفيّة جعلها صحيحة بالإسناد الصحيح. كذلك السيرة فالأخبار جميعها تدوّن، والأهمّ، من طرق مختلفة فلا تمرّ عن طريق الزهريّ فقط مثلا بل عن طريق ثان وثالث ورابع وقد كنت أشرتُ في بدايات البحث إلى أنّنا لا يهمّنا الصحيح ولا الضعيف [رغم أنّنا اعتمدنا في بحثنا على الصحيح فهو يكفينا لنتجنّب مجادلات لا طائل منها]

ليس أمام المسلم إلاّ أن يطعن في هذه الأخبار حول اختلاف المصاحف أو يلجأ إلى التأويل بوصفها أخطاء منهم أو أنّها مجرّد اختلاف في الرسم و أنّ مصحف عثمان هو الذي نزل على النبيّ. ورغم أنّ هذه الرؤية الدغمائيّة لم تكن كما هي الآن كما ذكر السيوطي والطبري وسنذكر هذا لاحقا. فإنّنا نؤيّد كلام ابن أبي داود وندعّمه بمرجعين متينين عن اختلاف المصاحف وقصّة جمع القرآن.

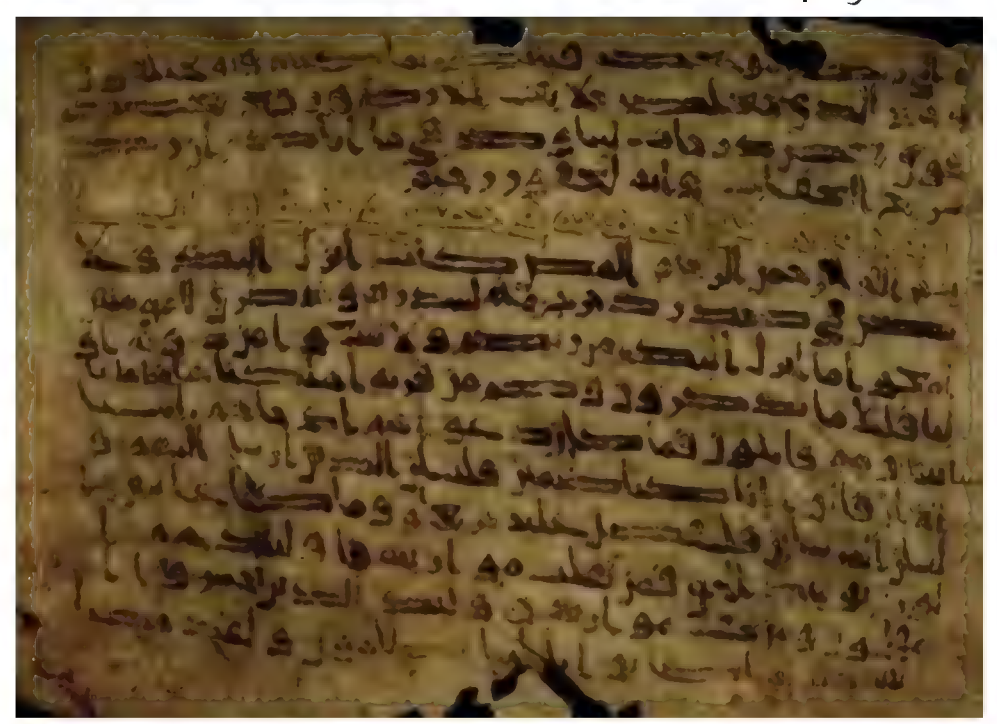
تمّ اكتشاف بعض المخطوطات - متفاوتة الجودة إمّا نتفا أو ورقات- في صنعاء في السبعينيّات فاتّصل رئيس الآثار بالدكتور Puin المستشرق الألماني كي يأتي ويقوم بدراستها، وأخذ المستشرق آلاف الصور لها Microfilms ولكن يبدو أنّ اليمن انتبهت إلى قيمة هذا الاكتشاف [خوفا من وجود مصاحف غير موافقة للمصحف الحاليّ] فقامت بمنع مواصلة التحقيق غير أنّ الدكتور استطاع العودة إلى ألمانيا و بحوزته الأفلام التي استطاع تصويرها.

هذه المخطوطات القرآنيّة هي أقدم ما تمّ اكتشافه إلى حدّ الآن وتتوزّع بين القرن الأوّل والثالث هجري. وما يلفت الانتباه هو وجود نصّ قرآنيّ ممسوح تحت النصّ القرآنيّ المكتوب، ممّا يشير إلى أنّ النصّ تمّ محوه وإعادة كتابته مرّة أخرى، وهذا ينطبق على آلاف النتف الموجودة. استطاع هذا المستشرق قراءة بعض النصوص الممسوحة باستعمال تقنية أشعّة ultra-violet فيشير إلى إحدى الآيات: [495]

[495] The Hidden Origins of Islam/K.H.Ohlig and G.Puin/Prometheus Books/USA/2010/p319

[لا تقر]بوا النساء في محيضهنّ حتى يتطهّرن
و القرآن الحاليّ هو التالي:
فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهنّ حتى يطهرن
فما هي هذه الآية؟ هذه الآية في مصحف أنس بن مالك: مع إضافة كلمة "واعتزلوهنّ": [ربّما قراءة لصحابيّ آخر] إذ ذكر القرطبي في تفسيره:"وَفِي مُصْحَف أَنَس بْن مَالِك : وَلَا تَقْرَبُوا النِّسَاء فِي مَحِيضهنَّ وَاعْتَزِلُوهُنَّ حَتَّى يَتَطَهَّرْنَ [496] هذا دليل أثريّ أوّل عن صحّة الأخبار التي وردتنا عن اختلاف المصاحف، فالخبر يوافق الاكتشاف.

ثانيا:
نشرت اليونسكو [497] في موقعها بعض هذه المخطوطات من صنعاء، ومن إحدى هذه النتف نجد هذه المخطوطة:



سورة الأعراف في هذا المخطوط تتكوّن من 165 آية، وفي مصحفنا الحاليّ تتكوّن من 206 آية، أي هناك فرق بـ 41 آية.
هذا دليل أثريّ ثان.

ثالثا، محاورة بالسريانيّة بين راهب مسيحي وشخص مسلم، تعود إلى نهايات القرن الأوّل هجري، فيها اسم محمّد، مرّة يقول الراهب "القرآن" ومرّة يقول "كتبكم" وعلى كلّ حال فما يهمّنا هنا هو التالي إذ يتساءل المسلم كيف تعبدون الصليب والحال أنّ يسوع لم يكتب هذا في

[496] تفسير القرطبي/سورة البقرة/222

[497] portal.unesco.org

الإنجيل؟ فيجيب الراهب: أعتقد أنّ هذا ينطبق عليكم أيضا، فلا توجد كلّ شرائعكم في القرآن الذي علّمكم محمّد. ألا ترى أنّه علّمكم بعضا من الشرائع في القرآن، وأخرى في كتاب البقرة، وأخرى في.... [بقيت كلمتان غير قابلتين للقراءة وممسوحتان للأسف] [498] ونفهم من هذا النصّ أنّ القرآن لم يقع تجميعه بعد في شكله الحاليّ وكان هناك تفريق بينه وبين سورة البقرة والتي فعلا فيها بعض الشرائع والقوانين، وهنا ينتفي العجب حين نرى الأسلوبين الموجودين في القرآن فهذه الآية: [وهي آية واحدة] **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** [البقرة/282] هذا النصّ هو آية واحدة من سورة البقرة، وطبعا هو كلام عربيّ عاديّ لا إعجاز فيه ولا هم يحزنون وإنّما هو تشريع، بينما لننظر إلى الأسلوب الآخر: [وهو الذي يقصده الراهب بالقرآن]: سورة التكوير مثلا: **وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ واللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**....الخ، لا يخفى أنّ هذا الأسلوب من أساليب سجع الكهّان ولكن يمتاز بالجرس الموسيقيّ والجزالة في اللفظ والمتانة في العبارة وجمال البناء، فأين آيات سورة البقرة من آيات سورة التكوير؟ لا مجال للمقارنة بينهما، لا من حيث الشكل ولا من حيث الأسلوب، وكما أنّ لكلّ كاتب بصمته وروحه التي نشعر بها في النصّ فإنّنا نجزم أنّه يوجد كاتبان مختلفان للمثالين الذين أوردناهما.والأمثلة كثيرة، فهل كاتب هذه الآية:

قُل لّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ [الشورى/23]

هو نفسه كاتب هذه الآية: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** [المجادلة/12] (راجع التفاسير)

هل رؤية الشخص الأوّل في الآية الأولى والذي لا يسأل أجرا في الدين ويفعل ذلك لوجه الله، هي نفسها رؤية الشخص الثاني في الآية الثانية والذي يطلب أجرا في الدين؟ أليست الآية الثانية توافق كثيرا الشخصيّة المحمّديّة التي عرضناها في السيرة في حبّها للمال بأخذها الخمس، وحبّها الغزو وحبّها النساء؟ أليس للقرآن كاتبان مختلفان على أقلّ تقدير؟ وكلّ منهما له رؤيته الخاصّة؟ فالأوّل يقول: **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** [الأعراف/199] والثاني يقول: **إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ**

---

[498] A.L.Premare/ Aux origines du Coran/Paris/Tèraédre/2007/p94

أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ [المائدة/5] والأوّل يقول: **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** [النحل/16] والثاني يقول: **قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** [التوبة/29] هل هذان شخص واحد؟ هل يحملان الرؤية والفكر نفسه؟ الأوّل مسالم، زاهد، متعفّف، يؤمن بحجّة المنطق، والثاني عنيف، شهوانيّ، جشع، يؤمن بأنّ السيف أصدق أنباء من الكتب.

فماذا نفعل في هذا التناقض؟ الحلّ بسيط : اخترعوا شيئا اسمه الناسخ والمنسوخ، فهذا "العلم" هو اسم آخر أو تعبير آخر لكلمة "تناقض" فنسخت آيةُ السيف آيةَ الحبّ، ونسخت آية الحرب آيةَ السلم، ومن يحتاج لآيات الحرب سوى المحارب لإقناع جيشه؟ ومن يحتاج إلى الحرب سوى الساسة؟ ومن يفرض الجزية سوى الفاتح؟

وأودّ الإشارة إلى أنّ مفهوم الوحي بالنسبة لنا اليوم يختلف عن المفهوم في القرن السابع ميلادي، حيث يشير "منذر صَفَر" في كتابه "هل القرآن أصليّ" [باريس/2000] قائلا: **في القرن السابع ميلادي، فإنّ مفهوم الأصالة في كلمات الوحي، ليس له المفهوم نفسه الذي نعرفه اليوم، فالثنائيّ النبيّ وكاتب الوحي، هو الإطار المعتاد الذي نجده في الكتابات الدينيّة في الشرق الأوسط، فكلّ شخص منهما يقوم بمهمّته، والتعاون بينهما يشير إلى أصالة وصحّة ما أنتجاه**[499]

ولنا أن نذكر قصّة عبد الله بن أبي السرح الذي كان يكتب الوحي للنبيّ: **كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله الوحي فربمّا أملى عليه رسول الله (سميع عليم) فيكتب (عليم حكيم) فيقرأ رسول الله فيقول: كذلك الله، ويقرّه . وافتتن وقال ما يدري محمد ما يقول، إني لأكتب له ما شئت، هذا الذي كتبت يوحى إليّ كما يوحى إلى محمد. وخرج هاربا من المدينة إلى مكة مرتدا** [500] هذه الرواية - وبطبيعة الحال- لن تجد صدى جيّدا عند رجال الحديث فضعّفوها، بيد أنّ هناك روايةٍ أخرى انزلقت في صحيح البخاري تؤيّدها بطريقة أخرى: **عن أنس قال: كان رجل نصرانيا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران فكان يكتب للنبي فعاد نصرانيا فكان يقول ما يدري محمد إلا ما كتبت له** [501] شخصيّا لا أرجّح أنّ عبد الله بن أبي السرح ارتدّ بهذا الأمر، حيث كما أشرت فإنّ العلاقة متبادلة بين النبيّ وكاتب الوحي، وهناك آيات عديدة قالها الصحابة [كعمر بن الخطّاب] وصارت من القرآن، وإنّما جعلوه يرتدّ في الروايات لأنّ الرؤية تغيّرت فيما بعد باعتبار القرآن كلام الله حرفيّا، ولكن لم تكن كذلك رؤية محمّد ولا الصحابة ولا التابعين [على الأقلّ في القرن الأوّل هجري] ولنستمع جيّدا لما يقول السيوطي عن تنزيل القرآن:

في المنزّل على النبي ثلاثة أقوال. أحدها: أنه اللفظ والمعنى وأنّ جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به.

---

[499] Xavier Ternisien/ Le Monde/ 07 septembre 2001/p13

[500] مغازي الواقدي/ج2/ص 855

[501] صحيح البخاري/كتاب المناقب/علامات النبوّة في الإسلام

(...) والثاني: أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة وأنه صلى الله عليه وسلم علم تلك المعاني وعبّر عنها بلغة العرب وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى نزل به الروح الأمين على __قلبك__.[502]

لاحظوا أنّ القول الأوّل هو الذي يتبنّاه المسلمون الآن، بينما الثاني أي أنّ الوحي نزل فقط بالمعنى وقام النبيّ بالتعبير عنه بألفاظه الشخصيّة، هو تحديدا الذي حدث في القرن الأوّل هجري [بل وهذا ديدن الأنبياء من قبل] لذلك لا عجب أن يقول النبيّ لعبد الله بن أبي السرح: **اكتب كذلك فكلّه سواء**، ولا عجب أن يقول عمر -كما يروي البخاري-متحدّثا عن أزواج النبيّ: **واجتمع على رسول الله نساؤه في الغيرة، فقلت لهنّ: عسى ربّه إن طلقكن أن يبدّله أزواجاً خيراً منكنّ، فنزلت كذلك.**[503] [أي نزلت الآية كما قالها عمر] ولا عجب أن نرى اختلاف المصاحف حيث كانوا يكتبون المعنى وليس الحرف كما هو. لذلك نجد اختلافا في تركيب الكلمات، وكلّ صحابيّ يكتب المعنى كما فهمه، لكن الرؤية الدينيّة الدغمائيّة فيما بعد [بداية من منتصف القرن الثاني هجري] أصبحت متطرّفة وجعلت القرآن كلام الله لفظا ومعنى ومعجزا إطلاقا، ونزل بالحرف، وأنّه وصلنا كما نزل على محمّد وهذا غير صحيح فالنسخة التي وصلتنا هي نسخة عثمان – إن صحّت الرواية – والقول بأنّ القرآن هو كلام الله حرفيّا لم يكن كذلك، بل ولا ضير أن يرى المفسّر وجود خطأ في الكتابة أو في النسخ، فنرى الطبري [رغم أنّه متأخّر] يقول: "عَنِ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الْآيَة : { لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْر بُيُوتكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلهَا } وَقَالَ : إِنَّمَا هِيَ خَطَأ مِنَ الْكَاتِب : " حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا [504]

فهل يجرؤ أحد المفسّرين اليوم أن يختار كلمة من القرآن ويقول هي غير صحيحة، وإنّما يجب تغييرها بكلمة أخرى، كما فعل الطبري؟

ويكاد يتّفق جميع المستشرقين اليوم الباحثين في القرآنيّات اعتمادا على المخطوطات على أنّ القرآن أخذ قرنا من الزمن من الإضافة والتحوير والتبديل حتّى وصل إلى مرحلته النهائيّة التي نعرفها اليوم، وعلى الغالب فإنّ آخر هذا الجمع كان في عهد الحجّاج في خلافة عبد الملك بن مروان ثمّ في خلافة ابنه هشام. وكان أشار عبد المسيح الكندي [الراجح أنّه اسم مستعار استعمله يحي بن عديّ القرن الرابع هجري] إلى هذا الجمع ساخرا من قصّة جمع أبي بكر و أنّ القرآن تعرّض للتغيير و التبديل حتّى زمن الحجّاج.

و هناك اختلافات كبيرة فيمن جمع القرآن أوّلا، مبثوثة في الكتب، أمّا الروايات التي تتحدّث عن الجمع فهي تبدأ من أبي بكر وتنتهي عند عبد الملك، لكن الغريب والباعث على الدهشة هو سكوت ابن سعد في الطبقات عن قصّة جمع أبي بكر القرآن، وكأنّه لا يعرفها، بل حتّى قصّة جمع عثمان يذكرها - عرضا- بطريقة أخرى مغايرة تماما، وقد قام Motzki بدراسة كلّ الروايات في عمل دقيق ومجهد، وخلص إلى أنّ الروايات جميعها التي تتحدّث عن جمع أبي بكر وعثمان للقرآن تمرّ عن طريق الزهري وأنّ هذه الروايات عن أبي بكر وعثمان بدأت تدور تقريبا في منتصف القرن الثامن ميلادي [505] وهو ما يجعلنا نستنتج واعتمادا أيضا على كلّ ما

---

[502] السيوطي/الإتقان في علوم القرآن/ج1/ص121

[503] المصدر السابق/ج1/ص101

[504] تفسير الطبري/سورة النور

[505] Premare , p15-31, op.cit

سبق ذكره أنّ جمع القرآن تأخّر وبدأ سؤال يطرح نفسه فيما بعد [في عهد الزهري] من أوّل من جمع القرآن؟ وبما أنّه كلّما تأخّر الوقت كان الكتاب عرضة للتحريف والتزوير، فكان أحسن حلّ هو القول بأنّ أبا بكر أوّل من جمعه ثمّ عمر ثمّ عثمان. وخاصّة عثمان بن عفّان الأمويّ، فقد بدأت قصّة جمع القرآن تقريبا مع خلافة عبد الملك ثمّ ابنه بعده فمن سيختارون من الخلفاء الراشدين ومن أصحاب محمّد لينال هذا الشرف؟ يختارون أمويّا مثلهم وهو عثمان .تماما كما وصلتنا آلاف الأحاديث المنسوبة لابن عبّاس والذي كان طفلا حين توفّي النبيّ، فوضعوا في حسابه كلّ هذه الأحاديث، فالأمويّون نالوا شرف جمع القرآن بعثمان، والعبّاسيّون نالوا شرف أغلب الأحاديث والتفاسير بابن عبّاس وجعلوه حبر هذه الأمّة بطبيعة الحال فهو جدّهم

والتخبّط واضح: أوّل من جمع القرآن أبو بكر: **كان أبو بكر أوّل من جمع بين اللوحين** [506] إذ حين استحرّ القتل بالقرّاء و خاف على ضياع القرآن كلّف زيد بن ثابت بجمعه.

لا بل عليّ: **كان القرآن على عهد رسول الله مفرّقا في الصحف وفي صدور الرجال فلما توفيّ جمعه عليّ بن أبي طالب على ترتيب نزوله** [507] [طبعا يجب أن يكون للشيعة دور أيضا]

لا بل سالم مولى أبي حذيفة: **أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة أقسم لا يرتدي برداء حتى جمعه فجمعه ثم ائتمروا ما يسمونه فقال بعضهم: سموه السفر قال: ذلك تسمية اليهود فكرهوه فقال: رأيت مثله بالحبشة يسمى المصحف فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف** [508]

والبخاري يتّفق مع قصّة جمع أبي بكر القرآن ويشير إلى جمع عثمان قائلا: **حدثنا موسى حدثنا إبراهيم حدثنا ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان (...) فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق** [509]

نلاحظ أنّ دور البخاري هنا ليس نقل الخبر الصحيح وإنّما أيضا صناعته. فهذه الرواية تحمل في طيّاتها العديد من الأشياء: أنّ القرآن كان مجموعا من قبل وبقي عند حفصة أنّ الاختلافات لم تكن إلاّ في القراءات بسبب اختلاف القبائل وليس اختلافا في المصاحف، أنّ القرآن مكتوب بثلاثة شهود، وأنّه ضمنيّا مطابق للوحي. لكن الذي يجلب الانتباه سند الحديث. فعادة في علوم الحديث حين يقول الراوي "حدّثني فلان" فهو أقوى مرتبة ثمّ تأتي بعده في القوّة "أخبرني" و"عن فلان" الخ... فأن نقول: حدّثني فلان عن فلان عن فلان، هي أضعف من حدّثني فلان الذي حدّثه فلان الذي حدّثه فلان الخ.. فـ "حدّث" هي المرتبة الأقوى.

---

[506] السجستاني/كتاب المصاحف/ج1/ص153

[507] ابن جزي/التسهيل في علوم التنزيل/ج1/ص4، و راجع كتاب المصاحف/ص171، و الإتقان/ج1/ص195

[508] الإتقان/ج1/ص162

[509] صحيح البخاري/جمع القرآن

و للنظر إلى السند: حدثنا موسى حدثنا إبراهيم حدثنا ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أنّ حذيفة بن اليمان [فعل كذا]

ليس دائما ما نجد حديثا بهذه الطريقة، وهو من أقوى وأصحّ الأحاديث سندا وربطا، وبما أنّنا نعلم قصّة جمع القرآن [اعتمادا على المخطوطات والروايات الأخرى العربيّة والأجنبيّة] فإنّنا نلاحظ أنّ البخاري - ودرءا للشبهات- وضع سندا لا يمكن الطعن فيه، وهذا عمله فهو رجل حديث.

ولا يستطيع رجال الحديث إيجاد سند متين لكلّ آية فيقولون مثلا: **حدّثنا فلان حدّثنا فلان حدّثنا فلان قال رسول الله، قال الله:** ثمّ يعطون آية، وهكذا دواليك لكلّ آيات القرآن، حتّى تكون كلّها صحيحة السند، فاكتفوا بسند عام يشير إلى صحّة الجمع في عهد عثمان تحت مراقبة ثلاثة أشخاص. وزادوا في روايات أخرى أن جعلوا القرآن متواترا في صدور كلّ الصحابة كزيادة في التأكيد. ولا ندري كيف يكون متواترا والحال أنّ لكلّ صحابيّ له مصحفه المخالف للآخر. ثمّ إنّ القرآن نزل مفرّقا على ثلاث وعشرين سنة [حسب السيرة] فهل حين تنزل آية في وسط سورة يضيفها الصحابة إلى ذاكرتهم في السورة نفسها؟ لاحظوا أنّ هناك فرقا بين النصّ المكتوب الذي يمكن تعديله وبين النصّ المحفوظ في الذاكرة الذي قد يجد الحافظ صعوبة في إعادة الترتيب في ذهنه، ثمّ هل حين جمع عثمان القرآن بترتيب آخر [بغضّ النظر عن الاجتهاد أو التوقيف] أعاد الصحابة أيضا ترتيب الحفظ في صدورهم؟ ولم أجد في قصّة جمع القرآن أغرب من هذه الرواية: حيث بعد أن يشير البخاري إلى قصّة الجمع [باب جمع القرآن] يقول: **قال ابن شهاب وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال : فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري (من المؤمنين رجال صادقوا ما عاهدوا الله عليه) فألحقناها في سورتها في المصحف.**

يقول: **حتى فقدت آية كنت أسمع رسول الله يقرؤها،** فإن كان يعرفها فلماذا يبحث عنها؟ فليسجّلها مباشرة، وإن كان لا يعرفها فكيف عرف بوجودها وهو لا يعرفها؟ وأشير إلى أنّ البخاري يورد الرواية نفسها أيضا مرّة أخرى ولكن الآية التي افتقدها زيد كانت: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم) وعلى كلّ حال يبدو أنّ زيدا افتقد العديد من الآيات رغم أنّي لا أفهم ما معنى افتقد آية فذهب يبحث عنها وكأنّها عملة نقديّة.

ملحق رقم 2 (نصوص مختارة)

تيوفيل الرهوي:

Theophile d'Edesse [متوفّى سنة 169 هجري] أحد علماء الفلك في بلاط الخليفة العبّاسيّ المهدي. ترجم الإلياذة والأوديسة، وإحدى أعمال الطبيب اليوناني جالينوس إلى السريانيّة، كتب تأريخا لم يصلنا و لكن وصلنا بعضه في استشهادات المؤرّخين اللاحقين.

النصّ:

حينما بلغ محمّد سنّ الشباب، بدأ انطلاقا من مدينته يثرب، الذهاب إلى فلسطين ليتاجر، فيشتري و يبيع. وإذ تعوّد على هذه المنطقة فقد أعجبته الديانة التوحيديّة، ديانة الإله الواحد، فعاد إلى قبيلته واقترح عليهم هذه الديانة واستطاع إقناع جماعة صغيرة منهم ليؤمنوا به. وأخذ يحدّثهم عن حسن أرض فلسطين ويقول لهم: انظروا أنّه بفضل إيمانهم [أي أهل فلسطين] بالإله الواحد، فقد أعطاهم أرضا مباركة. ويضيف قائلا: إذا آمنتم بي فإنّ الله سيعطيكم أنتم أيضا أرضا توجد فيها أنهار من لبن وعسل. ولكي يؤيّد كلامه، فقد جمع [محمّد] الأشخاص الذين آمنوا به، وبدؤوا يصعدون نحو أرض فلسطين، فيهاجمون، ويغزون، ويسلبون. ثمّ يعودون محمّلين بالغنائم دون أن تحدث لهم خسائر، و لم يغضب أتباعه بما وعدهم به [محمّد] ومنذ ذلك اليوم، وتحت شهوة حبّ التملّك، صارت تلك عادتهم. وأخذوا يغزون ثمّ يعودون، أمّا الذين لم يؤمنوا به، فقد رأوا الغنائم التي يجمعها أصحابه، فجاءوا هم أيضا وانضووا تحت لوائه. ثمّ، وبما أنّ المجموعة التي معه صارت كبيرة جدّا، فلم يعد يخرج [بنفسه] إلى الغزوات ولكن بقي في يثرب، مدينته، في الشرف والمجد[510]

الأسقف سبيوس:

الكتاب بعنوان "تاريخ هرقل" تمّت نسبته خطأ إلى الأسقف سبيوس الأرمني Sebeos الذي شارك في مجمع كنسي سنة 645 ميلادي، وكاتب النصّ مجهول إلى حدّ اليوم، وإن كان الباحثون يرون أنّ الجزء الثالث من المخطوط قد يكون كتبه سبيوس نفسه [النصّ الذي سنقتبسه هو من الجزء الثالث] وعلى كلّ حال فتاريخيّة هذا النصّ لا تتجاوز لكتابتها سنة 660 ميلادي وقيمته التاريخيّة ثابتة و مبرهنة بأبحاث عديدة [511]

النصّ:

كان هنالك في ذلك الوقت اسماعيلي اسمه مهميت [محمد] وكان يعمل تاجراً، لقد قدّم لهم نفسه، كما لو أن الله أمره بذلك، كبشير، كطريق إلى الحقيقة، وعلّمهم كيف يعرفون إله ابراهيم، لأنه كان مطلعاً على قصة موسى وملمّاً بها للغاية. ولأن الأمر جاء من العلى، فقد

---

[510] Theophile d'Edesse/Chronicon/p227-228, cit.par: Hoyland/Seeing/p400-408

[511] Premare/Fondations/p379-380

توحّدوا كلهم تحت سلطة رجل واحد، في ظل شرع واحد، وعادوا إلى الإله الحي الذي كشف ذاته لأبيهم ابراهيم، بعد أن هجروا عباداتهم. حرّم عليهم مهميت أكل أي حيوان ميت وشرب الخمر والكذب و الزنا. لكنه أضاف: "لقد وعد الله هذه الأرض لابراهيم ونسله من بعده إلى الأبد، لقد عمل بحسب وعده [الله] حين أحب إسرائيل. والآن أنتم، أنتم أبناء ابراهيم، وعبركم ينجز الله الوعد الذي أعطاه لابراهيم ونسله. أحبوا فقط إله ابراهيم، اذهبوا وخذوا بلدكم التي أعطاها الرب لأبيكم ابراهيم، فما من أحد سيقدر على مقاومتكم، لأن الله معكم [512]

تاريخ ميشال السوري [القرن 12 ميلادي]
نقلا عن مخطوطات سريانيّة قديمة.

النصّ:
في تلك الفترة ظهر محمّد، ابن عبد الله، عربي، من نسل هاجر، كانت العربيّة منتشرة من نهر الفرات إلى بحر الجنوب، ومن البحر الأحمر وحتى بحر الفرس، والشعب الذي يسكن هذه المناطق يسمّى بالاسماعيليين نسبة إلى إسماعيل، ويسمون أيضا بالشرقيين [هكذا أترجم Saracens وفيها اختلاف] **وأيضا بالهاجريين نسبة إلى هاجر وأحيانا بالمدينيين نسبة إلى مدين ابن قنطورة. محمّد خرج من مدينة يثرب، وكان يذهب إلى مصر للتجارة، ويذهب إلى فلسطين حيث قابل اليهود وتدارس معهم التوراة والله الحيّ، ثمّ زوّجوه بإحدى بناتهم، وحين عاد إلى مدينته بدأ دعوته، هناك من آمن به وهناك من نعته بالجنون، حينها خرج إلى الصحراء مع المؤمنين معه واتّبعه العديد من اليهود، فاستقبلوه عندهم، وبفضل عونه قاموا بطرد الفرس, وبدأ نجمه يعلو واجتمع الناس تحت رايته، ولن يتأخّر العرب في الحصول على أراض عديدة, واسم محمّد صار مشهورا** [513]

توما القسّيس:
Thomas Le Presbytre[كتب حوالي 640 ميلادي] ينتمي إلى الكنيسة اليعقوبيّة، وهو أقدم نصّ نملكه حاليّا عن الإسلام، وتكمن أهمّيّته القصوى في معاصرته للأحداث.

النصّ:
في السنة 945، الإشارة السابعة، الجمعة 4 شباط ، الساعة التاسعة صباحا [4 فيفري 634] وقعت المعركة بين الروم وطيئيّي محمّد [نسبة إلى قبيلة طيء، حيث يطلق السريان هذا اللقب على العرب جميعا] في فلسطين، على بعد 12 ميلا شرق غزّة، بدأت الروم في الهروب مخلّفة وراءها البطريق بار يردن الذي قتله الطيئيّون، مات في تلك المعركة حوالي 4000 فلاّح مسكين من فلسطين، ومسيحيّين، ويهود، وسامريين، بينما الطيئيّون خرّبوا كلّ المنطقة [514]

[512] Histoire d'Héraclius/l'Evêque Sebeos/op.cit
[513] Chronique Michel le Grand/ch21
[514] Chronica minora/pars secunda/III, 147-148 cité par Premare/Fondations/op.cit

عقيدة يعقوب:

Doctrina Jacobi هو نصّ مكتوب باليونانيّة بين سنوات 634 و 640 ميلادي، يتحدّث فيه عن انتصار العرب، إذ قُتِل أحد الضبّاط في الحرس البيزنطي أثناء المعركة [يمكن أن نربطه مع رواية توما أعلاه] ثمّ يتحدّث عن هذا النبيّ.

هذا النصّ كعاكس للأحداث فهو مهمّ جدّا [515] وباتريسيا كرون خلصت إلى المنحى ״المسياني״ للحركة الإسلاميّة في بداياتها [516] ونحن سنعتمد على ترجمة نبيل فيّاض لكتاب ״الهاجريون״ وسنضيف عليها بعض التعديلات وبعض الجمل غير المذكورة في ترجمته

النصّ:

يقولون أنّ الضابط [Kandidatos] قُتل، ونحن اليهود فرحنا جدّا [بهذا الخبر] ويقولون أنّ النبيّ الذي ظهر مقبل مع الشرقيّين [أي العرب] يعلن عن قدوم advent المسيح الذي سيأتي [tou erkhomennou Eleimmenou kei Khristou] فذهبت أنا ابراهيم إلى شيخ مطلع للغاية على الأسفار المقدسة وسألته: "ما رأيك، أيها السيّد والمعلم، بالنبي الذي ظهر بين الشرقيّين؟" أجاب، وهو يتأوه من أعماقه: "إنه نبيّ كاذب. وهل يأتي الأنبياء بسيف ومركبة حربية؟ إن هذه الأحداث اليوم هي حقاً أعمال فوضى... لكن اذهب، يا سيد ابراهيم، واستعلم عن النبي الذي ظهر". وهكذا، قمت أنا، ابراهيم، بتحرياتي، وأخبرني أولئك الذين التقوه أنّه ليس ثمة من حقيقة يمكن أن توجد عند هذا النبي المزعوم، سوى قتل الرجال وإراقة الدماء. يقول أيضا [هذا النبيّ المزعوم] أنّه يمتلك مفاتيح الجنة وهو أمر غير صحيح". [517]

مقتطف من حوار سقيفة بني ساعدة:

حين توفّي النبيّ و اختلف الناس بعده فيمن يقوم بخلافته ذهب أبو بكر و معه جماعة من قريش إلى سقيفة بني ساعدة حيث سمع أنّ الأنصار ينوون تولية سعد بن عبادة منهم.

قال أبو بكر: نحن أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بأمره، ولا ننازع في ذلك وأنتم لكم حق السابقة والنصرة، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. وقال الحَبابُ بن المنذر بن الجَموح: منا أمير ومنكم أمير، وإن أبوا فأجلوهم يا معشر الأنصار عن البلاد، فبأسيافكم دان الناس لهذا الدين[518]

: Theodoros

معاصر لبطريك القدس Sophronis وكتب سنة 634-635 ميلادي يصف دخول العرب إلى بيت المقدس:

وبسرعة، ودون أن ينتظروا، وصلوا إلى المكان الذي نسمّيه الكابيتول [معبد سليمان] وأخذوا معهم بعض الرجال، بعضهم بالقوّة وبعضهم عن طيب خاطر، لكي يقوموا بتنظيف المكان

---

[515] A.L.Preamare /les fondations/148-150

[516] Patricia Crone/Haggarisme/Cambridge University Press/1977/ترجمة نبيل فيّاض

[517] Hoyland/seeing/p 57 ; Doctrina Jacobi/ V 16/ Déroche /p208-209

[518] تاريخ ابن خلدون/ج2/ص64

وبناء هذا الشيء اللعين [يقصد المسجد] لكي يقيموا فيه صلواتهم. من بين هؤلاء الأشخاص كان يوجد يوحنّا رئيس شمامسة كنيسة القديس تيودور الشهيد، أخذوه معهم لأنّه كان يعرف وضع الرخام بوصفها مهنته. لقد استطاعوا إغراءه وذهب يعمل في البناء بكامل حرّيته. جعلوه كالخاتم في أصابعهم [519]

بعض نقوش من صحراء النجف، القرن السابع ميلادي [520]

أنقلها كما هي دون إضافة الهمزة و لا يبدأ ذكر اسم محمّد في النقوش إلاّ مع خلافة عبد الملك كما أشرنا من قبل.

نقش رقم (16) MA 4210

غفر الله رب
موسى [و] عيسى لقـ[يس] بن سويد حيا و مـ[يتا]
امين رب العلمين رب
[الناس] اجمعين

نقش رقم (19) MA 4269

[غـ]فر الله رب
موسى و عيسى
لخالد بن حمران
حيا و ميتا

The Qasr Xaranah inscription dated 92/710

اللهم ارحم عبد الملك ابن عمر
و اغفر له ذنبه ما تقدم منه و ما تاخر
من ما اسر و ما اعلن
و ما احد كان من نفسه قابل لك
الا تغفر له و ترحمه ان امن
امنت برب فمن علي انت المنان
و ترحم علي فانك انت الرحمن
اللهم انني اسئلك ان تقبل منه [كذا مكتوبة: اسئلك]
صلاته و هيابته
امين رب العلمين رب موسى و هرون
رحم الله من قراه ثم قال امين امين

---

[519] Premare/Fondations/p166
[520] Nevo/ Crossroads to Islam/p380 et passim

رب العلمين العزيز الحكيم
و كتب عبد الملك بن عمر
يوم الاثنين لثلث بقين من المحرم
من سنة اثنين و تسعين
[شهد] لام بن هرون
و اسرح بنا ان نجتمع بنبي و نبيه
في دنيا و الاخر[ة]

لاحظوا أنّه لا وجود لاسم محمّد في هذا النقش وإنّما يذكر فقط موسى وهارون رغم الصبغة الإسلاميّة البادية لنا ولكنّي أتناول هذا الأمر في الكتاب القادم.

نقش رقم (31) BR 5115
اللهم صلي انت و
ملئكتك على بشر [بـ]ـن تميم
و تقبل منه [ا]نك على كل
شيء قدير اللهم صلي عليه
و ابعثه مقامـ[ـا] محمودا
و اكرمنه على اعين الاولين
و الاخرين

أختم بهذا النصّ:

أبو الفرج الأصفهاني [القرن الرابع هجري]
أبو سفيان يمازح رسول الله في بيت بنته أم حبيبة ويقول: والله إن هو إلا أن تركتُك فتركتْك العرب فما انتطحت جماء ولا ذات قرن، ورسول الله يضحك ويقول: أنت تقول ذاك يا أبا حنظلة [521]

لم يتركه أبو سفيان وتمّ لهم هذا الأمر.

---

[521] أبو الفرج الأصفهاني/ الأغاني/ج2/ص204

قائمة المصادر والمراجع

- ابن كثير/البداية و النهاية /تحقيق علي شيري/ دار إحياء التراث العربي/1988

- الطبري/تاريخ الرسل و الملوك/ دار الكتب العلميّة/بيروت/1986

- محمّد بن حبيب البغدادي/المنمّق في أخبار قريش/ تحقيق: خورشيد أحمد فاروق/عالم الكتب/لبنان/1985

- ابن حجر/الإصابة في تمييز الصحابة/تحقيق: علي محمّد البجاوي/ دار الجيل/لبنان/1992

- ابن الأثير/أسد الغابة في معرفة الصحابة/ تحقيق:عادل أحمد الرفاعي /دار إحياء التراث العربي/1996

- مالك بن نبيّ/الظاهرة القرآنيّة/دار الفكو المعاصر/بيروت/ 2000

- السهيلي/الروض الأنف/ تحقيق:عمر عبد السلام السلامي/دار إحياء التراث العربي/لبنان/2000

- ابن هشام/السيرة النبويّة / تحقيق:مصطفى السقّا-الأبياري-شلبي/دار الكتب العلميّة/لبنان/2004

- ابن الأثير/الكامل في التاريخ/ تحقيق عبد الله القاضي/دار الكتب العلميّة/لبنان/1994

- الإمام الذهبي/سير أعلام النبلاء/تحقيق بإشراف شعيب الأرناءوط/ مؤسّسة الرسالة/1985

- ابن سعد/الطبقات الكبرى/تحقيق د.علي محمّد عمر/مكتبة الخانجي/مصر/2001

- ابن سيّد الناس/عيون الأثر/ مؤسّسة عزّ الدين للطباعة و النشر/لبنان/1986

- السيوطي/الإتقان في علوم القرآن/ تحقيق:سعيد المندوب/دار الفكر/لبنان/1996

- الرازي/التفسير الكبير/دار الفكر/بيروت/1977

- محمّد بن جعفر الكتاني/ نظم المتناثر من الحديث المتواتر/ دار الكتب السلفيّة للطباعة و النشر/ مصر

- فرج فودة/الحقيقة الغائبة/ دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع/مصر/1988

- جلال الدين السيوطي /الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور/ دار الفكر/بيروت/1993

- مغازي الواقدي/ تحقيق مارسدن جونسون/عالم الكتب/بيروت

- أحمد بن يحي بن جابر البلاذري/فتوح البلدان/ تحقيق صلاح الدين المنجر/القاهرة/1958

- الحميدي/الجمع بين صحيحي بخاري و مسلم/تحقيق د علي حسن البواب/دار ابن حزم/لبنان/2002

- تفسير مقاتل بن سليمان/ تحقيق : أحمد فريد/دار الكتب العلمية /لبنان/ 2003

- ابن أب الحديد /شرح نهج البلاغة/ /تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم /دار إحياء الكتب العربية/1959

- ابن حجر العسقلاني/المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية/تنسيق:د. سعد الشثري/دار العاصمة/ السعودية/1419ه

- ابن شبة النميري البصري/تاريخ المدينة/دار الفكر/تحقيق محمد شلتوت/1410 ه

- مصنف أبي شيبة/دار الفكر/1994

- ابن قيّم الجوزيّة /زاد المعاد في هدى خير العباد/مؤسسة الرسالة/ بيروت/ 1994

-ابن حزم الأندلسي/المحلّي بالآثار/تحقيق: عبد الغفار البنداري/دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع/لبنان/2001

- تاريخ ابن خلدون/دار إحياء التراث العربي/ لبنان / الطبعة الرابعة

- ابن عبد البر/ الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ تحقيق علي محمد البجاوي /دار الجبل/بيروت/1412ه

- الزَّبيدي/ تاج العروس من جواهر القاموس/ مجموعة من المحققين /دار الهداية

- مهدي رزق الله أحمد /السيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصليّة/مركز الملك فيصل للبحوث/1992

-إسرائيل ولفنسون/اللغات السامية/مطبعة الاعتماد/مصر/1939

-سليمان بشير/مقدّمة في التاريخ الآخر/القدس/1984

- أنساب الأشراف /أحمد بن يحيى البلاذري/ تحقيق سهيل زكار، ورياض زركلي /دار الفكر/ 1417ه

-طه حسين/في الأدب الجاهلي/مطبعة فاروق/1933

-حمزة الأصفهاني/في تواريخ ملوك و سنيّ الأرض و الأنبياء/1833

- فصول من تاريخ الإسلام السياسي/هادي العلوي/مركز الأبحاث و الدراسات الاشتراكيّة في العالم العربي/قبرص/1999

- السمعاني/الأنساب/ تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي/ دار الجنان/لبنان/1988

-المقريزي/النزاع و التخاصم/تحقيق صالح الورداني/دار الهدف للإعلام و النشر/1999

-الواقدي/فتوح الشام/دار الكتب العلمية/ 1997

- السيوطي/الإتقان في علوم القرآن/ تحقيق : سعيد المندوب /دار الفكر/ لبنان

-ابن أبي داود السجستاني/كتاب المصاحف/دار البشائر الإسلاميّة/تحقيق محبّ الدين واعظ/طبعة2/2002

-ياقوت الحموي/معجم البلدان/تحقيق فريد الجندي/دار الكتب العلميّة/1995

- الإصابة في تمييز الصحابة/العسقلاني/ تحقيق علي محمد البجاوي/دار الجيل/بيروت/1992

- هشام جعيّط/تاريخيّة الدعوة المحمّديّة/دار الطليعة/لبنان/2007

-عبد الرحمن بدوي/تاريخ الإلحاد في الإسلام/دار سينا للنشر/مصر/1993

-معروف الرصافي/الشخصيّة المحمّديّة/دار الجمل/ألمانيا/2002

المكتبة الشاملة الإلكترونيّة، shamela.ws:

- المسعودي /التنبيه و الإشراف

- أبو حامد الغزالي/إحياء علوم الدين

- البخاري/التاريخ الكبير

- ابن عبد ربّه/العقد الفريد

- أبو عبيد القاسم بن سلام /لغات القبائل في القرآن

- ياقوت الحموي/معجم البلدان

- برهان الدين الحلبي/السيرة الحلبيّة.

- القزويني/آثار البلاد وأخبار العباد

- أبو الفرج الأصفهاني/الأغاني

- جواد عليّ/المفصّل في تاريخ العرب

- البيهقي/المحاسن و المساوئ

- الأزرقي/أخبار مكّة

- الإدريسي/ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

- الطبري/تاريخ الخلفاء

- أبو حيّان التوحيدي/ الإمتاع والمؤانسة

- البكري/معجم ما استعجم

- اليعقوبي/تاريخ

- الزمخشري/الكشاف

- ابن خلكان/وفيات الأعيان

-عبد الرزاق/مصنف

-ابن تغري بردي/النجوم الزاهرة

المراجع الأجنبية:

-Maxime Rodinson / Mahomet/ Seuil / paris/ 1994

-Beeston, Bulletin Of The School Of Oriental And African Studies, 1985, Volume 48

-Theophanis /Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae/ Chronographia/V1-41/1839

-A.L.Preamare /les fondations de l'islam/Seuil/2002

-Chronique Michel le Grand/ Victor Langlois /Italie/1868

-Talmud/Cohen/Payot/Paris/1991

-Louis Ginzberg/The legends of jews/tr: Gabrielle sed-Rajna/ Editions Cerf/Paris/2001

-J.M.Gallez / le Messie et son prophète / Tome2/Paris/2005

- les manuscrits de la mer morte/Michael Wise/Plon/Paris/2001

- Nau François/l'expansion nestorienne en Asie/Annales/Paris/1913

-Robert Hoyland/Seeing Islam as others saw it /The Darwin press/USA /1997

-Abbas Sadeghian/ Sword and Seizure/ Annotation press/USA/2006

-René Marchand/Mahomet, contre enquête /Paris/L'échiquier/2006

-Revue Belge de numismatique/ Philippe de Saxe Cobourg/Volume 47/ Bruxelles/1891

-Catalogues des monnaies musulmanes de la BN/Khalifes orientaux/Henri Lavoix /Paris/1887

-Bibliothèque historique de Diodore de Sicile/préface: Ferd.Hoefer/Paris/1851

-D.Nevo and Koren/crossroads to Islam/Prometheus Books/USA/2003

-Ptolemee/ Geographia/ tr: Edward Luther Stevenson/ Liv 6/ Arabia Felix/1991

-Smith's Dictionary of Greek and Roman Geography/site internet:artflx.uchicago.edu

-The Historical Geography of Arabia/Forester/Vol1/London/1840

-George C. Miles, Early Islamic Inscriptions Near Ta'if in the Hejaz, Journal of Near Eastern Studies/ Vol. 7/ 1948

-Alessandro de Maigret/Chroniques yéménite/La route caravanière de l'encens dans l'Arabie préislamique/vol 11/2003

-Histoire d'Héraclius/l'Evêque Sebeos/tr: Frédéric Macler/Imprimerie Nationale/Paris /1894

-François Jourdan/ la tradition de sept dormants/Maisonneuve/1983

-The Hidden Origins of Islam/K.H.Ohlig and G.Puin/Prometheus Books/USA/2010

-A.L.Premare/ Aux origines du Coran/Paris/Tèraédre/2007

-Xavier Ternisien/ Le Monde(magazine)/ 07 septembre 2001

-Sciences et avenir(magazine)/ Sur les traces d'Alexandre/12-2009

-Journal Asiatique/A.L.Premare/V.288/T2/2000

-Pseudo-Callisthène/tr. Gilles Bounoure et Blandine Serret/Les Belles Lettres/Paris/2004

الفهرس